

الالف كتاب

مغامرات "هاكلبري فن"

(١٨٥)

بإشراف إدارة الثقافة العامة
وزارة التربية والتعليم

هذا ترجمة لكتاب :

The Adventures of HUCKLEBERRY FINN

تأليف

MARK TWAIN

الآلف كتاب (١٨٥)

مغامرات "هاكلبري فن"

تأليف

مارك توين

مراجعة

فريد عبد الرحمن

رجمة

ماهر نسيم

الناشر

مكتبة مصر

٢ شارع كابل صدف (البحالة)

دار مصر للطباعة

١١٢٧ شارع لا سمدق - القاهرة

نبذة عن المؤلف

((مارك توين))

* ولد عام ١٨٣٥ ، ووافته منيته عام ١٩١٠ بعد أن عاش خمسة وسبعين عاما .

* كاتب عصامي ، بلغ مكانته المرموقة في ميدان الأدب بعد جهد مرير وكفاح شاق طويل ، فقد اشتغل عاملا في المناجم ومراسلا صحفيا ومحاضرا في المعاهد .

* اشتهر بسخريته اللاذعة ودعابته الحلوة التي توصل بها في معالجة المشاكل الاجتماعية .

* وضع عدة كتب أشهرها « توم سوير » - ظهر في سلسلة (الألف كتاب) في عام ١٩٥٦ - و « هاكلبري فن » - التي نقدمها الآن - و « الحياة على نهر المسيسيبي » عدا عدة كتب أخرى حظيت بتقدير النقاد في كل مكان ، وترجمت الى عدة لغات أجنبية .

* كاتب مصلح ، لم يخل أى كتاب له من محاولة لاصلاح المجتمع والقضاء على الادواء ، والمتالب الاجتماعية .

تقديم

أصدرنا في عام ١٩٥٦ ، ضمن مجموعة « الألف كتاب » قصة (توم سوير) للكاتب الساخر « مارك توين » ، وهى قصة غلام تهفو نفسه الى المغامرة والمخاطرة وينبض قلبه بما ينبض به قلوب البشر عادة من حب وبغض ، وقلق وارتياح ، والمومرح ، وخذلان وانتصار ، ونورة على النفس ورضاء بالواقع .

ولقد اقتسم بطولة قصة « توم سوير » غلامان صغيران هما « توم سوير » المغامر المحظوظ ، و « هاكبرى فن » الفتى الشريد الضائع . ولقد أراد « مارك توين » ذلك لأنه أحب أن يجعل من هاتين الشخصيتين وحدة متماسكة تؤدي غرضا واحدا هو معالجة مشاكل المجتمع معالجة صادقة ، ونقدها نقدا صارما في وقت واحد .

وانتهت قصة « توم سوير » كما قد يذكر القراء ، بعثور الغلامين على كنز ثمين اقتسماه ، وعهد كل واحد منهما بنصيب منه الى اصدقاء كبار استثمروا لهما ذلك المال . واصبح « هاكبرى فن » الفتى الشريد الضائع نجما من نجوم المجتمع ، فقد آوته سيدة كريمة تناولته بالثقيف والتهذيب ، وراحت تغرس فيه العادات الفاضلة والتقاليد الحميدة لى تجعل منه مواطنا صالحا . ولكن « مارك توين » حينما أنهى قصة « توم سوير » على ذلك النحو ، كان قد اعتزم أن يتتبع حياة الغلامين مرة أخرى ، فيؤرخ

لهما بعد أن أصبحا شابين يافعين نريين ، ومن ثم قال في خاتمة تلك القصة « وعند هذا الحد تنهى هذه القصة » ، وأنه لمن الخبر أن تنهى هنا ، لأنها لا تعدو أن تكون ترجمة حياة غلام هو توم سوير . . . ولو أن القصة مضت الى ما هو أبعد من ذلك ، لكان حتما أن تصبح ترجمة حياة رجل . فعندما يكتب المرء قصة عن أحد الراشدين ، فإنه بدرك أين ينبغي له أن يتوقف . . . عند زواج ملا . ولكنه حينما يكتب عن الأحداث ، فإنه يحرص على أن يتوقف عن الكتابة عند أحسن خاتمة ملائمة . . . ان معظم الأشخاص الذين لعبوا ادوارا في هذه القصة ما زالوا على قيد الحياة ، وهم ناجحون سعداء . وقد يأتى يوم ، يصبح من الأفضل فيه أن تستأنف رواية قصص هؤلاء الصغار مره اخرى ، لنرى أى طراز من الرجال والنساء صاروا ، ومن ثم فان الحكمة تقتضي لنا ألا نزيح الستر عن أى جزء من أجزاء حياتهم فى الوقت الحاضر » . على هذا النحو أنهى « مارك توين » قصة « توم سوير » ، ذلك أنه كان يمهّد لقصته الأخرى « مغامرات هاكلبرى فن » التى نتشرف اليوم بتقديمها الى القراء الكرام .

وواضح من خاتمة قصة « توم سوير » ، أن قصة « مغامرات هاكلبرى فن » هى تنمة القصة الأولى ، ففى قصة اليوم ، يرسم « مارك توين » ما آل اليه « هاكلبرى فن » الفتى الشريد الضائع الذى أثرى بغتة وبطريق « المصادفة » .

ولئن كانت قصة « توم سوير » قد عالجت حياة غلامين صغيرين مغامرين لعب حب المغامرة بعقليهما فأشقاهما وأشقى ذويهما فى بادئ الأمر ، ثم أسعدهما وأسعد ذويهما فيما بعد ، فان قصة « مغامرات هاكلبرى فن » تعالج حياة شابين يافعين تصطدم حياتهما بتقاليد المجتمع وأوضاعه ، ثم لا يلبث الخير المتأصل فى

نفسيهما أن يطفى على شرور المجتمع بحكم ما جبلت عليه النفس البشرية من خير طبيعي .

ولقد صور « مارك توين » البيئة التي تدور فيها القصة تصويرا رائعا كشف عن تقاليد تلك البيئة وعاداتها ، بكل ما تحفل به من أهواء ونوازع وخرافات وعادات موروثة . . . فهناك مشكلة الزنجى الذى لم يكن يحظى بالتقدير الملائم ؛ وهناك مشكلة الناس البسطاء الذين يؤمنون بالسحر والشعوذة والشياطين ؛ وهناك مشكلة الأب الضائع الذى غلبه الشر على أمره فراح يطارد ابنه ليسرق ماله وينفقه على ملذاته وشرابه ؛ وهناك مشكلة الفتاة العانس التى تقضى حياتها بين الكتب والكنيسة ؛ وهناك مشكلة الموظف البيروقراطى الكبير الذى يكتسب تقدير الناس له من طريق منصبه لا من طريق شخصيته وثقافته ؛ وهناك مشكلة الرجل الذى يتخذ من منصبه وسيلة لبلوغ ما يطمح اليه من مهابة ومجد ؛ وهناك مشكلة الفنى الضائع الذى يضيق بالنظام والنظافة والحضارة ويحن الى حياته البدائية الأولى حرصا منه على الاستمتاع بحريته البدائية ؛ وهناك مشكلة الآباء والأمهات الذين يشقون بحياة أبنائهم الصغار ولا يملكون الا أن يستطيخوا هذه الحياة لأنها تجرى على هذا النحو دائما ؛ وهناك مشكلة الشبان الصغار الذين يشبون على تقاليد ومقاييس ومفاهيم فرضت عليهم فرضا ، ولم يعد فى وسعهم الا أن يرضخوا لها كما يرضخون للقدر دون أن يفهموا لها معنى فى بادىء الأمر . . . وهناك عشرات من المشاكل الاجتماعية الأخرى التى عالجها « مارك توين » معالجة صادقة عامرة بالدعابة الحلوة التى لا تهدف الى مجرد التسلية بقدر ما تهدف الى الإصلاح الاجتماعى .

ولما كان « مارك توين » قد حرص على أن يكتب هذه القصة باللغة « الدارجة » لا الفصحى ، فقد قام بذهننا فى بادىء الأمر

أن ننقلها باللغة العربية « الدارجة » أيضا حتى لا تفقد شيئا من روعتها ، ولكننا عدلنا عن ذلك حتى لا نهبط بمستواها الأدبي ، وإن كنا قد تعمدا أن نكون اللغة الفصحى التي نقلنا بها القصة الى العربية سهلة بسيطة لا هي بالمتحذلقه ولا هي بالعامية !!
ولقد وقع اختيار ادارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم على هذه القصة بالذات لأنها تصور الحياة الانسانية تصويرا رائعا ، يستهدف الارتقاء بالذات والتطلع الى الامام وتغليب الخير على الشر مهما اشتدت قوة المؤثرات والمغريات .
وفي الختام ، هذه لمحة خاطفة عن قصة « مغامرات هاكلبري فن » التي نتشرف بوضعها بين أيدي القراء الكرام ، سائلين الله تعالى أن يوفقنا جميعا الى ما فيه الخير والتوفيق ، والسلام .

ماهر نسيم

فريد عبد الرحمن

مغامرات هاكلىبرى فن

الفصل الأول

واطسون - نوم سوير فى الانتظار .
تهذيب هاكلىبرى - الانساسة

انك لن تعرفنى ايتها القارىء الا اذا كنت قد قرأت كتابا بعنوان
« نوم سوير » (١) ، وان كنت اعتقد الا اهمية لذلك ، فقد ألف
مستر « مارك توين » هذا الكتاب وضمنه جوهر الحقيقة ، ومعانه
سمح لنفسه بان يبتدع بضع حقائق نسجها خياله ، فانه توخى
الصدق بصفة عامة . وعلى أية حال ، فاننى لا اذكر اننى قابلت
انسانا لم يكذب مرة أو اخرى ، ولست استثنى من ذلك « الخالة
بولى » أو « الأرملة دوجلاس » وربما « مارى » . ولقد ذكر
« مارك توين » كل شىء عن « الخالة بولى » - وهى خالة نوم -
ومارى ، والأرملة دوجلاس فى هذا الكتاب . . وهو كتاب صادق فى
مجموعه مع بعض الجنوح الى الخيال كما قلت من قبل .

(١) صدرت قصة « نوم سوير » ضمن مشروع الألف كتاب فى عام ١٩٥٦ ،
ونشرتها مكتبة الانجلو المصرية - ترجمة ماهر نسيم ومراجعة فريد عبد الرحمن .

أما مجمل هذا الكتاب اذا كنت لم نقرأه فكما بلى :
عشرت أنا وتوم، على النقود التي أخفاها اللصوص في الكهف، وبذلك
أصبحنا في عداد الأثرياء ، فقد حصل كل منا على ستة آلاف دولار من
الذهب . ولقد كان منظر الذهب منيرا للرغبة عند ما كدسناه . .
وتولى القاضى « فانشر » توظيف هذا المال لقاء فائدة ، فكان كل
منا يحصل على دولار يوميا على مدار السنة ، وهو اكثر مما
يستطيع الانسان انفاقه . واتخذت الأرملة دو جلاس منى ابنا ،
وقررت أن نهذبني ، ولكنى ضقت بالحياة في منزلها بسبب صرامة
النظام ، رغم ما كانت الأرملة نفسها تتصف به من دماثة خلق ،
ومن ثم بادرت بالفرار ، حينما استعصى على احتمال صرامة النظام
في منزل الأرملة ، فهربت ، وعدت الى ارتداء أسالي البالية ، والنوم
في البراميل ، ولكن توم سوير استطاع أن يعثر على ، وقال لى انه
قرر تكوين جماعة من المغامرين ، وأن فى استطاعتى ان انضم اليها
بشرط أن أعود ثانية الى الأرملة وأن أكون رجلا محترما ، وهكذا
عدت !

وبكت الأرملة عند ما عدت اليها ، ووصفتنى باننى حمل تعس
ضال ، كما أطلقت على أسماء أخرى كثيرة ، ولكنها لم تقصد من
ذلك كله أية اساءة ، وألبستنى تلك الشباب الجديدة مرة أخرى ،
فلم يلبث العرق ان انسال من كل جسمى ، وشعرت باننى مقيد
الحركة تماما . . . وهكذا استؤنفت الحياة القديمة ثانية ؛ وهى حياة
مرهقة ، عليك أن تخضع لها ، فاذا ما دقت الأرملة الجرس لاعداد
طعام العشاء ، كان عليك أن تعد نفسك لتناوله فى الوقت المحدد ،
واذا ما جلست الى المائدة ، فانك لم تكن لتستطيع أن تنقض على
الطعام فتلتهمه التهاما ، وانما كان عليك أن تنتظر ريثما تحنى الأرملة
رأسها وتتمتم ببضع كلمات عن ذلك الطعام ، وان كنت أعتقد أنه
لم يكن هناك ما يدعو لذلك ، فقد كان كل لون من ألوان الطعام

يطهى على حدة ، على حين أن البرميل الذى كنت أبحث فيه عن الطعام وأنا شريد ضال ، كان شيئاً آخر يختلف عن ذلك تماماً . . فهو يحتوى على فضلات عدة تختلط ببعضها ، ونمزج عصائرها فتنتج شيئاً لطيفاً !!

وكنت كلما شعرت بالرغبة فى التدخين ، وطلبت من الأرملة أن تسمح لى بذلك ، أجبت بالرفض ؛ فقد كانت تقول دائماً ان التدخين عادة ممقوتة غير نظيفة ينبغى لى أن أقلع عنها .

وكانت أختها الأنسة واطسون ، وهى عانس ترتدى عوينات ، قد وصلت لتوها لتقيم مع الأرملة ، فلم تلبث أن تولت أمر تعليمى فى كتاب للتهجية ، وقضت قرابة ساعة وهى تعلمنى فى خنسونة معتدلة ، ولقد طلبت منها الأرملة أن نتوقف لانى لم أستطع احتمال هذا العناء أطول من ذلك . ثم مضت ساعة بغیضة كنت اثناءها كثير التملل ، وكانت الأنسة واطسون لا نفتأ تقول لى « لا تضع قدميك هكذا عاليا يا هاكبرى ! » . . « لا تنكمتس هكذا ياهاكبرى ! » . . « اجلس معتدلا ياهاكبرى ! » . . ثم لا تلبث أن تقول : « لا تفتح فمك وتمدد هكذا يا هاكبرى ! » . . « لماذا لا تحاول أن تتأدب يا هاكبرى ! »

واستمرت الأنسة واطسون تنتقدنى ، فبدأت أشعر بالضيق والوحدة ، وبعد فترة من الوقت استدعى الزوج وأقيمت الصلاة ، وأوى كل واحد منا بعدئذ الى فراشه ، أما أنا ، فصعدت الى غرفتى وأنا أحمل قطعة من الشمع وضعتها فوق المنضدة ، ثم جلست فوق مقعد بجانب النافذة ، وحاولت أن أفكر فى شىء سار ولكن عبثاً ، فقد شعرت بوحدة قاتلة جعلتنى أتمنى الموت . . كانت النجوم تتألق فى السماء ، وأوراق الأشجار تحدث حفيفاً حزيناً فى الغاب ، ولم ألبث أن سمعت نعيب يومة من بعد ، وكأنها كانت تنعى شخصاً قضى ، وأعقبه عواء كلب خيل الى انه كان يبكى من

أجل شخص يوشك أن يموت ، بينما كانت الريح تحاول أن تهمس الى بشيء لم أستطع أن أتبينه ، ولهذا انتفضت فزعا... وبعدئذ سمعت صوتا صادرا من قلب الغاب اشبه بصوت تسبح يريد الافضاء بشيء يدور بخلد فلا يفهمه الناس ، ومن ثم فانه لا يستطيع أن يرقد مستريحا في فبره ، ويضطر الى سلوك هذا المسلك عينه كل ليلة وهو يشعر بأعظم الحزن ! ولقد غاص قلبي بين ضلوعي ، واجتاحني وزع عظيم ، وتمنييت لو أن احدا كان معي ، وبعد قليل بدأ عنكبوت يزحف فوق كتفي فضربته بيدي ، فسقط فوق الشمعة ، وقبل أن أتمكن من انقاذه من النار احترق وانكمش ، ولم اكن بحاجة لان يذكرني احد بان ذلك نذير مسئوم !! وانتابني الفزع ، حتى لقد كدت انضو النياب عني ، واسرعت بالوقوف ، ودرت على عقبي ثلاث مرات ، وانا أرسم علامة الصليب فوق صدرى في كل مرة . وبعدئذ ربطت خصلة صغيرة من شعري بقطعة من الحيط كى اطرده السحرة عني !! ولكنى لم اكن واثقا من ذلك ، لأن المرء يفعل مثل هذا الشيء فقط عندما يفقد حدوة حصان ، كان ينبغي أن يدقها فوق الباب ! ولكنى لم أسمع ابدا ان مثل هذا الصنيع خليك بإبعاد « النحس » عن شخص قتل عنكبوتا !!

وجلست ثانية وأنا أنتفض بشدة . وبعد فترة طويلة ، سمعت ساعة المدينة البعيدة تدق اثنتى عشرة دقة . ثم ساد مرة أخرى صمت أشد كآبة من ذى قبل ، وسرعان ما سمعت صوت غصن يتحطم فى الظلام الذى كان يخيم على الأشجار ، فأدركت أن شيئا ما يتحرك بين تلك الأشجار ، وأصغيت السمع ، وما لبثت أن سمعت مواء متكررا صادرا من قلب الظلام . وكان هذا نداء مشيرا ، مضيت أكرره بدورى بصوت رقيق قدر طاقتي ، وبادرت فاطفات الشمعة ، وتسلفت النافذة الى سطح الحظيرة ، ثم انزلت الى الأرض وزحفت بين الأشجار ، ولم البث أن وجدت « توم سوير » فى انتظارى ... فقد كان « المواء » هو اشارة اللقاء .

الفصل الثاني

الأولاد يتهربون من جيم - جيم وجماعة
توم سوير - خطط موضوعة بعناية .

سرنا فوق أطراف أصابعنا في طريق تحف به الأشجار يؤدي
الى مؤخرة حديقة منزل الأرملة ، ونحن نحرس على خفض رءوسنا
حتى لا تحتك أغصان الأشجار بها . وعند ما كنا مر بالمطبخ ،
تعثرت في جذر شجرة وأحدثت ضوضاء ، فأسرعنا لتمدد على
الأرض وقد لذنا بالصمت ، وكان خادم الأنسه واطسون الزنجي ،
واسمه جيم ، جالسا عند باب المطبخ ، وكان في استطاعتنا أن نراه
بوضوح ، لأن ضوئا خافتا كان ينبعث من خلفه ؛ وما لبث الزنجي
أن هب واقفا ومد عنقه الى الخارج زهاء دقيقة وهو يصيح السمع،
ثم صاح :

- من هناك ؟

وأصاخ الزنجي السمع فترة أطول من ذي قبل ، ثم أقبل يسير
على أطراف أصابعه ، وتوقف بيني وبين توم ، غير بعيد منا ، حتى
لقد كان في استطاعتنا ان نلمسه . ومضت دقائق ودقائق من
الصمت الثقيل ، وأحسست بأن جسمي « ياكلني » في مكان
قريب من ركبتي ولكني لم أحكه ! ثم انتقل هذا الاحساس الى
أذني ، ثم الى ظهري بين كتفي ، وخيل الى انني سأموت اذا لم

أحك هذه المواضع كلها . والعجيب في الأمر اننى لاحظت ان هذا الاحساس انتابنى مرات كثيرة من قبل ، فانك حين تحاول النوم وأنت لا تشعر بالنعاس ، أو حين تكون في موقف لا يحسن بك فيه أن تحك أحد أجزاء جسمك ، لا تلبث أن تعاني الأمرين من « الأكلان » في آلاف المواضع !!

وبعد قليل قال جيم :

— من أنت ؟ وأين أنت ؟ اننى واثق من اننى سمعت صوتا . . . حسنا ، اننى أعرف ماذا ينبغي أن أفعل . سأجلس هنا وأصغى ريثما أسمع الصوت ثانية .

وهكذا جلس الزنجى على الأرض بينى وبين توم ، واستند بظهره الى جذع شجرة ، ومد ساقيه أمامه حتى كادت احدهما تلمس ساقى ، وبدأ أنفى « يأكلنى » حتى لقد اغرورقت عيتاى بالدموع ، ولكنى لم أحكه ولم أدر كيف استطعت احتمال هذا العذاب الذى ظل ما يقرب من ست أو سبع دقائق ، وان خيل الى أن المدة كانت أطول من ذلك ! ولقد كنت أعانى من « الأكلان » فى أحد عشر موضعا مختلفا ، وأيقنت اننى لن أستطيع احتمال هذا العناء دقيقة واحدة أخرى ، ولكنى أطبقت أسناني ، وتهيأت لمحاولة الاحتمال بكل قوة ، وفى تلك اللحظة ، بدا جيم يتنفس بثقل، ثم لم يلبث أن ارتفع شخيره . . . وفى التو شعرت بالراحة مرة أخرى .

وأتى « توم » بإشارة لى بأن أطلق من فمه صوتا كنا قد اتفقنا عليه ، وبدأنا نرحف فوق يدينا وركبتينا ، وعند ما أصبحنا على مبعدة عشرة أقدام من جيم ، همس « توم » قائلا انه يرغب فى شد وثاق « جيم » الى الشجرة لمجرد اللهو ، ولكنى رفضت الموافقة على هذه الفكرة خشية أن يستيقظ الزنجى فيكتشف الجميع اننى لست بالمنزل ! وعندئذ قال « توم » انه لا يملك شموعا كافية ، وانه

سيئسل الى المطبخ ليحضر مزيدا من السموع ، فقلت له اننى لا اوافق على هذه المحاولة ، اذ يحتمل ان يستيقظ جيم ويفضح أمرنا ، ولكن « توم » قرر المجازفة ، فنسلنا الى المطبخ وحصلنا على ثلاث شمعات ، وترك توم قطعة نقود من ذات الخمسة السنتات (ما يعادل قرشين) فوق المنضدة ثمنا للسموع ، ثم انصرفنا بعد أن غرقت في العرق لفرط لهفنى على مفادره ذلك المكان ، ولكنى لم أستطع أن أثنى « توم » عن الزحف الى حيث كان « جيم » نائما ، فقد قرر أن يسخر منه . أما أنا ، فقد انتظرت ، وخيل الى أن وقتا طويلا قد مر قبل أن يعود « توم » ، وكان الكون هادئا صامتا ، يلقي بالوحشة والوحده فى القلوب .

وما ان عاد « توم » حتى انطلقنا فى الممر ، ثم درنا حول سياج الحديقة ، وسرعان ما بلغنا قمة تل شديد الانحدار على الجانب الآخر للمنزل ، وقال « توم » انه نزع قبعة « جيم » من فوق رأسه ، وعلقها على غصين فوق رأسه مباشرة ، ومع أن « جيم » تلمل قليلا ، الا انه لم يستيقظ . . وفيما بعد قال « جيم » للناس ان السحرة سحره ، وأفقدوه الوعي ، ثم ركبوه وطافوا به فى أرجاء المدينة ، وأعادوه مرة أخرى الى مكانه تحت الأشجار ، وعلقوا قبعته فوق غصين ليدلوا على من فعل ذلك !! وعند ما ذكر « جيم » القصة فى المرة التالية قال ان السحرة طافوا به حتى ولاية نيو أورليانز ! وكان كلما أعاد سرد قصته ، تبسط فيها أكثر فأكثر ، الى أن انتهى الأمر بقوله ان السحرة طافوا به العالم كله وأتعبوه الى درجة الموت ، وأحدثوا فى ظهره عشرات «الدمامل» بسبب السرج الذى وضعوه فوق ظهره قبل أن يركبوه ! وكان جيم يزهو بذلك ويتفاخر ؛ وجعله هذا يتعاضم على غيره من الزنوج . وكان كثيرون منهم يقطعون الأميال الطويلة لكى يستمعوا الى قصته ، فأصبح أشهر زنوجى فى البلاد كلها ! وكان الزنوج

الغرباء يصفون اليه بأفواه فاغرة ، وهم يرمقونه بنظراتهم . كما لو كان أعجوبة من العجائب . ومع أن الزوج اعنادوا ان يتحدثوا عن السحرة في الظلام وهم جالسون حول نار المطبخ ، فإن « جيم » كان كلما شرع أحدهم في التحدث عن السحرة والسحر ، يصرخ في وجهه : « آه . . . ماذا تعرف أنت عن السحرة ؟ » وهكذا يرتج على الزوجي المتحدث ، ويضطر الى الانزواء ! ولقد حرص « جيم » على الاحتفاظ بقطعة النقود ذات السنتات الخمسة التي تركها « توم » فوق منضدة المطبخ معلقة في خيط حول عنقه . وكان يقول انها طلسم اعطاه الشيطان له بيديه . وقال له انه يستطيع شفاء أى شخص من علله واسقامه بهذا الطلسم . وانه في مقدوره ان يستدعى السحرة كلما اراد ذلك بتلاوة تعويذة معينة على هذا الطلسم ! ولكنه - اى جيم - لم يفض لأحد اطلاقا بما كان يقوله للطلسم ! وهكذا بدا الزوج يفدون من كل حذب وصوب لمقابلة جيم واعطائه كل ما معهم من نقود في مقابل القاء نظرة على قطعة النقود ذات السنتات الخمسة ، ولكنه لم يكن يسمح لهم بلمسها ، بحجة ان الشيطان قد وضع يديه عليها ! ! ولقد اضر ذلك كله بجيم كخادم ، اذ بدا الناس جميعا ينهرون منه ، لأنه رأى الشيطان ، وسمح للسحرة ان يركبوه ! !

وأخيرا ، عند ما وصلنا الى حافة قمة التل ، تطلعتنا الى القرية البعيدة ، وكان فى استطاعتنا ان نرى ثلاثة او اربعة اضرواء متلائة ، لعلها كانت تنبعث من منازل قوم مرضى ، اما النجوم ، فكانت أشد ما تكون لمعانا فوقنا . وفى القرية اسفلنا ، كان يجرى نهر عرضه ميل كامل ، وكان هادئا وعظيما بشكل يتير الرهبة . وانحدرنا من فوق التل ، فوجدنا « جو هاربر » و « بن روجرز » و غلامين أو ثلاثة آخرين . وكانوا جميعا مختبئين فى فناء المدبغة ، وبعد قليل فككنا أحد القوارب ، وانطلقنا به فى النهر مسافة ميل

ونصف ميل الى أن بلغنا فجوة في جانب التل . وهناك هبطنا الى الشاطئ .

ومضينا الى دغل كثيف ، واستحلف « توم » الفلمان جميعا أن يحافظوا على السر . وبعدئذ أطلعهم على فتحة في التل الذى يقع فى أشد أجزاء الدغل كثافة ، ثم أوقدنا الشموع وزحفنا داخل الفتحة فوق أيدينا وركبنا ، وبعد أن قطعنا ما يقرب من مائتى ياردة ، ألفينا أنفسنا عند فتحة كهف . وهنا راح يتلمس طريقه بين الممرات ، ولكنه سرعان ما اندفع أسفل جدار لم يكن فى استطاعتنا أن نلاحظ أن به فجوة . . . وصرنا فى ممر ضيق الى أن بلغنا مكانا يشبه الغرفة . وكان المكان رطبا باردا ، وهناك توقفنا ، وقال توم :

— سنبدأ الآن عملنا كجماعة من المخامرين ! وسنطلق على أنفسنا اسم « جماعة توم سوير » ، وعلى كل من يريد الانضمام اليها أن يدلى بقسم ويكتب اسمه بالدم !

ولم يتردد أحد من الحاضرين فى الموافقة على ذلك . ثم اخرج « توم » رقعة من الورق كان قد كتب عليها صيغة القسم ، وقراها . وكانت هذه الصيغة تقضى بأن يقسم كل غلام على ألا يتخلى عن الجماعة ، وألا يبوح بأى سر من أسرارها ، وإذا أساء أى شخص الى فرد من أفراد الجماعة ، فان على أى غلام يؤمر بمقاطعة هذا الشخص وأسرته أن يفعل ذلك بلا إبطاء ، وعليه أيضا ألا يأكل أو يشرب حتى ينفذ الأمر . وإذا أفشى أحد أفراد الجماعة أسرارها ، فيجب أن يفصل منها ويشطب اسمه من القائمة ، ولا تذكره الجماعة بعد ذلك . . . ثم تنساه الى الأبد !

ولقد ردد كل واحد منا هذا القسم بلهجة جدية ، ثم سألنا « توم » ان كان القسم من بنات أفكاره ، فقال ان بعضه من

صياغته . وانه اقتبس البعض الآخر من كتب المغامرين ومن صيغ القسم الذى كانوا يدلون به .

وقال البعض انه من الأفضل مقاطعة جميع أفراد عائلات الغلمان الذين يفشون الأسرار ! وقال « توم » انها فكرة حسنة ، ثم أخرج قلما وأضاف هذه الفقرة الى صيغة القسم . وعندئذ قال « بن روجرز » :

— مهلا لحظة ، ان « هاكليرى فن » لا أسرة له ، فماذا ستفعلون به اذا أخطأ ذات يوم ؟
فسأله توم سوير : أليس له أب ؟

— نعم ، ان له أبا ، ولكنك لا تستطيع العثور عليه فى هذه الأيام ، فقد اعتاد أن ينام مع الخنازير فى ساحة المدينة وهو مخمور . ولكن أحدا لم يره فى هذه البقاع منذ عام أو أكثر .

وتناقش الانان فى هذا الأمر ، وكادا يستبعدان « هاكليرى » من الجماعة بدعوى انه يجب أن يكون لكل غلام أسرة أو شخص يمكن مقاطعته . لأنه ليس من العدالة أن يطبق المبدأ على الغلمان ذوى الأسر دون غيرهم . ولم يستطع أحد أن يفكر فى مخرج من هذا المأزق . وجلس الجميع صامتين . أما أنا ، فكنت على وشك البكاء . وفجأة خطرت لى فكرة للخروج من المأزق ، فقد عرضت عليهم مقاطعة الأنسة واطسون !! فقال الجميع :

— أوه . . انها تكفى . . انها تكفى . . هذا حسن . . يستطیع
« هاكليرى » ان ينضم الى الجماعة .

وغرس كل منهم دبوسا فى أصبعه ليسيل دما توقع به على الورقة ، فحدوت حدوهم .

وقال « بن روجرز » : والآن . . ماذا سيكون منحنى هذه الجماعة فى العمل ؟

فقال توم : لا شىء غير المغامرة التى لا تضر أحدا .

فقال « بن روجرز » : ولكن ماذا ستكون سبيل هذه المغامرة ؟

... و ...

فقاطعه « توم سوير » قائلا :

— سيكون أهم عمل لنا هو تعقب اللصوص وقطاع الطرق ؛
فاذا ثبت لنا أنهم مجرمون حقا ويسلبون الناس أموالهم وماشييتهم ،
عملنا على استعادة هذا كله منهم ورده الى أصحابه ؛ اما عن
طريق البوليس واما بطريق المفاجأة . . ولن يكون في ذلك اغتصاب ،
فنحن لسنا مغتصبين ولا نحب الاعتداء على أحد . ولكن اذا ثبت
أن من هؤلاء الخارجين على المجتمع قتلة وسفاحين ، ساعدنا
البوليس على القبض عليهم وكف أذاهم عن الناس .
فاذا حدث أن قبضنا على بعض اللصوص ، ولم نر في اطلاق
سراحهم ثانية ما يهدد المجتمع ، طالبنا أهاليهم بالفدية !
— فدية ؟ وما هى الفدية ؟

— لست أدري ! ولكن هذا مايفعله المغامرون دائما ! ولقد قرأت
عن الفدية فى الكتب . ومن ثم ، فهذا هو ما يجب علينا أن نفعله !!
— ولكن كيف يمكننا أن نفعل ذلك ونحن لا نعرفه ؟
— مهما يكن من أمر ، فانه يجب علينا أن « نفعل » ذلك ! ألم
أقل لك انه مذكور فى الكتب ؟ هل تريد أن تأتى عملا يخالف
ما ورد فى الكتب ، وأن تفسد كل مغامرتنا بذلك ؟
— أوه ، انها ولا شك آراء لطيفة يا « توم سوير » ، لكن كيف
يمكن بحق السماء أن نفتدى هؤلاء الأشخاص ونحن لا نعرف
كيف نتصرف حيالهم ؟ هذا هو ما أبغى معرفته . فماذا عساه
أن يكون معنى الفدية ؟

— لست أدري . ولعل معنى الاحتفاظ بهؤلاء الأشخاص الى
أن يفتدوا ، هو الاحتفاظ بهم الى أن يموتوا !!
— لعل هذا هو التفسير الصحيح . . ولكن لماذا لم تقل ذلك

من قبل ؟ اذن سوف نحفظ بهم الى أن يفتدوا بالموت ! ولبس
من شك في أنهم سيسببون لنا مشاكل كثيرة ، فسوف باكلون
كل شيء ويحاولون الفرار دائما .

— ما هذا الذى تقوله يا « بن روجرز » ؟ كيف يستطيعون
الفرار وهناك حراس يراقبونهم ولا يترددون في اطلاق النار
عليهم اذا بدر منهم ما يدل على محاولتهم الهرب ؟

— حراس ؟ .. هذا عجيب ! ! اذن ، فان شخصاً ما سيسهر
الليل بطوله ولن يطبق له جفن لكى يراقب الاسرى ؟ اعتقد ان
فى ذلك حماقة . لماذا لا يلتقط الانسان هراوة و « يفتديهم »
بمجرد مجيئهم الى هنا ؟ ! !

— لأن ذلك ليس مذكورا فى الكتب ! .. هذا هو السبب
يا « بن روجرز » .. هل تريد أن تعالج الأمور حسب النظام
المتبع ام بطريقة مخالفة ؟ — هذه هى المسألة .. ألا تظن ان اولئك
الذين وضعوا الكتب يعرفون الاجراءات الصحيحة التى ينبغى
اتخاذها ؟ هل تظن « أنك » تستطيع أن تعلمهم شيئا ؟ كلا
يا سيدى ! سوف « نفتدى » هؤلاء الأشخاص بالطريقة المتبعة .
— على أية حال .. ان ذلك لا يهمنى ، وان كنت أعتقد انها
طريقة تدل على الحماسة ! . وهل نفتدى النساء أيضا ؟

— لا ، فان أحدا لم يقرأ عن مثل هذا فى الكتب ! ان الكتب تقول
ان النساء ينقلن الى الكهف ، وانه يجب عليك أن تكون مهذبا
معهن . فلن يلبس بعد فترة من الوقت أن يقعن فى حبك ، فتتلاشى
رغبتهن فى العودة الى منازلهن ! !

— هذا جميل ! .. اذا كانت هذه هى الطريقة المتبعة ، فانى
أوافق عليها ! ولكنى لا أؤمن بها ! فاننا لن نلبث أن نجد الكهف
مكتظا بالنساء والرجال الذين ينتظرون الفدية ، ومن ثم فلن نجد

مكانا نلوذ به !.. ومهما يكن من أمر ، فقل ما تشاء ، فليس
عندى ما أقوله .

كان «تومى بارنس» الصغير قد استسلم للنوم فى تلك الأثناء ،
وعندما أيقظوه تملكه الفزع وبكى وقال انه يريد أن يذهب الى أمه
لأنه لا يرغب فى أن يكون مغامرا !

وأخذ الجميع يسخرون منه ، وأطلقوا عليه اسم « الطفل
الصغير » ، فجن جنونه ، وقال انه سوف يفشى جميع أسرارنا ،
ولكن توم أعطاه خمسة سنتات ليمسك لسانه ، وقال اننا جميعا
سنعود الى منازلنا ، على أن نتقابل ثانية فى الأسبوع المقبل
لنستأنف مغامراتنا . !!

وقال « بن روجرز » انه لا يستطيع مغادرة منزل أسرته كثيرا
اللهم الا فى أيام الاحاد فقط . ومن ثم طلب أن تبدأ الجماعة عملها
فى يوم الاحد التالى ، ولكن جميع الفلمان قالوا انه من النذالة أن
يفعلوا ذلك فى يوم أحد ! وهكذا بت فى الأمر ، واتفق الجميع على
أن يتقابلوا معا ، ويحددوا يوما للعمل فى أقرب فرصة مستطاعة ،
ثم انتخبنا « توم سوير » زعيما للجماعة و « جو هاربر » وكيلا
لها . وعدنا الى منازلنا ، وتسلفت الحظيرة ، ثم تسلفت من نافذة
غرفتى قبل أن يطلع الفجر . وكانت ثيابى مبللة بالندى وملطخة
بالأوحال ، كما كنت متعبا أشد التعب !!

الفصل الثالث

نظرة فاحصة - انتصار الخير - تمثيل دور المفاهيم
- الجن - أكلوبة من أكاديب « توم سسوير » .

وفي الصباح تعرضت لعملية فحص دقيق من الأنسة واطسون بسبب ما كانت عليه ثيابي من سوء حال ، ولكن الأرملة لم تنهرني ، وإنما نظفت ثيابي من الشحم والوحل ، وقد بدا عليها الأسف لأنني لم أحاول اصلاح أخلاقي ! وبعدئذ اصطحبتني الأنسة واطسون الى غرفة صغيرة حيث صلينا .! وقالت لي الأنسة واطسون انه ينبغي أن أصلي كل يوم حتى أستطيع الحصول على كل ما أطلبه في صلاتي ! ولقد جربت ذلك ، ولكن الصلاة لم تحقق لي أى مطلب ! فذات مرة حصلت على خيط سنارة ولكن بشبر شص ، وصليت ثلاث أو أربع مرات لعلني أحصل على شص ، ولكنني لم أستطع لأمر ما أن أحقق أمنيته بالصلاة !! ومرت الأيام الى أن جاء يوم طلبت فيه من الأنسة واطسون أن تصلي نيابة عني ، ولكنها قالت لي انني أحقق ! بيد أنها لم تذكر لي سبب ذلك ، كما انني لم أستطع أن أفهمه حتى كبرت فعرفت قيمة الصلاة التي لم تستطع « الأنسة واطسون » أن تفهمني قيمتها في ذلك الوقت ، وكم كنت أحمقا وأنا صغير . . لقد كنت أحدث نفسي قائلا : « اذا كان الناس يستطيعون الحصول على ما يريدون

بالصلاة فلماذا لا يستعيد « ويكون وين » النقود التى فقدتها في
تربية الخنازير ؟ ولماذا لا تستطيع الأرملة دوجلاس أن تسترد
علبة « السعوط » الفضية التى سرقت منها ؟ ولماذا لا تستطيع
الآنسة واطسون أن تزيد من وزنها ؟ « وعندئذ أيقنت أنه ليس
في الامكان أن يحقق الانسان أمنيته بالصلاة ! وذهبت الى الأرملة
وقلت لها رأيي ، فقالت ان الشيء الذى يستطيع الانسان الحصول
عليه من الصلاة هو « الهبات الروحية » لا الهبات المادية !!
ولما كان المعنى الذى قصده من ذلك غامضا على ، فقد مضت
تفسره لى قائلة انه يجب على أن أساعد الناس وأن أفعل كل
ما في طاقتي من أجلهم وأن أترقبهم طوال الوقت وألا أفكر إطلاقا
في نفسي !! ولقد فهمت انها توجه هذه النصائح الى الآنسة
واطسون أيضا !! وخرجت الى الغاب مرة أخرى ، وقضيت
وقتا طويلا وأنا أقلب ما سمعته من الأرملة في رأسي ، ولكني
لم استطع أن أتبين له أية ميزة اللهم الا ايتار الآخرين ! ومن ثم
فقد قررت في النهاية ألا أزعج نفسي بالتفكير في مثل هذه الأمور !!
وكانت الأرملة تنتحي بي ناحية منعزلة في بعض الأحيان وتحدثني
عن القدر بطريقة تسيل لعاب الانسان ، ولكن الآنسة واطسون
كانت لا تلبث أن تحدثني في اليوم التالي حديثا يحو الأثر الذى
تركه حديث الأرملة في نفسي ! لذلك بدأت أعتقد أن هناك قدرين ،
وان الانسان يستطيع أن يرتاح الى قدر الأرملة ، فاذا ما تولت
الآنسة واطسون زمام أمره ، ضاع كل شيء ! وفكرت في الأمر
بامعان ، وقررت أن أنتمي الى القدر الذى تتحدث الأرملة عنه ،
وان كنت لم أستطع أن أدرك كيف يمكن أن يكون القدر أحسن
مما كان من قبل ، وأنا غلام جاهل لا حول لى ولا قوة !! .. اما

بعد أن كبرت وبما عقلى واتسعت مداركى ، فقد عرف من أمر
القدر ما عرفت من أمر الصلاة .

وكان قد انقضى عام كامل دون أن يرى أحد أبى ، ولهذا كنت
أحس براحة شديدة لاننى لم أكن راغبا فى رؤيته مرة أخرى ،
لانه اعتاد أن يسىء الى كلما تخلص من سيطرة الخمر وامكنه أن
يظفر بى ، مع اننى كنت أحرص دائما على الاختفاء منه فى الغاب
كلما استطعت الى ذلك سبيلا . ولقد سمعت من بعض الناس
انهم عثروا على غريق فى النهر على مبعدة اثنى عشر ميلا من
القرية ، وان هذا الغريق الذى عثر عليه كان فى قوام أبى تقريبا ،
وكان يرتدى أسمالا بالية مثله ، وله شعر مسترسل بشكل غير
عادى مثل أبى الذى كان يترك شعرة يطول بشكل غير عادى ،
ولكن الناس لم يستطيعوا تمييز وجه الغريق لأنه بقى وقتا طويلا
فى الماء فضاعت معالمه تماما . وقالوا انه كان طافيا على ظهره
فانتشلوه ودفنوه على الشاطئ . ولم يدم ارتياحى طويلا لأن
خاطرا طرا على بالى فأزعجنى . فقد كنت أعلم تمام العلم أن
« الرجل » الغريق لا يطفو على ظهره ، وانما يطفو على وجهه !!
ومن ثم أدركت أن الغريق لا يمكن أن يكون أبى ، وانما كان امرأة
فى ثياب رجل !! وهكذا انتابنى القلق من جديد ، وأدركت أن أبى
لن يلبث أن يظهر ثانية فى أحد الأيام مع اننى كنت أتمنى من كل
قلبي ألا يفعل !!

وقضينا حوالى شهر ونحن نقوم بمغامراتنا ، ثم استقلت من
الجماعة ، وفعل الغلمان مثلما فعلت ، لأننا لم نقم بأية مغامرة ذات
بال ، وانما اكتفينا بالتظاهر والادعاء بأننا مغامرون ! فقد كنا
ندفع خارجين من قلب الغاب ، ثم نتظاهر بالانقضاء على

الصوص ، وعلى قطعان الخنازير المسروقة ، ولكننا لم نستطع أن نحقق بصفة عملية حلما من هذه الأحلام ! وكان « توم سوير » يطلق على الخنازير اسم « الذهب ! » وعلى اللفت اسم « الجواهر » ! وكنا نعود بعد ذلك الى الكوخ حيث نتحدث ضاحكين عما فعلناه ، وعن عدد اللصوص الذين قبضنا عليهم ، وعن الخنازير التي أعدناها الى أصحابها ، ولكنى لم أتبين اننا ربحنا شيئا على الاطلاق ! وذات مرة ، أرسل « توم سوير » غلاما يحمل شعلة وهو يعدو في المدينة ، وكان يطلق على ذلك اسم « الشعار » ! وكانت تلك هى العلامة المتفق عليها لجمع أفراد الجماعة ، فلما التأم شملها قال « توم سوير » انه تلقى من جواسيسه معلومات سرية مؤداها أن مجموعة كبيرة من اللصوص سيعسكرون فى كهف « هولو » فى اليوم التالى ، وأن معهم مائتى فيل وستمائة جمل وأكثر من ألف دابة من دواب الحمل وكلها محملة بالماس ، وأن اربعمائة لص يتولون حراسة هذه القافلة الكبيرة ، ولذلك فان فى استطاعتنا أن ننصب لهم فخا . . ! وقال أيضا أنه يجب علينا أن نشخذ سيوفنا ونعد بنادقنا للعمل . ومع انه لم يستطع أن يطارد احدى المركبات المحملة باللفت ، فقد أصر على اعداد السيوف والبنادق للعمل ! وكانت هذه السيوف والبنادق تتكون من عصى المكائس ! وكان علينا أن ننظفها بكثرة الحك ، فتضاءلت وأصبحت عديمة الجدوى ! ولم أصدق اننا سنستطيع أن نقضى على مثل هذا الحشد الكبير من اللصوص ، ولكننى كنت تواقا الى مشاهدة الجمال والفيلة ! ولذلك حرصت على أن أكون فى « الكمين » فى اليوم التالى ، وكان يوم أحد ! وعند ما صدر الينا الأمر ، اندفعنا الى خارج الغاب وانحدرنا من فوق التل ولكننا لم نجد لصوصا ولا جمالا ولا فيلة ، وكل ما وجدناه ، جماعة من صغار التلاميذ والتلميذات فى رحلة مدرسية ! ! وأفسدنا الرحلة ،

ورحنا نطارد الصفار حتى كهف « هولو » ، صادرين فى ذلك عن
السذاجة التى يتصف بها الأطفال أمثالنا دائما . بيد أننا لم نحصل
من وراء ذلك الا على قليل من الفطائر والمربى ، وان كان « بن
روجرز » قد استطاع أن يحصل على دمية من القماش ، بينما
حصل « جو هاربر » على كتاب دينى وكراسة ! وسرعان ما خف
المدرس الى مطاردتنا ، فاضطررنا الى التخلّى عن كل ما استولينا
عليه ثم هربنا ! وهكذا لم أر ذهباً أو ماساً ، ولما قلت ذلك لتوم
سوير قال انه كانت هناك أكداش منه على كل حال ، كما قال
انه كان هناك لصوص وفيلة وأشياء أخرى ! فسألته : لماذا لم
نرها اذن ؟ فأجاب بأن ذلك سببه جهلى ، لأنى لم أقرأ كتاب
« دون كيشوت » ١ !! فلو أننى قرأته لعرفت كل شىء ، ولما كنت
بحاجة الى القاء هذه الأسئلة عليه ! وأضاف ان كل شىء يحدث
بالسحر ! ثم قال ان هناك مئات من الجمال والفيلة فضلا عن
الكنوز ، الا أن لنا أعداء أطلق عليهم اسم السحرة ، أحالوا كل
شىء الى أطفال مدرسة من مدارس الأحد بدافع من الحقد ، فقلت
له : اذن فان ما يجب أن نفعله هو أن نلجأ الى السحرة ! . وعندئذ
قال « توم سوير » اننى جاهل عقيم التفكير !! . وأردف : ان فى
استطاعة الساحر أن يدعو اليه عددا كبيرا من الجن ، وهؤلاء
يستطيعون القضاء عليك قبل أن تتمكن من النطق باسم « جاك
روبنسون » !! ! انهم طوال كالأشجار ، ضخام كمبنى الكنيسة .
فقلت : ولنفرض اننا استطعنا أن نطلب من بعض هؤلاء الجن
مساعدتنا ؟ ألا نستطيع بذلك أن نتغلب على الجماعة الأخرى ؟ .
فقال : وكيف يمكننا أن نصل اليهم ؟
فقلت : لست أدري . . كيف يتصلون هم بهم ؟

(١) صدرت قصة « دون كيشوت » ضمن مجموعة الالف كتاب .

فقال : انهم يملكون مصباحا عتيقا أو خاتما حديديا ، يحكه نه فيندفع الجن اليهم ، بعد فرقة كفرقة الرعد وضوء كالبرق الخاطف ، وتحيط بهم سحب كثيفة من الدخان ، ولا يترددون في تنفيذ كل ما يطلب منهم ! ان هؤلاء الجن قادرون على اتيان أى شىء . قلت : ومن الذى يجعلهم يجيئون على هذه الصورة ؟ .

قال : أى شخص يملك المصباح أو الخاتم ، أن هؤلاء الجن يصبحون خدما مطيعين لأى شخص يحك المصباح أو الخاتم ، كما انهم مرغمون على تنفيذ كل ما يطلبه منهم ، فاذا طلب منهم صاحب المصباح أو الخاتم أن يشيدوا قصر طوله أربعون ميلا من الماس الخالص وأن يملأوه « باللبان » أو أى شىء يريد ، وأن يأتوه بآبنة أحد الأباطرة الصينيين ليتخذ منها زوجة ! فانهم يلبون الأمر بلا معارضة أو ابطاء ، بحيث يتم كل شىء قبل شروق شمس اليوم التالى ! وأكثر من ذلك انهم يشيدون هذا القصر فى أية بقعة يختارها من المدينة ! هل فهمت ؟

فأجبت : أكبر الظن أن هؤلاء الجن أغبياء لانهم لا يحتفظون بالقصر لأنفسهم بدلا من أن يشيدوه لغيرهم ! فلو أننى كنت واحدا منهم ، لما لبيت نداء أى شخص يحك مصباحا قديما من الصفيح !! بل لو أننى كنت واحدا من هؤلاء الجن ، لتخليت عن عملى !

— انك تهرف يا هاكلىرى .. انك ستكون مضطرا للمجىء كلما حك انسان المصباح سواء أردت ذلك أم لم ترده !

— ماذا تقول ؟ هل أكون طويلا كالشجرة ، ضخما كمبنى الكنيسة ، وانصاع لأمر شخص ما ؟ ! وحتى اذا رضخت لأمره ، فسوف أجعل مثل هذا الشخص يتسلق شجرة تفوق أية شجرة وجدت فى البلاد ارتفاعا وطولا !!

— هذا سخف . . من العبث التحدث معك يا هاكبرى ، فان
رأسك فارغ أجوف !!
وفكرت فيما سمعته من « توم سوير » يومين أو ثلاثة ،
وقررت أن أتأكد مما اذا كان في قوله هذا شيء من الصدق ،
فحصلت على مصباح قديم من الصفيح وخاتم حديدي ، وذهبت
الى الغاب وأخذت أحكما الى أن انسال العرق من جسمي
بغزارة وأنا أعلل النفس بتشديد قصر أبيعه بعد تشييده ، ولكن
جهودي ذهبت أدراج الرياح ، اذ لم يأت أحد من الجن ، وعندئذ
أيقنت ان كل ما سمعته من « توم سوير » لم يكن الا أكذوبة من
أكاذيبه التي لا ينضب لها معين !!
وأيقنت كذلك انه يؤمن بالخرافات والسحر ، ولم أسمح لنفسى
بأن أؤمن بمثل هذه الخرافات !!

الفصل الرابع

التقدم ببطء ((ولكن بثقة)) -
هاكلبرى والقاضى - خرافة *

مضت ثلاثة شهور أو أربعة ، تم أقبل النساء ومضى منه تنطرب
طوبل ! وكنت أقضى معظم وقتى فى المدرسة ، فتعلمت القراءة
وبعض مبادئ الكتابة أيضا ، كما استظهرت ستة أسطر من
جدول الضرب ، فكنت أستطيع أن أقول مثلا ان $6 \times 7 = 42$!
ولكننى كنت واثقا من اننى لن أستطيع أن أذهب الى ما هو أبعد
من ذلك حتى ولو عشت الى الأبد ، فقد كنت لا أهضم مادة
الحساب !!

ولقد نفرت من المدرسة فى بادىء الأمر ، ولكننى لم ألبث أن
ألفتها بمرور الوقت ، وكنت كلما استولى ألتعب على لعبت
الهُوكى ، فأشعر بالانتعاش والمرح فى صباح اليوم التالى ، وهكذا
كنت كلما مضت الأيام وكثر ترددى على المدرسة ازداد اطمئنانا
وارتياحا اليها ، كما اننى ألفت أسلوب الأرملة فى الحياة الى
حد ما ، رغم ما كنت أشعر به من ضيق أحيانا من جراء الحياة
فى منزل نظيف والنوم فوق سرير ! ولهذا دأبت ، قبل حلول
فصل الشتاء ، على التسلل من المنزل والنوم فى الغاب ! وكان
ذلك يتيح لى ارتياحا عظيما لأننى كنت لا أزال أحن الى حياتى

القديمة ! واذ بدأت آلف الحياة الجديدة بعض الشيء ، كانت الأرملة تقول اننى أتقدم وئيدا ولكن بتقّة ، وان سلوكى أصبح يدعو للارتباح ! وحدث ذات صباح ان اصطدمت يدى بوعاء الملح فسقط وتنشرت محتوياته ، وعندئذ أسرعمت أمد يدى ، والتفت قليلا منه ، ألقيته من فوق كتفى الأيسر لأطرد النحس عنى ، ولكن الأنسة واطسون سبقتنى الى ذلك وزجرتنى قائلة : « ابعد يديك يا هاكلىرى ! انك تفسد كل شيء دائما ! » وتدخلت الأرملة فامتدحتنى ، ولكن مديحها هذا لم يطرد النحس عنى ! ومن تم فما كدنا نفرغ من تناول طعام الافطار حتى غادرت المنزل وأنا قلق مضطرب ، أتساءل : أين سيدهمنى النحس ؟ واية كارثة تلك التى ستتحقق بى ؟ . . ومع اننى كنت أعلم أن هناك عدة وسائل أخرى لابعاد بعض أنواع النحس ، فقد كنت واثقا من أن نكبتى لن تكون قابلة للتجنب ، ولذلك لم أحاول أن افعل شيئا لدرئها ، واكتفيت بالترقب والانتظار وأنا منهار معنويا !!

ومضيت الى الحديقة الأمامية فتسلقت سياجها العريض . وكانت الأرض مغطاة بطبقة حديثة من الجليد سمكها بوصة ! وسرعان ما رأيت آثار أقدام فوقها . وكان من الواضح ان صاحب هذه الآثار قد أقبل من الحجر وتريث قليلا عند الدرج المؤدى الى السياج ثم استقله وراح يدور حول سياج الحديقة . وبدا لى أن هذا الرجل الغريب لم يدخل الحديقة بعد أن وقف خارجها هذه الفترة الطويلة . ولم أستطع أن ادرك جلية الأمر ، وابتغيت أن فى الأمر ما يدعو للغرابة ، وكدت أتعقب هذه الآثار ، فانحنيت أتأملها أولا ، ولكنى لم ألاحظ شيئا فى البداية ، غير اننى لم البث أن تبينت أن هناك رسم صليب محفورا فى الجليد فى اتر خذاء القدم اليسرى ، وكنت أعلم أن هذا الصليب يتخذ دائما وسيلة لطرد النحس والشيطان !!

واستويت واقفا في الحال ! ومضيت أهبط السياج على عجل
وأنا لا أفتأ أنطلع ورأى من فوق كتفى ، ولكنى لم أر أحدا ،
وانطلقت أركض دون أن أتوقف حتى بلغت منزل القاضي تاتشر .
واستقبلنى الرجل قائلا : لماذا تلهث هكذا يا بنى ؟ هل جئت في
طلب ما حققته نقودك من ربح ؟

فأجيب : لا ياسيدى . . . هل أستحق بعض الربح ؟
— نعم ، انك تستحق اليوم ربح نصف عام . . . أكثر من مائة
وخمسين دولارا (ريالاً) . . . انها تروة كبيرة يجمّل بك أن
تستثمرها مع الستة آلاف دولار التى تملكها ، لأنك أن أخذت هذا
الربح ستبدده وتنفقه !

فقلت : لا يا سيدى ، اننى لا أريد انفاقه ، بل اننى لا أريده على
الاطلاق ، بل ولست أريد الستة الآلاف الدولار أيضا !! لقد وهبتك
هذا المال يا سيدى . . . أعنى الستة الآلاف الدولار أيضا !
— ماذا تعنى يا بنى ؟

فقلت : أرجو الا تلقى أية أسئلة على . . . خذ المبلغ كله
الا تفعل ؟

فقال : حسنا . . . اننى فى حيرة . . . هل مسك ضر ؟
— أرجوك أن تأخذه ، ولا تطلب منى تفسيراً لذلك حتى
لا تضطرنى للالتجاء الى الكذب .

فتأملنى مليا ، ثم قال :
— أكبر ظنى أننى فهمت . . . انك تريد أن تبيعنى كل ماملك !!
انها فكرة سليمة !

ثم كتب بضع عبارات على رقعة من الورق وقرأها على
وقال :

— اسمع ، لقد كتبت « مبايعة » ، ومعنى ذلك اننى اشتريت

أملكك منك ، ودفعت لك منها . . . اليك دولارا ، ووقع هده الوثيقة .

ووقعت الوثيقة ، وانصرفت .

واذ كنت أعرف أن « جيم » الزنجي خادم الأنسة واطسون كان يحتفظ بكرة في حجم قبضة اليد اقتطعها من معدة نور . وكان يستعملها في السحر والشعوذة بحجة أن بداخلها روحا تعرف كل شيء ، فقد ذهبت اليه في تلك الليلة وقلت له أن أبى عاد ثانيا ، واننى تبينت أنار قدميه فوق الجليد ، واننى أريد أن أعرف ماذا ينبغى أن أفعل ، وما الذى سيقوله ؟ وأخرج جيم الكرة وهمس لها تم رفعها وتركها تسقط على الأرض ، فتدحرجت قليلا ثم تبتت في مكانها ! وكرر « جيم » ذلك مرة ثانية ثم ثالثة ولكن الكرة كانت تتدحرج في جميع المرات الى بوصة أو اثنتين ثم تتوقف ، وعندئذ ركع « جيم » فوق ركبتيه والصق أذنه بالكرة وأصاح السمع ولكن بدون جدوى ! قال جيم ان الكرة ترفض الكلام ! وأضاف انها لا تتكلم في بعض الأحيان الا بنقود ! فقلت له اننى أملك ربع دولار قديم مزيف لا يصلح لشيء لأنه مصنوع من النحاس . وان كان مغطى بطبقة من الفضة وأخرى من الشحم والقذار ! ولم أذكر له شيئا عن الدولار الذى أعطانى اياه القاضى ! ثم اضعب أن قطعة النقود التى معى لا تصلح لشيء ولكن من الجائز أن تقبلها الكرة لأنها لن تعرف انها مزيفة !! وأخذ « جيم » قطعة النقود وشمها ، وقضمها بأسنانه ثم حركها ، وأخيرا قال انه سيجعل أن يجعل الكرة تعتقد انها قطعة نقود صحيحة لا غبار عليها ! ثم أضاف بأنه سيشق ثمرة بطاطس إيرلندية ثم يضع قطعة النقود في الشق ويحتفظ بها على هذا النحو طوال الليل ، حتى اذا ماحل صباح اليوم التالى اختفى النحاس ، وطبقة الشحم والقذار المتراكمة فوقها ، وبذلك يمكن تداولها بسهولة ! ولقد كنت أعلم من

فبل أن البطاطس تستطيع أن تفعل ذلك ولكنى كنت قد نسيت ذلك فى تلك اللحظة .

ووضع « جيم » قطعة النقود تحت الكرة ثم ركع فوق ركبتيه وأصاح السمع مرة أخرى ، وفى هذه المرة قال ان الكرة لم تعارض ، وانها مستعدة لأن تكشف لى عن مستقبلى اذا شئت ، فطلبت اليه أن يفعل ذلك ، وتحدثت الكرة الى « جيم » ، ونقل « جيم » الى ما قالته . . .

قال : ان أباك لا يعلم بعد ما سيفعله ، فهو يقول أحيانا انه سيرحل ولكنه يعود فيقول انه سيبقى ، وخير ما يمكن أن تفعله هو أن تهون عليك وتدع الرجل العجوز يمضى حينما يحلو له ، أن هناك ملاكين يحومان حوله ، أحدهما أبيض متألق والآخر أسود اللون ، أما الملاك الأبيض فيحاول أن يهديه الى السبيل السوى ، ولكن الملاك الأسود لا يلبث أن يتدخل فى الأمر ويفسد كل شيء ، ولهذا لا يستطيع أحد أن يقول أى الملاكين هو الذى سينتصر فى النهاية ، أما أنت فلا خوف عليك ! صحيح انك ستواجه كثيرا من المتاعب فى حياتك ، ولكنك ستفوز أيضا بكثير من المتع ، وستأبى مرة بأذى ، وتعرض أحيانا ، ولكنك ستبرأ من مرضك فى كل مر وستؤثر فى حياتك فتاتان ، احدهما شقراء والأخرى سمراء ، احدهما ثرية والأخرى فقيرة ، وستتزوج الفقيرة أولا ، ثم تتزوج الثرية ! ويجب عليك أن تتجنب الماء قدر طاقتك ، وأن تكف عن المغامرة لأنك ان لم تفعل سيكون مصيرك الشنق ! !

وعند ما أشعلت شمعدانى وصعدت الى غرفتى فى تلك الليلة ، وجدت أبى بلحمه ودمه جالسا هناك ! !

الفصل الخامس

والد هاكبرى - الأب المحب - نحو الإصلاح . .

أغلقت الباب ورأى ، ثم استدرت ، فالفيته هناك ! ولما كنت قد اعتدت أن أخشاه دائما لدأبه على ايدائي ، فقد ركبني الخوف فى تلك اللحظة ، ولكنى لم ألبث أن تجلدت وصمدت بعد أن انحسر أثر المفاجأة الأولى عنى ، ثم لم ألبث أن أيقنت اننى لم أعد أخشاه . كان أبى فى حوالى الخمسين من عمره ، وان كان منظره يوحى بأنه أكبر من ذلك كثيرا . وكان شعره طويلا مسترسلا ملطخا بالقاذورات المختلطة بالعرق ، وكانت عيناه تتألقان من وراء شعره الأسود الفاحم الذى لا أثر للشيب فيه ، كذلك كان سالفاه قائمى اللون لم يدب فيهما الشيب ، أما وجهه فكان لا لون له ! بل لقد كانت ثمة بقع بيضاء تثير الأشمئزاز والقشعريرة منتشرة فوق وجهه كله ، وكانت ملابسه أسمالا بالية . . . وكان يضع احدى ركبتيه فوق الأخرى ، أما الحذاء الذى ينتعله فكان ممزقا ، وقد برزت من مقدمه بعض أصابعه التى كان يحركها بين الحين والحين ! وكانت قبعته العتيقة السوداء اللون التى تآكل الجزء العلوى منها ، ملقاة على الأرض !

ورحت أتأمله مليا ، كما تأملنى بدوره وقد مال بمقعده قليلا الى الوراء ، ووضعت الشمعدان فوق المنضدة ، ولاحظت أن التافذة مفتوحة ، فأدركت أنه تسلل الى الغرفة عبرها بعد أن

تسلق الحظيرة ، وظل يصعدنى بنظره بعض الوقت ثم لم يلبث أن قال :

— يا لها من ملابس منسأة ، منسأة جدا . . . أغلب الظن أنك تعتقد أنك الآن شخص عظيم . . . أليس كذلك ؟
— ربما نعم . . . وربما لا .

فقال : اننى لا أسمح لك بمثل هذا التهكم . . . لقد تماديت فى سخافاتك منذ أن تركتك ! ولكن اعلم اننى سوف أقضى على مظهرك هذا قبل أن أصفى حسابى معك ! انهم يقولون أنك أصبحت شخصا متعلما تعرف القراءة والكتابة ! ولا شك أنك تظن الآن أنك صرت أفضل من أبيك لأنه لا يعرف ما تعرف . . . ولكن أعلم اننى سأجعلك تكف عن القراءة والكتابة . . . قل لى ، من الذى جعلك تتورط فى مثل هذه الحماقات ؟ من قال أنك تستطيع أن تفعل ذلك ؟ . .

— انها الأرملة . . .

— الأرملة ؟ ومن الذى قال للأرملة انها تستطيع ان تقحم نفسها فيما ليس من شئونها ؟
— لم يقل أحد ذلك لها .

— حسنا ، سأعلمها عقبي التدخل فيما لا يعنيهها . . . والآن اصغ الى . يجب عليك أن تكف عن الذهاب للمدرسة . . . هل تسمعنى ؟ سأعلم هؤلاء الناس أى اثم يرتكبون بتعليمهم الابن كيف يتعاضم على أبيه ! . . . حذار أن أراك تتسكع حول هدم المدرسة ، هل سمعت ؟ ان أمك لم تكن تعرف القراءة والكتابة قبل أن تموت ! وأنا أيضا لا أستطيعهما ، بينما تتعاضم أنت هكذا وتتباهى ! اننى لست بالرجل الذى يستطيع احتمال مثل هذا الوضع ، هل تسمعنى ؟ دعنى أسمعك وأنت تقرأ .
فالتقطت كتابا وبدأت أقرأ شيئا عن الجنرال « واشنطن »

والحرب ، وما كدت أفرا حوالى نصف دفيقة ، حتى انزع أبى الكتاب من يدى وقذف به بعيدا وقال :

— اذن فقد كانوا صادقين . . . فهانذا أراك تقرا . . . لقد ساورتنى الريب عند ما تحدثت الى ، والآن اصغ الى . . . عليك أن تكف عن كل هذه السخافات لأننى لن أسمع لك بها ، واذا ضبطتك عند هذه المدرسة ، سأضربك ضربا موجعا . . . ثم لقد علمت أنك بدأت تدرس الدين أيضا ! هل هذا صحيح ؟ يا لله . . . اننى لم أسمع طيلة حياتى عن ابن فعل ما تفعل الآن !
والتقط صورة صغيرة تصور قطيعا من البقر وغلاما باللونين الأزرق والأصفر وسأل :

— ما هذا ؟

— انها جائزة منحونى اياها لأننى استذكرت دروسى جيدا .
ومزق أبى الصورة وقال :

— سأعطيك شيئا أفضل منها . . سأعطيك جلد بقرة !!
وبقى ملازما مكانه وهو يحدجنى بنظرة صارمة ويتمتم بكلمات غير مفهومة . . .

وأخيرا قال : ألا تعتقد أنك غلام معطر مغال فى التائق ؟ فراش ، وأغطية للفراش ، ومرآه ، وسجادة فوق الأرض ، بينما ينام أبوك مع الخنازير فى ساحة المدينة !! . . . اننى لم أر ابنا كهذا ، واراهن أننى سوف أجردك من بعض هذه الأناقة قبل أن أنتهى من تصفية الحساب معك . . . اننى لا أرى نهاية لموقفك السخيف هذا ! لقد سمعتهم يقولون أنك ثرى . . . فكيف حدث ذلك ؟

— أنهم كاذبون فيما يقولون .

— اصغ الى ، يجب أن تخاطبنى بلهجة مؤدبة ، لقد احتملت وقاحتك أكثر مما أطيق ، فلا تحاول خديعتى ! لقد انقضى على يومان فى المدينة ، وسمعت الناس جميعا يتحدثون عن نرائك ، ولم

أقابل أحدا على طول النهر الا وحدثنى عن ذلك ، وهذا هو السبب
فى مجيئى ، فعليك أن تحضر لى هذه النقود غدا ، فاننى بحاجة
اليها ..

— ولكنى لا أملك مالا يا أبى !

— هذا كذب . . ان ثروتك مودعة عند القاضى تاتشر ، فعليك
أن تستردها ، لأننى أريدها .

— اننى لا أملك نقودا كما قلت لك . . اذهب وسل القاضى
تاتشر ، وسيقول لك ما أقوله .

— حسنا ، سأسأله ، وسأرغمه على الكلام . . . أخبرنى كم
معك من نقود ؟ اننى فى حاجة اليها .

— ان معى دولارا واحدا فقط . . . وأنا بحاجة اليه أيضا . .

— ان حاجتك اليه لا تهمنى . . هات هذا الدولار !

واختطفه من يدى ، وعضه بأسنانه ليتأكد من أنه غير زائف ،
ثم قال انه سيذهب الى المدينة ليحتسى بعض الشراب لأنه لم
يحصل على كأس واحدة طوال النهار ، وعند ما تسلل من النافذة
الى الحظيرة ، عاد فأدخل رأسه من النافذة ثانية وراح يؤنبنى
ويعيرنى بأناقتى ويلومنى لأننى أحاول أن أكون أحسن حالا منه ،
وعند ما ظننت أنه انصرف ، عاد فأدخل رأسه من النافذة مرة
أخرى وأوصانى بأن أذكر ما قاله لى عن المدرسة لأنه سوف يكمن
لى هناك ويفتك بى ان عصيت أمره ، ولم أكف عن الذهاب الى
المدرسة .

وشرب أبى حتى ثمل فى اليوم التالى ، وذهب الى منزل القاضى
تاتشر ، وحاول التأثير عليه للحصول على المال ، ولكنه لم ينجح ،
وعندئذ أقسم أن يلجأ الى القانون ليرغمه على تسليم الثروة له .
ولجأ القاضى تاتشر والأرملة الى المحكمة ليحصلوا على حكم
بانتزاعى من أبى وتعيين أحدهما وصيا على ، الا أن قاضى المدينة

كان حديث عهد بها لسوء الحظ ، ولم يكن يعرف حقيقة أبى .
ولهذا قال انه ينبغي ألا تتدخل المحاكم فى أمر كهذا خشية القضاء
على الروابط العائلية ، كما أنه ينبغي ألا يحرم أب من ابنه . . ومن
تم فقد اضطر القاضى والأرملة الى التخلّى عن الاحتكام الى القانون .
ولقد سر ذلك أبى أيا سرور ، وقال انه سوف (يسلم) جلدى
إذا لم أعطه بعض المال ، فاضطرت الى اقتراض ثلاثة دولارات من
القاضى تاتشر ، أعطيتها له . . . وبعد أن ملأ أبى معدته بالخمر ،
راح يتسكع هنا وهناك وهو يصخب ويعربد . وظل يتجول فى
أنحاء المدينة الى أن انتصف الليل تقريبا ، وعندئذ قبض رجال
البوليس عليه وأودع السجن ، وفى صباح اليوم التالى قدم للمحاكمة
وحكم عليه بالسجن أسبوعا ، ومع ذلك فقد قال انه سعيد غابة
السعادة لأنه أصبح المهيم على ابنه وانه سوف يؤدبه حسبما
يريد . .

وعند ما أفرج عن أبى ، قال القاضى الجديد انه سينولى أمره
ليجعل منه رجلا صالحا ، ثم أخذه الى منزله وألبسه ثيابا لطيفة
نظيفة ، وجعله يتناول طعام الافطار والغداء والعشاء مع الأسرة .
وبعد أن فرغ الجميع من تناول طعام العشاء أول ليلة ، تحدث
القاضى الى أبى عن التعفف والاعتدال وما شابه ذلك حتى بدأ
أبى يبكى ويقول انه كان غبيا وانه أضاع حياته سدى ، وانه
يتعهد بأن يحيا حياة جديدة وأن يكون رجلا لا يخجل أحد منه ،
وأعرب عن أمله فى أن يساعد القاضى لتحقيق هذه الغاية
وألا يشمئز أو يخجل منه ، وانشرح صدر القاضى وزوجه ،
فتأثرا لذلك أشد التأثر . وقال أبى ان الناس كانوا يسيئون
دائما فهمه ، فقال القاضى انه يصدق . وعندئذ قال أبى ان
ما يحتاج اليه رجل يتردى فى وهدة الشر هو العطف . فأمن

القاضي على قوله . وعند ما حان موعد النوم نهض أبى وبسط يده للقاضي قائلا :

- أنظروا الى هذه اليد أيها السادة والسيدات وصافحوها ! لقد كانت يد خنزير ولكنها لن تصبح كذلك منذ الآن . . انها يد رجل بدأ حياة جديدة ، ولن يعود الى حياته القديمة ولو كان جزاؤه الموت . . سجلوا هذه الكلمات على ولا تنسوا اننى نطقت بها . . انها يد نظيفة ، فصافحوها ولا تخافوا !

وهكذا صافحوه جميعا وهم فى أشد حالات التأثر . بل لقد قبلت زوجة القاضي يده ، وهنا قال القاضي ان تلك هى أقدس لحظة مرت به ، وقادوا أبى الى غرفة جميلة كانت الأسرة قد أعدتها للزائرين ، وعند ما تقدم الليل ، شعر أبى بظما شديدا الى الشراب فتسلق النافذة ثم أخذ طريقه الى المدينة حيث رهن سترته الجديدة مقابل بضع كؤوس من الخمر ! وعند ما حصل على كفايته من الخمر ، كان الفجر قد بدأ يتنفس ، فأسرع عائدا الى منزل القاضي وهو يترنح من فرط ما شرب من خمر . وعند ما شرع يتسلق بوابة المنزل سقط من فوقها فانكسر ذراعه فى موضعين وأغمى عليه . وعند ما عثروا عليه بعد شروق الشمس ، كانت أطرافه شبه متصلبة !!

وأغضب القاضي مسلك أبى ، حتى لقد خيل اليه أن السبيل الوحيد لاصلاحه هو اطلاق النار عليه !!

الفصل السادس

مقاضاة القاضى تاتشر - هاكلبرى يقرر
الرحيل - التفكير فى الأمر - الاقتصاد
السياسى - الضرب على غير هدى .

استرد أبى صحته سريعا ، واستأنف نشاطه ! وما لبث ان لجأ الى المحاكم مطالبا القاضى تاتشر باعطائه النقود ، كما شرع فى مطاردنى لاننى لم أكف عن التردد على المدرسة . ولقد ظفرتى مرتين ، ضربنى ضربا مبرحا ، ولكنى مع ذلك لم أكف عن الذهاب للمدرسة ، وكنت أتحتشى لقاء أبى أو أهرب منه اذا رأيته . والواقع اننى لم أكن أحب الذهاب الى المدرسة رغبة فى العلم : وانما فقط أردت أن أغيظ أبى ، أما الدعوى القضائية فكانت بطيئة للغاية ، حتى لقد خيل الى انها لن تبدأ على الإطلاق ، ولهذا كنت مضطرا الى اقتراض دولارين أو ثلاثة دولارات من القاضى تاتشر بين الحين والحين لأعطيها لأبى لكى أتجنب تعذيبه لى . وكان أبى كلما حصل على النقود ، أفرط فى احتساء الخمر ، وأثار زوبعة من الصخب فى المدينة ، وفى مثل هذه المناسبات كان المسئولون يودعونه السجن ، ولكن هذه المعاملة لم تكن لتضايق أبى لأنها كانت تلائمه وتتلاءم مع طبيعته .

وأكثر أبى من التسكع حول منزل الأرملة ، وأخيرا قالت له المرأة انها ، اذا لم يكف عن ازعاجها ، سوف تسبب له كثيرا من

المتاعب ! ولم يفرغ ذلك أبى ، فقد كان ملتاثا . . فقال لها انه سوف يريها من هو ولى أمرها كلبرى فن ! وراح يتحين الفرص الى أن تمكن من اقتناصى فى يوم من أيام الربيع ، وأرغمنى على ركوب القارب معه . وبعد أن قطعنا حوالى ثلاثة أميال فى النهر ، عبرناه الى « شاطيء النوى » حيث تقوم غابة كثيفة لا يوجد بها منازل اللهم الا كوخا عتيقا مشيدا من كتل خشبية ضخمة . وكان هذا الكوخ محجوبا تماما عن العيون ، فلا يستطيع أحد معرفة مكانه الا اذا كان يعرف ذلك سلفا !

واستبقانى معه طوال الوقت ، فلم تتح لى فرصة للهرب ، وهكذا عشنا فى هذا الكوخ العتيق . وكان أبى يفلق الباب بالمفتاح ويضع المفتاح تحت رأسه أثناء الليل ، وكان يتسلح ببندقية سرقها من أحد الأشخاص ، وكنا نصطاد السمك والطيور البرية ونطعم بما نصطاد . وكان أبى لا يفتأ يسجننى فى الكوخ بين آونة وأخرى ، ويذهب الى المدينة لجلب المؤن مستقلا القارب ، فيبيع السمك والطيور التى نصطادها مقابل الحصول على مايبغى من شراب ، فاذا ما عاد أخذ يعب الشراب عبا ، حتى اذا ما لعبت الخمر برأسه انهال على ضربا ، ولقد استطاعت الأرملة أن تعرف المكان الذى سجننى أبى فيه ، فأرسلت رجلا ليحاول انتزاعى من برائنه ، ولكن أبى اضطره الى الرحيل بعد أن هددته باطلاق النار عليه . . وانقضى على ذلك وقت طويل ، حتى بدأت آلف حياتى الجديدة واطمئن اليها ، لولا ما كان ينالنى من أذى أبى بين الحين والحين .

وكانت حياتى هناك حياة خمول وتراخ ، فكنت أقضى يومى كله ما بين نوم وتدخين وصيد . . فلا كتب ولا دراسة ! ومضى شهران أو أكثر ، فتمزقت ثيابى حتى تحولت الى أسمال بالية ملطخة بالأوحال والقاذورات ، ولم أستطع أن أدرك حينذاك كيف

كنت أحتمل الحياة الرتيبة النظيفة المضنية في منزل الأرملة حيث كان يتعين على أن أغتسل وأن أتناول طعامي في طبق ، وأن أمشط شعري ، وأن آوى الى فراشي واستيقظ من نومي في مواعيد منتظمة ، وأن أزعج رأسي باستذكار الدروس ، واحتمال مضايقات الأنسة واطسون طوال الوقت !! . وشيئا فشيئا أدركت اننى لا أرغب في العودة الى هذا المنزل مرة أخرى ، وبعد أن كنت قد كففت عن استخدام الألفاظ غير المهذبة التى لم تكن الأرملة تحب سماعها ، فقد أصبحت استخدم هذه الألفاظ لأن أبى لم يكن يستنكرها . . وهكذا بدأت استمتع بالحياة في القاب . . . ولكم ندمت على ذلك فيما بعد . فالبيئة السيئة هى التى حملتنى على ذلك !

وقمادى أبى في ايدائى حتى بلغ السيل الزبى . ولم استطع احتمال اضطهاده وقسوته ، فقد اعتاد أن يكثر من التغيب عن الكوخ بعد أن يسجننى بداخله ، ولقد سجننى ثلاثة أيام ذات مرة ، فشعرت بقسوة الوحدة ، بل لقد ظننت انه غرق واننى لن أخرج من سجنى ، وتولانى الفزع ، وقررت أن أبحث لى عن مخرج ، وكنت قد حاولت الخروج من الكوخ مرات عديدة ولكن بدون جدوى ، لأنه لم تكن بالكوخ نافذة كبيرة تكفى لأن يتسلل كلب منها ، كما اننى لم أسنطع أن أتسلل من « ماسورة » المدفأة لشدة ضيقها . وكان باب الكوخ مصنوعا من كتل سميكة من خشب البلوط ، كما أن أبى كان يحرص على ألا يترك في الكوخ سكيناً أو أية أداة حادة أثناء غيابه . ولقد فتشت الكوخ أكثر من مائة مرة بحثا عن أداة تصلح لفتح فجوة في جدار الكوخ ولكنى منيت بالفشل ، الا اننى نجحت في هذه المرة ، فقد عثرت على منشار قديم بلا مقبض بين لوحين خشبيين من ألواح السقف ، فشحذته ! وكانت بالكوخ « بطانية » عتيقة مثبتة في الجدار خلف

المنضدة لتحول دون تسرب الهواء من السقوق التي تتخلل الكتل الخشبية ، وتسلك أسفل المنضدة ورفعت « البطانية » ورحلت « أنشر » كتلة الخشب لكي أحدث فجوة تكفى لخروجي . . ولقد كانت مهمة مضمينة شاقة ، ولكنى مضيت فيها بدأب وصبر حتى كدت أتمها ، غير اننى اضطررت الى التخلي عن العمل عند ما سمعت صوت طلاقات بندقية أبى فى الغاب ، فأسرعت أتخلص من كل ما عساه ان يفضح امرى ، فوضعت « البطانية » فى مكانها ، كما خبات المنتار . وبعد قليل ، كان أبى يدخل الكوخ !

وكان أبى نسيق الصدر محققا فى ذلك اليوم . واقد قال لى انه كان فى المدينة ، وأن الأمور تسير من سيىء الى اسوأ ، فمع ان محاميه أكد له أنه سيربح القضية ويحصل على النقود اذا بدأت المحكمة نظر الدعوى ، فان الحكم فى القضية تأجل أمدا طويلا ، لأن القانى تاتشر ، وهو الخصم ، يعرف شتى الألعاب القضائية . واضاف أبى ان الناس قالوا له ان الأرملة ستلجأ بدورها الى القضاء معاللة بانتزاعى منه ، وتعيينها وصية على ، وانهم يعتقدون انها ستوفق فى ذلك هذه المرة ! ولقد أفرغنى سماع هذا النبا فرعا شديدا لأننى لم أكن راغبا فى العودة الى منزل الأرملة حيث اخضع لقسوة المدينة والحضارة كما كانوا يطلقون عليها ! ثم بدأ أبى يسب ويشتم ، كل شىء وكل انسان يخطر على باله ، وأعاد سبهم مرة أخرى ليستوثق من أنه لم ينس احدا ، ثم فقد سيطرته على أعصابه فازداد سبا ولعنا ، وشمل سبابا أشخاصا وهميين ، واستمرت ثورة غضبه الجائحة هذه فترة طويلة .

واخيرا قال انه يود أن يعرف كيف ستتمكن الأرملة من انتزاعى منه . واضاف انه سيكون لهم بالمرصاد ، فاذا حاولوا خداعه فانه سوف ينقلنى الى مخبأ سرى يعرفه على مبعدة ستة اميال

أو سبعة ، تم يدعهم يبحنون عنى حنى يصيبهم الياس فيكفرون
عن البحث ! ولقد جعلنى قوله هذا أشعر بالقلق ، ولكن هذا القلق
لم يدم طويلا ، لأننى كنت موقنا انى لن أبقى طويلا فى قبضة أبى .
وأمرنى أبى أن أذهب الى القارب لاحضار الأشياء التى جلبها
من المدينة ، وهى جوال من الدقيق زنته خمسون رطلا . ونخذة
من اللحم ، وملح ، وبعض الذخيرة ، ووعاء سعته أربعة جالونات
مملوء بالشراب ، وكتاب قديم ، وصحيفتان الف الأشياء ، ولقافة
من حبال القنب !! . . وجمعت بعض هذه الأشياء معا ، ثم جلست
عند أحد جانبي القارب لأستريح ، ومضيت أفكر فى الموقف ،
فخطر لى أن أهرب حاملا معى البندقية وبعض « سنارات »
صيد السمك ، وأن ألوذ بالغاب أول الأمر على الا اأزم مكانا
واحدا ، وانما أتجول فى طول الغاب وعرضه وبخاصة أثناء الليل ،
فاصطاد الطيور والسمك لأقتات بها ، وهكذا اختفى عن أبى
والأرملة معا !! وقدرت انه سيكون فى استطاعتى أن أنتهى من
عملية « نشر » كتلة الخشب والتسلل من الكوخ فى تلك الليلة اذا
ثم أبى كعادته دائما ، ولقد جعلنى اسنفراقى فى التفكير انسى مرور
الوقت . وهكذا ظلت شارد الفكر ، الى أن سمعت أبى يصيح
متسائلا ما اذا كان قد غلبنى النوم على أمرى أم ابتلعنى الماء
ففرقت !!

ونقلت الأشياء جميعها الى الكوخ . وكان الظلام قد بدأ يرخى
سدوله فى تلك الأثناء ، وبينما كنت أعد طعام العشاء شرب أبى
كأسا أو اثنتين من الخمر فدبت الحرارة فى أوصاله ، وانحلت عقدة
لسانه ، فقال انه قضى وقته فى المدينة وهو مخمور ، حتى لقد
سقط فى حفرة مملوءة بالقاذورات والأوحال نام فيها طوال الليل ،
وفى الصباح كان منظره يبعث على الاشمئزاز لأنه كان ملوثا بطبقة
من الوحل ! . وكان أبى كلما احتسى الخمر ولعبت برأسه ، راح

يسب الحكومة لأنها لا تهىء له فرصة العبث !. ولقد قال لى
فى تلك الليلة :

— هل تدعوها حكومة ؟ تأمل نوع هذه الحكومة ! ها هو القانون
يقر حرمان رجل من ابنه !! . نعم حرمان رجل من فلذة كبده ،
رغم ما لاقاه من عناء وقلق وما أنفقه من مال فى سبيل تنشئته . .
نعم ، عند ما انتهى هذا الرجل أخيرا من تربية ابنه ، وأعدده للعمل
والإنتاج حتى يمكنه من الراحة ، يقف القانون ليحول بينهما ويحرم
الأب من ابنه . . وهم بعد ذلك يقولون انها حكومة !! وليس هذا
هو كل شىء ، فان القانون يسند القاضى الكهل تاتشر
ويساعده على حرمانى من ممتلكاتى !!! هذا هو ما يفعله
القانون . . . ان القانون يرغم رجلا تزيد بروته على
سنة آلاف دولار على السكنى فى حجر عتيق كهذا الذى أعيش
فيه ، ويدعه يتجول وهو يرتدى ثيابا لا تصلح لخنزير ! وهم بعد
ذلك يقولون انها حكومة !! ان الانسان لا يستطيع الحصول على
حقوقه ما دامت الحكومة القائمة كهذه !! ولهذا فأننى أفكر أحيانا
فى الرحيل عن هذه البلاد . . نعم ، لقد قلت لهم ذلك ! قلته
لتاتشر العجوز فى وجهه ! ولقد سمعنى الكثيرون وأنا أقول ذلك ،
وفى استطاعتهم أن يذكروه ! لقد قلت اننى أتمنى مغادرة هذه
البلاد وعدم الاقتراب منها ثانية . . كما قلت لهم : أنظروا الى
قبعتى — ان كنتم تعتبرونها قبعة — ! ان غطاءها قابل للارتفاع
بينما تهبط جوانبها حول عنقى الى أسفل ! انها ليست قبعة على
الاطلاق ! أنظروا اليها . . أنظروا الى هذه القبعة التى أضطر الى
ارتدائها رغم اننى سأصبح واحدا من نراة المدينة اذا استطعت
الحصول على حقوقى !!! . نعم ، انها حكومة مدهشة !!! . .
مدهشة !!! . اصغ الى يا بنى . . لقد رأيت هناك زنجيا من
أوهايو . يكاد يشبه الرجل الأبيض فى كل شىء . . لقد كان يرتدى

قميصا ناصع البياض ، فضلا عن قبعة شديدة اللمعان ، وبذا:
لايملك مثلها أى رجل فى هذه المدينة ، وساعة ذهبية ذات ساسلة .
وعصا ذات رأس من الفضة !.. صفوة القول انه أبى كهل فى
الولاية . . فماذا تظنه ؟ لقد قالوا انه استاذ فى احدى الكليات
وانه على علم بجميع اللغات ، ويعرف كل شىء ! وقالوا ايضا انه
يستطيع أن يدلى بصوته فى الانتخابات فى الولاية التى ينتمى
اليها ! ولقد أثارنى ذلك ، وبدأت اتساءل عن مصير هذه البلاد !
وأخذت الكلمات تتدفق من فم أبى وهو يسير فى الكوخ ، فلم
يلاحظ الى أين كانت قدماه المرتعشتان تقودانه ، وتعتر فى وعاء
لحم الخنزير المملح ، وسقط فوقه ، وراح بسب ويسبم بأقذر
الكلمات وأكثرها بداءة ، وكان معظم سبابه وشتائم منصبا على
الزنجى والحكومة ، وان كان بعض السباب قد انصب على الوعاء
الذى تعتر فيه ! وراح يعطل فترة حول الكوخ باحدى قدميه ،
ثم بالقدم الأخرى وهو يمسك تارة باحدى ساقيه ثم بالأخرى .
وأخيرا ، وعلى حين بغتة ، ازداد هياجه ، فركل وعاء لحم الخنزير
بقدمه اليسرى ، ولكنه أخطأ التقدير ، لانه نسي أن حذاءه مهزق
من الأمام وأن أصابعه تبرز منه . وفى التو صرخ صرخة مدوية
وقف لها شعر رأسى ، ثم سقط ، وتدحرج على الأرض وهو
ممسك بأصابع قدمه ، والسباب ينهال من فمه على كل شىء !.. .
وبعد العشاء ، التقط أبى إبريق الخمر ، وقال ان به ما ينكفى
للشراب مرتين أو يزيد ، فقدرت أنه سرف يصبح ثملا خلال
ساعة ، وعندئذ أستطيع أن أسرق مفتاح الكوخ منه ، أو امضى
فى « نشر » الجدار الخشبى وأخرج من الفجوة التى ساحدنها .
ومضى أبى يعب الخمر عبا ، ثم تهاوى فوق « البطاطين » . ولم
يحالفنى الحظ ، لأن أبى لم يستغرق فى نوم عميق ، وأما كان قلقا

مضطربا ، فراح يناوه ويتقلب على جانبيه فترة طويلة من الوقت ،
وأخيرا دب النعاس فى جفونى ، ولم أستطع الاحتفاظ بعينى
مفتوحتين ، فاستسلمت للنوم قبل أن أدرك ذلك ، وتركت
الشمعدان موقدا !!

ولست أدري كم مضى على من وقت وأنا نائم ، ولكنى سمعت
فجأة صرخة مروعة ايقظتنى من نومى وألفيت أبى أمامى ، وكان
شديد الهياج ، ينب فى كل مكان ، ويصرخ فرعا من نعابين زعم
انها تزحف صاعدة فوق ساقيه ! ثم لم يلبث أن وثب وصرخ
وصاح قائلا ان تعبانا عضه فى خده ! ولكنى لم أستطع ان أرى
نعابين . وانتفض أبى ، وراح يعدو حول الكوخ وهو يصرخ فرعا
ويصيح « ابعده عنى ، ابعده ، انه يعضنى فى عنقى . . » والواقع اننى
لم اكن قد رأيت من قبل رجلا تمثل الرعب فى عينيه مثلما تمثل فى عينى
أبى فى تلك اللحظة ، ولكنه سرعان ما استنزف قواه ، وسقط على
الأرض لاهثا ، وراح يتدحرج المرة بعد الأخرى ، وهو يركل
الأشياء بقدميه ، ويضرب الهواء بقبضتيه ، وصرخات الفرع
تنطلق من حنجرتة ، ثم لم يلبث أن صاح قائلا ان الشياطين
تطارده وتلاحقه . وبعد قليل تملكه الاعياء ، فخمدت حركته بعض
الشيء ولكنه لم يكف عن التآوه . وسرعان ما كف عن الصراخ بل
عن الكلام ، فاستطعت أن أسمع أصوات نعيب البوم وعواء
الذئاب صادرة من قلب الغاب . وكان صداها مفرعا ، أما أبى ،
فقد ظل ممددا فى ركن الكوخ ، ثم رفع رأسه قليلا ، وأصاخ
السمع وقد مال رأسه ، ثم قال ببطء شديد :

— انى أسمع وقع أقدام . . انهم الموتى . . لعلهم قادمون فى
طلبى ، ولكنى لن أذهب معهم . . انهم هنا . . لا تلمسونى . .
لا تفعلوا . . ارفعوا أيديكم لأنها باردة . . اذهبوا . . دعوا
الشیطان التعس وشأنه .

وراح يزحف على الأرض وهو يتوسل اليهم أن يدعووه وشأنه .
ثم لف نفسه في « بطانيته » وتدحرج حتى استقر تحت المنضدة
وهو لا يزال يتوسل ، ولكنه سرعان ما انفجر باكيا . واستطعب
أن أسمع صوت بكائه من خلال « البطانية » .
وبعد قليل ، نهض من تحت المنضدة ووتب واقفا على قدميه
وقد بدت عليه أمارات القسوة والوحشية ، وماكادت عيناه تقعان
على ، حتى انقض على ، ولكنى راوغته ، فبدأ يطاردنى حول
الكوخ ، وقد شهر سكيناً في يده ، ومضى يدعونى « ملاك الموت »
ويقول انه سيجهاز على حتى لا أحاول القضاء عليه ، أما انا ، فقد
غملكنى الفزع ورحت أتوسل اليه أن يدعنى وشأنى ، فانا لست
الا هاكليرى ابنه !! ولكنه أطلق ضحكة شيطانية ، وزججر ، وشتم ،
ومضى يطاردنى ، ثم اندفع نحوى فجأة وانقض على ، ولكنى أفلت
من تحت ذراعه ، فأمسك بسترى من عند عنقى ، وعندئذ خيل
الى اننى أصبحت من الهالكين ، ولكنى بادرت بالانزلاق من السترة
بسرعة البرق ، وبذلك أنقذت نفسى من موت محقق ، وسرعان ما دب
الاعياء فى أوصال أبى فتهالك على ظهره فوق الأرض عند الباب .
وقال انه سيستريح دقيقة ثم يقتلنى ، ووضع سكينه تحت راسه ،
وأردف قائلاً انه سينام ليسنرد قوته ثم يرى بعدئذ أينما الأقوى !!
وسرعان ما دب النعاس فى جفونه . وعندئذ نقلت المقعد بهدوء
الى الجانب الآخر من الكوخ ، وتسلقته وأنا أتحاشى أحداث اية
ضوضاء ، وأنزلت البندقية ، وبعد أن فحصتها وتأكدت من انها
محشوة ، وضعتها فوق برميل اللفت وقد سددت فوهتها الى أبى ،
وجلست خلف البرميل فى انتظاره حتى يستيقظ ، الا أن الوقت
كان يمر ببط شديد ممل . . . وبعد قليل غلبنى النوم !

الفصل السابع

في موقف التهرب - سـجـجـين في
الكوخ - الاستعداد للرحيل - اغراق
الجثة - رسم خطة - قسط من الراحة

— انهض ، ماذا تفعل ؟

وفتحت عيني وأدريتهما حولي محاولا ان أثبت ان أين أنا .. كانت الشمس قد أشرقت ، ومعنى ذلك انني قضيت وقتا طويلا وأنا مستسلم للنوم العميق ، ووجدت أبى منتصب القامة وقد بدا عليه الغضب ، والمرض أيضا !

قال : ماذا تفعل بهذه البندقية ؟

وأيقنت أنه لا يتذكر شيئا مما فعله ليلا ، فقلت له :

— لقد حاول مجهول اقتحام الكوخ فكمنت له .

— لماذا لم توقظني ؟

— لقد حاولت ذلك فعلا ، ولكني فشلت .. فشلت في ايقاظك .

— على أية حال ، لا تقف هكذا كالأبله طوال النهار .. هيا ،

اذهب وانظر هل اصطادات احدى السنارات سمكة نفطر بها ؟

أما أنا فسألحق بك بعد قليل .

وفتح أبى الباب ، فخرجت . وانطلقت في اتجاه شاطئ النهر ،

ورأيت كتلا من الخشب طافية فوق سطح الماء ، فأدركت أن الفيضان قد بدأ ، وتذكرت أن تلك هى الفترة التى كنت انعم فيها بوقت سعيد فى المدينة ، فقد كان فيضان النهر فى شهر يونيو يجلب لى حظا حسنا دائما ، اذ مايكاد الفيضان يبتدىء حتى يجلب التيار معه كتلا من الخشب مختلفة الأنواع تتجمع أحيانا حتى يصل عددها الى انتى عشرة قطعة دفعة واحدة ، وعندئذ كنت أسحبها الى البر وأبيعها لأصحاب مخازن الخشب أو الورش .

وسرت على الشاطيء وأنا أرقب حركات أبى ، وأرقب النهر فى الوقت ذاته لأرى ما قد يأتينى به الفيضان ، وفجأة رأيت زورقا مقبلا . . . وكان زورقا جميلا طوله حوالى ثلاث عشرة او أربع عشرة قدما ، وهو ينزلق فوق الماء كالبطة ، فألقيت بنفسى فى الماء كالضفدعة دون أن أخلع ثيابى ، ورحت أسبح نحو الزورق ، وكنت أتوقع أن أجد شخصا ممددا فيه ، لأن الناس كثيرا ما يفعلون ذلك للسخرية من اللصوص ! فعندما يحاول احد الأشخاص الاستيلاء على مثل هذا القارب يبرز من قلبه شخص آخر يسخر منه ، ولكن الأمر لم يكن كذلك فى هذه المرة . . . فقد كان القارب خاليا تماما ، ومن ثم ، فقد تسلقتة ، وأخذت أقوده نحو الشاطيء ، وأنا أحدث نفسى بأن الرجل العجوز - أبى - سيفرح بالقارب لأنه يساوى عشرة دولارات . . . وعند ما بلغت الشاطيء لم أجد أبى هناك ، وبينما كنت أقود القارب داخل فجوة مغطاة بالأشجار بين الصخور ، خطرت لى فكرة أخرى . . . خطر لى أن أخفى القارب كى أستقله عندما اعتزم الهرب فذلك خير من الاختفاء فى الغابة ؛ وأمضى به فى النهر خمسين ميلا ، ثم أعسكر فى مكان آمن ، وبذلك أتجنب قطع هذه المسافة الطويلة سيرا على قدمى !

وما كدت أفعل ذلك حتى سمعت ديبب أقدام فظننت أن أبى قادم ، ولكنى لم أعبأ بذلك ، اذ كنت قد فرغت من اخفاء الزورق،

واسرعت أخرج الى العراء ، فرأيت أبى يصوب بندقيته الى طائر في الفضاء ويطلقها فيسقطه ، وعندئذ أيقنت أنه لم يدرك ما فعلت ! وعند ما رآنى ، كنت أجذب احدى السنانير ، وعندئذ انفجر يسبنى ويشتمنى لتكاسلى ، ولكنى قلت له اننى سقطت فى النهر ، وهذا هو سبب تاخرى ! فقد كنت أعلم أنه سيلاحظ بلل ثيابى ، فيمطرنى بوابل من أسئلته وتبين لنا أن السنانير اصطادات سمكا كثيرا فأخذناه وعدنا الى الكوخ !

وعند ما فرغنا من تناول طعام الافطار ، أحس كل منا بالاعياء فتمددنا على الأرض لنستريح . وعندئذ رحت أفكر فى اننى اذا استطعت ان أحول دون نجاح أبى والأرملة فى تعقب أثرى ، فاننى سوف أجعل المسافة بينى وبينهما طويلة جدا قبل أن يكتشفا اختفائى ، وبينما أنا مستغرق فى التفكير ، استيقظ أبى وشرب « برميلا » آخر من الماء ، ثم قال :

— عند ما تسمع ديبب أقدام أحد فى هذه المنطقة بادر بايقاظى هل فهمت ؟ ان هذا المجهول كان يعتزم شرا ولا شك ، ولو اننى رأيته لأطلقت النار عليه ، فعليك أن توفظنى فى المرة التالية هل سمعت ؟

ثم تمدد ثانية على الأرض ، واستسلم للنوم وفى الحق ان ما قاله لى زودنى بالفكرة التى كنت ابحث عنها ، فقلت لنفسى اننى أستطيع الآن ان أضع خطة تصرف الناس جميعا عن تتبع أثرى ! . . .

واستيقظنا حوالى الظهر ، فمضينا الى شاطئ النهر ، وكان الفيضان قد بلغ درجة عالية من الارتفاع ، والتيار شديدا ، وكانت عشرات من الكتل الخشبية نطفو مع التيار ، وبعد فترة من الوقت ، أقبل طائفا فوق الماء جزء من قارب خشبى محطم تبقت منه تسع كتل خشبية مشدودة الى بعضها . وركبنا قارب أبى ورحنا ننقل

هذه الكتل الضخمة من الخشب الى الشاطئء وتناولنا طعام الغداء ، ولو أن أحدا آخر - غير أبى - كان هناك ، لنريث حتى ينترم النهار ليحصل على كميات كبيرة من الكتل الخشبية الطافية . ولكن التريث لم يكن شيمة أبى ، ولهذا فقد اكتفى بالكتل التسع التى حصل عليها وقرر أن يذهب الى المدينة بلا ابطاء لبيعها هناك ، وسرعان ما سجننى فى الكوخ وأخذ قاربه وشد اليه الكل الخشبية ومضى الى المدينة . كان ذلك حوالى الساعة الثالثة والنصف ، وقدرت أنه لن يعود الى الكوخ فى تلك الليلة ، وانتظرت حتى يبعد عن مكانى كثيرا ، ثم بادرت باحضار المنشار واستأنفت « نشر » كتلة الخشب النى يتكون منها باب الكوخ . وقبل أن يصل أبى الى الساطيء الثانى للنهر ، كنب قد نجحت فى الخروج من الكوخ ، وتطلعت الى الجانب الثانى من النهر ، فلاح لى أبى وقاربه كنقطة صغيرة فوق صفحة الماء !

ونقلت كيس الدقيق الى المكان الذى اخفيت قاربى فيه ، كما نقلت أيضا « فخذة اللحم » وكل ما فى الكوخ من بن وسكر وطعام . ولم أنس الدلو و « الطنست » والقدح النحاسى والمنشار العتيق ، وبطانيتين ووعاء القهوة وعلب الثقاب ! لقد نقلت كل ما فى الكوخ من أدوات وأمتعة ، وتركته شاغرا تماما ! وكنب بحاجة الى فاس ولكننى لم أجد فاسا فى الكوخ ، ولكنى وجدت فاسا فى كومة أخشاب قريبة ، فلم أخذه وانما تركته حيث هو لفكرة خطرت ببالى وأخذت البندقية معى أيضا ، وبذلك تم تأهيبى .

وكنت قد تركت ورائى آثارا واضحة على الأرض بسبب كثرة دخولى وخروجى من الفجوة وجر الأشياء التى نقلتها ، ومن نم رحت أصلح ما فسد من معالم الأرض جهد طاقتى ، بنشر التراب فوق الآثار الظاهرة حتى انطمست ، وأخيرا وضعت قطعة الخشب التى انتزعناها من جدار الكوخ فى مكانها ووضعنا تحتها قطعتين من

الصخر ، وقطعة تالئة أمامها لتثبيتها في مكانها - ذلك أن قطعة الخشب « المنشورة » كانت مقوسة الى الخارج . ولو أنك وفقت على مبعدة أربع اقدام او خمس ، وتطلعت الى الجدار ، لما عرفت أنه « منشور » . ولما لاحظت أى شىء غير عادى ! وعداً ذلك فان الجدار الذى تسلمت منه كان الجدار الخلفى للكوخ ، ومن ثم لم يكن من المرجح ان يحاول أحد اكتشافه !

كانت المنطقة المؤدية الى القارب مجردة من الأعشاب . كما اننى لم أترك فوقها أى أثر ، ومع ذلك فقد أخذت استكشفها لاستوثق من عدم وجود اية آثار يمكن أن تفضح أمرى . ووقفت عند شاطئ النهر ، ورحت أتأمل الماء . . . كان كل شىء آمناً ، ومن ثم التقت البندفية ومضيت الى القارب لعلى اصطاد بعض الطيور ، فلم ألبث أن رأيت خنزيراً برياً ! ولا عجب ، فان الخنازير تلوذ بالغاب بعد أن تغادر مزارع البرارى فى تلك الفترة ، وفى التو أطلقت الرصاص على الخنزير وحملنه ذبيحاً الى الكوخ !

والتقت الفأس وهويت به على باب الكوخ مرة ثم مرات حتى حطمته الى حد كبير . وحملت الخنزير الذبيح الى داخل الكوخ ورحت اجذبه الى مكان قريب من المنضدة ! ثم رفعت الفأس ، وبضربة واحدة خطمت عنق الخنزير ، فسال الدم منه بغزارة ولطح الأرض ! نعم لطح الأرض التى لم يكن يغطيها بلاط ولا خشب ، وبعد ذلك أحضرت جوالاً قديماً حثوته بالصخور التى كان فى استطاعتى أن أجرها . ووضعت الجوال عند المكان الذى أخرجت منه جثة الخنزير ، ورحت أجذب الجوال فوق الأرض نحو الباب ، ثم فى الغاب حتى حافة النهر . وأخيراً غرقته فيه فغاب عن الأنظار ! وهكذا أصبح فى استطاعة أى انسان أن يدرك بمجرد القاء نظرة عابرة ، ان شيئاً ثقيلاً قد جر فوق الأرض ما بين الكوخ وشاطئ النهر ثم القى فى الماء ! ولكم تمنيت لو أن « توم سوير »

كان معى فى هذه اللحظة ، فقد كنت اعلم مدى شغفه بمثل هذه المغامرات ، وكم يجب دائما ان يضيف اليها بعض اللمسات التى يتدعها خياله ، فليس هنالك انسان له عبقرية « توم سوير » فى مثل هذه المناسبات !!

واخيرا انتزعت خصلة من شعرى ، ولطخت الفأس بدم الخنزير، ثم ألصقت خصلة الشعر بنصل الفأس ، ووضعتة فى ركن الكوخ ! وحملت الخنزير بين ذراعى بعد أن لفته جيدا فى سترتى كى لا يقطر الدم منه على الأرض ، وأخذت أسير حنى ابتعدت عن الكوخ مسافة كافية ، ثم أغرقته فى النهر ! وعندئذ خطرت لى فكرة أخرى ذهبت الى القارب ، وأحضرت جوال الدقيق والمنشار القديم ، وعدت الى الكوخ حيث وضعت الجوال فى مكانه المؤلف واستعنت بالمنشار فى احداث ثقب بقاعدة الجوال لأننى لم أجد سكيئا أو « شوكة » . . . فقد كان أبى يستخدم المديلة التى يحملها دائما فى أداء شتى الأعمال التى يحتاج أداؤها الى سكين ! . وكان يحتفظ بهذه المديلة معه دائما . . . ثم حملت الجوال وسرت به حوالى مائة ياردة فوق الأعشاب بين اشجار الصفصاف شرفى الكوخ حتى بلغت بحيرة ضحلة اتساعها خمسة أميال مملوءة بنبات السمار ، ويختفى فيها البط فى موسم الفيضان ! وكان نمة نهر فى الجانب الآخر من البحيرة ، يجرى أميالا بعيدة فى قلب الغاب، وان كنت لا أعلم أين ينتهى ! ولكنه لم يكن يتصل بالنهر الكبير على كل حال ! ولقد تسرب الدقيق من ثقب الجوال وترك أثرا ضئيلا على طول الطريق حتى البحيرة ! ثم رتقت الفتحة التى ثقبته فى الجوال بقطعة من الخيط حتى لا يتسرب الدقيق منه . وعدت بالجوال والمنشار الى القارب !!

كان النهار قد أوشك على الادبار ، فدفعت القارب الى النهر وأبقيته فى منطقة تكسوها أغصان اشجار الصفصاف الضخمة ،

وانتظرت ريتما يطلع القمر ، وشددت القارب الى جذع شجرة صفصاف . وتناولت بعض الطعام ، ثم تمددت فى القارب ريتما أتدبر الأمر ، وفلت لنفسى انهم سوف ينتبعون أثر الجوال المملوء يقطع الصخور حتى شاطئ النهر ، ثم يبحثون عنى فى النهر ، كما سيتنبعون ابر الدقيق الى البحيرة ويبحثون عنى فى البحيرة والنهر النابع منها ، وسيبحثون عن اللصوص الذين قتلونى وسرقوا ما فى الكوخ ، ولكنهم لن يجدوا لى اثرا ، وسوف يتملكهم اليأس والاعياء فيكفون عن البحث وحدثت نفسى بأن هذا كله حسن وأيقنت اننى أستطيع عندئذ ان استقر حيثما أريد ! وخطر لى أن « جزيرة جاكسون » هى خير ملاذ لى ، فانا أعرف جميع معالم هذه الجزيرة حق المعرفة ، ولن يفكر أحد فى البحث عنى هناك ! وهكذا أستطيع بعد ذلك أن أتسلل الى المدينة فى الليل لأحصل على كل ما قد يعوزنى نعم ان جزيرة جاكسون هى أصلح مخبأ لى !

وكان التعب قد نال منى كل منال فغلبنى النوم على أمرى ، وعند ما استيقظت لم أدرك أين أنا فى بادىء الأمر فاستويت جالسا وتلفت حولى وقد ركبى الفرع ، ولم ألبث أن تذكرت كل شىء ! كان النهر يمتد أمامى أميالا وأميالا ، وكان القمر ساطعا حتى لقد كان فى استطاعتى أن أعدكتل الخشب الطافية على سطح النهر على مبعدة مئات الياردات من الشاطئ ! وكان الكون هادئا غاية ما يكون الهدوء .

وتمطيت وتشاءبت ، وكدت أفك الحبل الذى يشد القارب الى جذع النسيجرة استعدادا للرحيل ، ولكنى سرعان ما سمعت صوتا صادرا من الجانب البعيد من النهر ، فاصحخت السمع . وسرعان ما تبينت حقيقة هذا الصوت ! كان صوت ارتطام مجاديف بالماء . وحدثت فى مصدر الصوت ، ولم ألبث أن تبينت قاربا مقبلا من

بعيد . ولم أسطع أن أحدد عدد ركاب القارب الذى راح يتقدم نحوى ، وعند ما أصبح فبالتى ، تأكدت أنه ليس به غير شخص واحد ، وخطر لى أن القادم هو أبى ، رغم أننى لم أكن أتوقع عودته فى مثل هذا الوقت ، وابتعد القارب عنى منساقا مع التيار ، وبعد فترة من الوقت اقترب من الشاطئ متأرجحا متهاديا لبعده عن مجرى التيار القوى ، ومر القارب على مقربة منى ، بحيث كان فى استطاعنى أن أبسط ذراعى وأمسك حافته . ورأيت أبى يجلس فى القارب ، وأدركت من طريقة امساكه بالمجدافين أنه متمالك حواسه ووعيه وليس نملأ !

ولم أضع لحظة واحدة ! وفى اللحظة التالية ، كان القارب ينزلق بى فوق سطح الماء مستترا فى ظل الشاطئ . وقطعت ميلين ونصف ميل ، ثم اتجهت الى قلب النهر حتى قطعت حوالى ربع ميل ، فقد كنت أعلم اننى لن ألبث أن أمر بحرس القوارب وربما رآنى بعض الناس واستوقفونى . وسرعان ما اصطدم قاربى بكتل الخشب الطافية على صفحة الماء . وبادرت بالتمدد فى قاع القارب ، وتركته ينساب مع التيار ! وظللت ممددا فى مكانى فترة طويلة من الوقت لأستريح ، ورحت أطلع الى السماء التى لم تكن نعكر صفحتها سحب أو غيوم ! ولكم تبدو صفحة السماء شديدة العمق حينما تتمدد فوق ظهرك والقمر ساطع ، وهو ما لم أكن أعلمه من قبل ! بل ان الانسان ليستطيع أن يسمع الأصوات التى تصدر من بعيد فوق سطح الماء فى مثل هذه الليالى ! فقد سمعت الناس وهم يتكلمون عند مرسى الزوارق ، وطرقت أذنى كل كلمة كانوا ينطقون بها ! فسمعت رجلا يقول ان هذا الوقت من العام يقترب من الأيام التى يطول فيها النهار ويقصر الليل ! وعندئذ ضحك سامعوه ، فعاد الزجل بكرر قوله ، فضحكوا ثانياً ، وأبقظوا رجلا آخر أنبأوه بما قاله الرجل الأول ، ولكنه لم يضحك

مثلهم ، وانما قال لهم شيئا ما بلهجة خسنة ، وطلب اليهم ان يدعوه وشانه ! وعاد الرجل الاول يقول انه سوف يخبر زوجته العجوز بالامر ، ولا شك في انها ستصدقها ، ولكنه عاد فقال ان الحقيقة التي ذكرها لا تعتبر شيئا مذكورا اذا قيست بحقائق اخرى هامة سبق ان افضى بها لزوجته !! وسمعت رجلا يقول ان الساعة تقترب من الثالثة صباحا وانه يامل الا يتاخر طلوع الفجر اطول مما تاخر في الاسبوع الماضي !! واخيرا بدأت اصوات المتحدثين تخفت ، فلم تستطع اذني التقاط كلماتهم بعد ان اصبح حديثهم همهمة تتخللها ضحكة بين حين وآخر !

وكنت قد ابتعدت كثيرا عن مرسى الزوارق في تلك الاثناء ، فاستويت جالسا . وعندئذ رايت « جزيرة جاكسون » على مبعده حوالى ميلين ونصف ميل الى الجنوب ، تظلل سماءها اغصان الاشجار الكثيفة ، وهى قابضة في قلب النهر صلبة ، كباخرة جبارة لا يتسلل منها نور . ولم ار حاجزا عند رأس الجزيرة ، فقد كان الحاجز مغمورا بالماء في تلك الاثناء .

ولم يستغرق وصولي الى الجزيرة وقتا طويلا ، فقد بلغت رأسها بسرعة عظيمة لنسبة التيار ، ثم بلغت منطقة الماء الهادئة ، فهبطت الى البر على الجانب المواجه لتساطىء « الينوى » ، واخفيت القارب في فجوة عميقة كنت اعرفها ، وحرصت على أن يكون القارب محجوبا عن العيون أسفل اغصان شجر الصفصاف حتى لا يراه احد من الخارج .

وجلست فوق كتلة خشب عند رأس الجزيرة ، وتطلعت الى النهر الكبير وكتل الخشب المظلمة التى كانت تتهاذى فوق صفحة مائه ثم تطلعت الى المدينة على مبعده ثلاثة أميال ، وقد تالفت فيها ثلاثة أضواء أو أربعة . ورايت قاربا ضخما من كتل الخشب يجرى فوق صفحة الماء قادما نحو الجزيرة على مبعده ميل تقريبا ،

وقد انبعث منه ضوء مصباح موقد. ورحت أراقبه وهو يزحف،
وعند ما أصبح محاذيا للمكان الذي كنت فيه سمعت رجلا يقول :
« مجاديف المؤخرة .. حول رأس القارب في الاتجاه الآخر ! »
ولقد سمعت هذه العبارة بوضوح كما لو كان المتكلم واقفا
بجوارى !!

وبدأ ضوء الفجر يقهر ظلمة الليل في تلك الأثناء ، فاندفعت
داخل القارب لأحصل على قسط من النوم قبل أن أتناول طعام
الافطار !!

الفصل الثامن

النوم في القابة - ايقاظ الموتى - الترقب -
استكشاف الجزيرة - نوم عديم الجدوى - العثور
على جيم - هرب جيم - علامات - ((الزنجى الأعرج)) .

كانت الشمس قد ارتفعت في كبد السماء عند ما استيقظت من نومي ، حتى لقد قدرت أن الساعة بلغت الثامنة . وبقيت ممددا فوق الأعشاب في الظل الرطب وأنا أفكر في الموقف ، وقد شعرت براحة وارتياح . وكان في استطاعتي أن أرى الشمس من فجوة أو اثنتين خلال أغصان الأشجار ، التي كانت تملأ هذه المنطقة . . وكانت الفجوات التي تتخلل هذه الأشجار معتمة ، كما كانت هناك أماكن متفرقة على الأرض يتسرب إليها الضوء من بين الأغصان . وكانت أوراق الأشجار تهتز فأدركت أن هناك نسима ، وحط سنجابان على أحد الغصون وراحا يثرثران بود عظيم !!

كنت أشعر بكسل شديد وراحة كاملة ، فلم تتملكني رغبة في النهوض لطهى طعام الإفطار . وكدت أستسلم للنوم مرة أخرى عند ما خيل إلى أننى أسمع صوتا أشبه بصوت انطلاق المدافع صادرا من بعيد عبر النهر ، فرفعت رأسى وأستندت على مرفقى

وأصغحت السمع . وسرعان ما تكرر الصوت ، فانتصبت واقفا ،
وتقدمت من فجوة بين أوراق الشجر تطلعت من خلالها فرأيت
سحابة من الدخان فوق صفحة الماء على مسافة بعيدة ، بمحاذاة
مرسى القوارب . ورأيت ناقلة بحرية محملة بالرجال ، تسير في
الاتجاه المضاد من النهر ، وأدركت جلية الأمر على الفور . . . وعلا
صوت المدفع مرة أخرى ، ورأيت الدخان الأبيض ينبعث من كل
جانب . . . فأدركت أن ركاب الناقلة يطلقون مدفعها فوق صفحة
الماء لكي تطفو جثتي ! !

كنت أشعر بجوع شديد ، ولكنى أدركت أن من خطل الراى
أن أشعل نارا ، خشية أن يرى ركاب الناقلة دخانها ، فلزمت
مكاني ومضيت أرقب دخان المدفع وأصغى الى صوت اطلاقه .
وكان عرض البحر ميلا في هذه المنطقة . وكان يبدو جميل المنظر
في هذا الوقت من الصيف وبخاصة في الصباح ، ولهذا استمتعت
أعظم متعة وأنا أراقبهم ينقبون الماء بحثا عن جثتي ، ولم يعكر
صفو متعتى سوى شعورى بالجوع ، وتذكرت في تلك الاثناء كيف
أن أهل المدينة اعتادوا أن يضعوا مقادير من الزئبق في أرغفة من
الخبز يلقونها في الماء ، لإعتقادهم أن هذه الأرغفة تذهب دائما الى
حيث توجد جثة الغريق وقبلت لنفسي اننى سأمضى في
المراقبة ، فاذا طفا أحد الأرغفة حول المكان الذى أنا فيه ، فلا بد
لى من الحصول عليه ! ! وانتقلت الى شاطئ الجزيرة المواجه
لمقاطعة « الينوى » لأرى ما يخبئه لى القدر . ولم يخب ظنى ،
اذ لم يلبث رغيف كبير أن أقبل نحوى . وكدت أفوز بالرغيف
مستعينا فى ذلك بعضا طويلة ، ولكن قدمى انزلقت فابتعد
الرغيف عني ! بالطبع ، كنت أقف فى المنطقة التى كان التيار فيها
أقرب ما يكون من الشاطئ ، ولكن ما ان انقضى وقت غير طويل
حتى أقبل رغيف آخر ، استطعت أن أفوز به هذه المرة .

واسرعت أهزه بعنف حتى سقطت منه اللقافة المحتوية على الزئبق ، ثم أنشبت أسناني فيه ! فقد كان رغيفا من الصنف الفاخر لا من ذلك النوع الرديء الذى يشير الاشمئزاز !!

وعثرت على مكان مريح بين الأشجار فاستندت الى كتلة من الخشب ورحت ألتهم الخبز وأراقب الناقلة النهرية وأنا أشعر بارتياح شديد . وعندئذ طاف بذهنى خاطر !... حادتني نفسى بأن الأرملة أو القاضى أو أى شخص آخر قد ابتهل الى الله أن يعثر هذا الرغيف على . وها هو الرغيف قد أدى مهمته ، ومن ثم فليس من نك فى أن اعتقاد الناس بهذه الطريقة فيه شىء من الصواب . أو بعبارة أخرى ، أن صلاة الأرملة أو الكاهن أو أى شخص مثلهما تؤدي الى نتيجة ما . أما صلاتى أنا فانها لا تؤدي الى شىء . واكبر ظنى أن الأمر كذلك بالنسبة لأى شخص آخر لا ينتمى الى ذلك الطراز المؤمن من الناس الذى تستجاب صلواته .

ورحت أراقب ما يدور امامى . . كانت الناقلة النهرية تسبح مع التيار ، فقلت لنفسى اننى سأتمكن من رؤية من على ظهرها عند ما يمر امامى لأنها خليقة بأن تقترب منى ، على الأقل الى النقطة التى اختفى الرغيف عندها . وعندما اقتربت الناقلة كثيرا منى ، ذهبت الى المكان الذى التقطت منه الرغيف واختبأت خلف كتلة من الخشب على الشاطئ فى مكان مكشوف قليلا . وكان لهذه الكتلة فرعان يكتنن أن اختلس النظر من الفجوة بينهما .

وبعد فترة من الوقت ، اقبلت الناقلة واقتربت جدا من الشاطئ بحيث كان فى استطاعة ركبائها أن يمدوا منها لوحا من الخشب ليستقر فوق الشاطئ . كان جميع من اعرفهم فى الناقلة ، أبى والقاضى تاتشر ، و « بيسى تاتشر » و « جو هاربر » و « توم

سوير « وخالته العجوز « بولى » و « سيدنى » وغيرهم . وكان الجميع يتكلمون عن جريمة القتل ، ولكن الربان قاطعهم قائلا :
- افتحوا عيونكم جيدا ، فان التيار أقرب ما يكون الى الشاطئ هنا ، ومن المحتمل أن يكون قد جرف الجثة الى الشاطئ فاشتبكت ببعض الأعشاب النامية عند حافة الماء . أو هذا على الأقل ما أرجوه .

أما أنا فلم أكن أرجو ذلك ! وتجمهر الجميع عند حاجز الناقلة وراحوا يتطلعون باهتمام نحو الشاطئ حتى خيل الى أنهم يرون وجهى ، لأنهم جمدوا تماما فى أماكنهم وهم يتطلعون بكل قواهم . وكان فى استطاعتى أن أراهم بسهولة . أما هم ، فلم يكن فى استطاعتهم رؤيتى ، وعندئذ أنشأ الربان يقول :
- ابتعدوا

وانطلق المدفع ، وكان دوى انطلاقه عنيقا حتى خيل الى أننى أصبت بالصمم ، كما خشيت أن أصاب بالعمى نتيجة لشدة وهج الضوء الذى اقترن بالطلاق . بل لقد خيل الى أننى من الهالكين ، فلو أنهم قرروا إطلاق المدفع عدة مرات لاستطاعوا الحصول على الجثة التى يبحثون عنها ! وعلى أية حال ، فإننى لم أصب بمكروه ، والحمد لله على ذلك . واستمرت الناقلة تسبح مبتعدة عني الى أن غابت عن عيني عند كتف الجزيرة . وكان فى استطاعتى أن أسمع دوى انطلاق المدفع بين الحين والحين ، ولكنه كان يتضاءل باستمرار ، حتى اذا ما انقضت ساعة تلاشى الدوى تماما فلم أعد أسمعه . ولما كان طول الجزيرة ثلاثة أميال ، فقد رجحت أن الناقلة بلغت طرفها فى تلك الأثناء وأن ركبها قد تملكهم اليأس وأنهم سوف يتخلون عن محاولتهم . ولكن واقع الأمر أنهم لم يفعلوا ذلك ، إذ أنهم لم يلبثوا أن داروا حول طرف الجزيرة ثم انطلقوا فى الاتجاه المؤدى الى نهر الميسورى ، وهم يطلقون

المدفع من حين الى حين . فعبرت الجزيرة ، حتى اذا ما بلغت جانبها الآخر أخذت أراقب الباحثين عنى ، ولم ألبث أن لاحظت أنهم ماكادوا يصلون الى رأس الجزيرة حتى كفوا عن اطلاق المدفع ثم تراجعوا عن شاطئ نهر الميسورى وكروا عائدين الى المدينة .

أيقنت حينذاك أننى بآمن ، فلن يخرج أحد للبحث عنى بعد ذلك ، فبادرت باخراج أمتعتى من القارب ، وأقمت لنفسى معسكرا فى الغابة الكثيفة . . أنشأت ما يشبه الخيمة مستعينا فى ذلك بالبطاطين ، لكى أضع منقولاتى فيها حتى لا يصل المطر اليها . تم اصطدت سمكة ضخمة فتحت جوفها بمنشارى . وعند ما أذنت الشمس على المغرب ، أوقدت نارا وناولت عشائى ، ثم أعددت « السنائر » لصيد بعض السمك لأجعل منه طعام افطارى .

وعند ما أظلمت الدنيا جلست الى جوار النار الموقدة وأنا أشعر براحة غامرة، ولكنى لم ألبث أن أحسست بثقل وطأة الوحدة، فهرعت الى شاطئ النهر ومضيت أصفى الى الأمواج وهى تصطدم ببعضها البعض . كما أخذت أعد النجوم ، وكتل الخشب الطافية فوق الماء والقوارب الشاردة ، ثم آويت الى فراشى ، فقد كنت أعلم أنه ليس من وسيلة أفضل من النوم للتغلب على الوحدة . وهكذا مضت ثلاثة أيام بلياليها ، رتيبة مملة . غير أننى خرجت لاستكشاف الجزيرة فى اليوم التالى . . لقد كنت سيد هذه الجزيرة . . كانت كلها ملكى فوددت أن أعرف كل شئ عنها ، وان كنت فى واقع الأمر قد أردت قطع الوقت ! وعشرت على كثير من أشجار الراولة وعنب الصيف وأشجار التوت المحملة بالثمار الناضجة ، كانت كلها فى متناول يدى أقطف منها فى أى وقت ما أشاء .

وتوغلت فى الجزيرة حتى لقد رجحت اننى لم أعد بعيدها من

نهابها ، وكنت أحمل بندقيتي محسوة بالرصاص ، ولكنى لم اصطد شيئا لأننى كنت أحملها للدفاع عن نفسى ، رغم اننى كنت اعتزم صيد بعض الطيور قبل عودتى الى المعسكر . وفى تلك اللحظة وقع بصرى على نعبان ضخيم ، لم يلبث ان تسال بين الاعساب والزهور فأسرعت أتعقبه محاوله أن أصيبه برصاص بندقيتى . وبينما أنا أطارده ألفتنى فجأة أمام رماد نار كانت موقدة . وكان الدخان لا يزال يتصاعد منها .

ووب قلبى بين ضلوعى ، ولم اثريث لأطيل النظر ، بل أعددت بندقيتى للعمل وعدت أدراجى من حيث أتيت وأنا اسير فوق أطراف اصابعى بأقصى سرعة مستطاعة ، وكنت انوقف لحظات بين الحين والحين وأصيح السمع ، ولكن تنفسى كان يحدث صوتا عاليا يتعذر على معه أن اسمع أى صوت آخر . وقطعت شوطا آخر ، وتوقفت لأصيح السمع ثانية ، وهكذا كنت افعل كلما قطعت مرحلة فى طريق عودتى الى معسكرى ، وكنت كلما رايت جذع شجرة مقطوعة ، حسبته رجلا ، وكلما حطمت قدماى فرع شجرة ملقى على الأرض جعلنى ذلك أشعر وكان قلبى قد كف عن النبض !

وعند ما عدت الى المعسكر ، لم أكن أشعر بجراحة ما ، ولما كنت أدرك أن الموقف لا يحتمل اهمالا أو تهاونا ، فقد بادرت بنقل جميع أمتعتى الى القارب حتى تصبح بعيدة عن الأنظار ، واطفات النار ، وبعثرت الرماد فى الهواء حتى يبدو لمن يرى النار انها كانت موقدة منذ عام . ثم تسلقت احدى الأشجار الضخمة .

وقضيت ما يقرب من ساعتين فوق الشجرة ، ولكنى لم اسمع ولم أر شيئا ، غير أنه خيل الى اننى سمعت ورايت آلاف الأشياء . . . ولما لم يكن فى استطاعتى أن أبقي فى مكانى ذلك الى الأبد ، فقد هبطت أخيرا من فوق الشجرة ، ولكنى حرصت على التزام

المناطق الكثيفة من الغابة ، وعلى أن اظل مرهف الأذنين مفتوح العينين طوال الوقت ، وكان كل ما استطعت أن أحصل عليه من طعام لا يتعدى بعض ثمار التوت وبقايا وجبة الصباح .

وعند ما جن الليل ، أحسست بجوع شديد ، وما كاد الظلام يشتد حتى تسلفت خلسة وبهدوء مبتعدا بقاربي عن الشاطئ قبل أن يطلع القمر ، وأخذت أجذف الى شاطئ « الينوى » ، حوالى ربع مبل . ونزلت الى الغابة وأعددت لنفسى عشاء ، وكدت أحزم أمرى على قضاء الليلة فى ذلك المكان لولا أننى سمعت وقع حوافر جياذ . وبعد لحظات سمعت أصوات رجال ، فأسرعت أعيذ كل شئ الى القارب بهدوء وحذر ، ثم تسلفت عبر الغابة لأرى ماذا هناك ، ولكنى لم أذهب بعيدا ، فقد سمعت رجلا يقول :

— يجسن بنا أن نعسكر هنا ، فان هذا خير مكان يصلح لقضاء الليل ، كما أن الجياذ متعبة جدا ، فدعونا نلق نظرة على ماحولنا . ولم أنتظر ، وانما ركبت قاربى وأسرعت مبتعدا ، ثم ربطت القارب فى مكانه القديم ، وقررت النوم فيه .

ولم أنم طويلا ، فقد تعذر على النوم لاستغراقى فى التفكير . وكان يخيل لى كلما استيقظت ، أن شخصا يحيط عنقى بيديه ، ولهذا لم أفد من النوم كثيرا ، ولم ألبث أن قلت لنفسى اننى لن أستطيع العيش على هذا المنوال وأن لا مفر لى من أن أعرف أولئك الذين يقيمون معى بالجزيرة ؛ فان لم أعرف ذلك فسأنشق غيظا وعندئذ شعرت بالارتياح !!

وتسلفت بقاربى مبتعدا عن الشاطئ خطوة أو اثنتين ، ثم سرت به فى ظل الشاطئ ، وكان القمر ساطعا فبدت الدنيا خارج نطاق ظل الشاطئ وكأنها تسبح فى ضوء النهار ، وظللت أتقدم بقاربي زهاء ساعة . وكنت قد أشرفت على بلوغ طرف الجزيرة فى تلك الأثناء ، وأخذ نسيم خفيف يلفح وجهى . وكان ذلك فالأ

حسنا فى اعتقادى . واستعنت بمجدافى فى تحويل مقدم القارب نحو الشاطئء ، ثم حملت بندقيتى وهبطت الى الشاطئء ، وانطلقت الى حافة الغابة . ثم جلست فوق كتلة من الخشب وتطلعت من خلال أوراق الشجر ، فلاحظت أن القمر قد انحدر نحو المفيب ، وبدأ الظلام ينشر سرادقه فوق النهر ، ولكنى لم ألبث أن رأيت شعاعا خافتا ينعكس على ذوائب الأشجار ، فأدركت أن الفجر على الأبواب ، فالتقطت بندقيتى وسرت متلصصا فى الاتجاه الذى عثرت فيه على آثار النار . وكنت أتوقف عن المسير كل دقيقة أو دقيقتين لأصيح السمع ، ولكن الحظ خائنى ، فلم أستطع العثور على المكان الذى وجدت فيه هذه الآثار . غير أننى لم ألبث أن لمحت نارا بين الأشجار البعيدة ، وبعد فترة كنت قد اقتربت منها . وسرعان ما رأيت رجلا بجوارها ، فكاد قلبى يكف عن النبض ! كان الرجل يلف بطانية حول رأسه ، وكان رأسه فى قلب النار تقريبا ، فجلست خلف كومة كثيفة من الأعشاب على مبعدة ست أقدام تقريبا من مكان الرجل ، وسددت النظر اليه ، وكان ضوء النهار قد بدأ يتسلل . وسرعان ما تغطى الرجل وتشاءب ونزع البطانية عن رأسه . . . لقد كان « جيم » خادم الأنسة واطسون . وأقسم اننى سررت لرؤياه .

وهتفت : هاللو « جيم » . . .

وانتصب الرجل واقفا فى لمح البصر ، وراح يتأملنى مبهوتا ، ثم جثا فوق ركبتيه ، وضم يديه الى بعضهما وقال :
— لا تمسنى بمكروه . أرجوك ألا تمسنى بمكروه ، فاننى لم أسىء الى الأشباح طيلة حياتى . . . بل اننى أحب الأموات ، وأفعل كل ما فى طاقتى من أجلهم . . . فاذهب الى النهر ثانية ، فالنهر موطنك ولا تسىء الى جيم الكهل ، لأنه صديقك الدائم !!
ولم أضع وقتا طويلا فى افهامه اننى لم أمت ، والحق اننى شعرت

بسرور غامر لرؤية جيم... اننى لم أعد وحيدا فى الجزيرة . وقلت له اننى لا أختنى أن يذهب وأن يقول للناس أين أنا . ومضيت أتحدث اليه . أما هو فقد ظل جامدا فى مكانه دون أن ينطق ببنت شفة ، واكتفى بالنحديق فى وجهى ، وعندئذ قلت له :
— لقد طلع النهار ، فدعنا نتناول طعام الافطار ، هلم زد نارك اشتعالا .

— وما جدوى اشعال النار ؟ هل تطهو عليها التوت وما يماثله من الثمار ؟ ... ما دمت تحمل بندقية ، فاننا نستطيع أن نحصل على شىء أفضل من التوت .

فقلت : وهل كنت تعيش على التوت وما شابهه من قبل ؟

— لم يكن فى استطاعتى أن أحصل على أى شىء آخر .

— وكم من الوقت مضى عليك فى هذه الجزيرة ؟

— جئت الى هنا فى الليلة التى أعقبت مقتل .

— ماذا تقول ؟ أقضيت كل هذا الوقت هنا ؟

— نعم . بالطبع .

— ولم تكن تأكل الا هذه التوافه ؟

— نعم يا سيدى . لا شىء آخر .

— اذن فلا شك أنك توشك على الموت جوعا ؟

— أعتقد اننى أستطيع التهام لحم جواد كامل . كم مضى عليك

من الوقت فى هذه الجزيرة ؟

— منذ الليلة التى قتلت فيها .

— أحقا ؟ وماذا كنت تأكل ؟ لكن لا ... ان معك بندقية ،

هذا حسن ... هلم اصطد شيئا ، وسأزيد النار اشتعالا .

ومضيت الى حيث كان يوجد قاربى ، وبينما كان « جيم » يوقد نارا فى منطقة مكشوفة بين الأشجار ، أحضرت لحما وخبزا وبنا ووعاء لاعداد القهوة ، وآخر لقلل اللحم ، وسكرا وقدحين

نحاسيين . وجلس الزنجى على الأرض جامد الحراك . . . فقد كان يظن أن ما يجرى أمامه أن هو الا عمل من أعمال السحر ! . واصطدت سمكة كبيرة ، واستعان « جيم » بمديتى فى شق بطن السمكة ، تم شواها .

وعندما أعد طعام الافطار ، جلسنا فوق الحتائش ورحنا نلتهم الطعام . . وكان « جيم » جائعا جدا فالتهم قدرا كبيرا من الطعام ، وعندما حصلنا على حاجتنا من الطعام تمددنا فوق الأرض متكاسلين .

وبعد قليل قال جيم : لكن اصغ الى يا « هاك » . من الذى قتل فى الكوخ ما دام هذا القليل لم يكن أنت ؟ وسردت عليه القصة كلها .

فقال انها خطة بارعة ، ما كان « توم سوير » ليستطيع تدبير خطة أفضل منها .

سألته : وكيف اتفق حضورك الى هنا ؟ وكيف جئت يا جيم ؟ فبدا القلق عليه ، ولكنه لم يقل شيئا . وبعد فترة من الصمت قال :

- يحسن بى ألا أجيب على هذا السؤال .
- لماذا يا جيم ؟
- هناك أسباب كثيرة . . . فلبعلك لا تبشى بى اذا ما افضيت اليك بهذه الأسباب يا « هاك » .
- فليلعنى الله ان فعلت ذلك يا « جيم » .
- أعتقد أنك ستكتتم السر . الواقع اننى هربت يا « هاك » .
- جيم !!
- تذكر أنك وعدتني بكتمان السر . تذكر أنك تعهدت بالا تقول شيئا يا « هاك » .
- نعم لقد وعدتك وما زلت عند وعدى ، نعم يا « جيم » سأبر

بوعدي ، فد يتهمنى الناس بأنى وضبع ويخنقرونى لأنى لم أقل شيئا ، ولكن ذلك لا يهمنى ، فأننى لن أقول شيئا ، كما أننى لن أعود الى المدينة والآن ، خبرنى بالقصة كلها .

— حسنا ، اليك ما حدث لقد دأبت الأنسة واطسون على مضايقتى ومعاملتى بخشونة وقسوة كانت تهددنى دائما بأنها ستبيعنى لأننى رقيق وعبد لها . ولاحظت أن ناجر زوج يتردد كثيرا على المنطقة فى الفترة الأخيرة وساورنى القلق . وذات ليلة تسللت الى الباب فى وقت متأخر من الليل ، ولم يكن الباب مغلقا جيدا فسمعت الأنسة تقول للأرملة انها ستبيعنى لأورليانز وانها رفضت أن تبيعنى لتاجر عرض عليها ثمانمائة دولار ثمنا لى ! وأدركت أن هذا المبلغ الضخم سوف يغرى الأنسة واطسون ببيعى ، فلم أترث حتى أسمع بقية الحديث ، وانما بادرت بالهرب ، وأسرعت أهبط من فوق التل وأنا آمل أن تتاح لى فرصة سرقة زورق من تلك الزوارق التى يشدها أصحابها الى الشاطئ أثناء الليل ، ولكنى تبينت أن هناك أشخاصا كثيرين كانوا يتجولون فى منطقة النهر فأثرت الاخفاء فى حانوت قريب ، وانتظرت ريثما ينصرف الجميع ، واضطرت الى البقاء فى الحانوت طوال الليل . لأن تجوال الناس فى المنطقة لم ينقطع . وحوالى الساعة السادسة صباحا بدأت القوارب تتجول فى النهر ، وحوالى الساعة الثامنة أو التاسعة كان كل ركاب القوارب يقولون ان أبلك جاء الى المدينة وقال انك قتلت ، وكانت القوارب مشحونة بالسيدات والرجال الداهبين الى كوخ أيبك لرؤية الحادث . وكانوا يتوقفون عند الشاطئ ليستريحوا بين حين وآخر قبل أن يعبروا النهر ، وهكذا استطعت أن أعرف من أحاديثهم كل شئ عن جريمة القتل ، ولقد تملكنى حزن شديد لمقتلك يا « هاك » ، ولكن هذا الحزن انقشع الآن وبقيت مختبئا طوال النهار ، ومع أننى كنت جائعا فأننى

لم أكن خائفا لأتني كنت أعلم أن الأنسة واطسون والأرملة ستذهبان الى الاجتماع بعد تناول طعام الافطار مباشرة وأنهما لن تعودا الى المنزل طوال النهار ، وستظنان انني ذهبت مع القافلة عند الفجر ، ومن ثم فانهما لن ترتابا في غيابي الا في المساء . اما بقية الجدم فلن يرتابوا في اختفائي لأنهم يمنحون أنفسهم عطلة عقب انصراف أصحاب المنزل وعند ما أقبل المساء ، تسلفت الى طريق النهر ، وسرت حوالي ميلين أو أكثر حتى بلغت منطقة خالية من المساكن . وكنت قد حزمت رأيي على ما سأفعله ، كنت أعلم انني لو حاولت الفرار سيرا على قدمي فلن تلبث الكلاب أن تقفئ أثرى ، واذا سرقت قارباً لأعبر النهر به فان أصحاب القارب سوف يكتشفون الأمر ويدركون انني استعملته لعبور النهر الى الجزيرة ولن يلبثوا أن يقفوا على أثرى . وعندئذ قلت لنفسي ان خير ما ينقذني هو الاسعانة بكنلة خشبية لعبور النهر لأنها لن تترك أى أثر يدل على . ورأيت احدى الناقلات البحرية مقبلة نحوى ، فخفضت في الماء حتى صدرى ثم سبحت وأنا أحرص على خفض رأسي حتى لا يراني أحد ، ومضيت أسبح عكس التيار الى أن بلغت موضع الناقلة النهرية ، وغصت تحت الماء ومضيت في السباحة حتى حاذيت مقدم الناقلة وتسلفتها وتمددت فوق أرضها وكان من فيها من الرجال يجلسون في منتصفها حول ضوء المصباح ، وكان المد آخذا في الارتفاع والتيار قويا وقتذاك فادركت انني سأقطع خمسة عشر ميلا بعيدا عن المدينة عند ما تبلغ الساعة الرابعة ، وعندئذ يمكنني التسلل من القارب قبل طلوع النهار والسباحة الى الشاطئ والاختفاء في الغاب المواجه لالينوى . ولكن الحظ لم يحالفني ، اذ ماكادت الناقلة تقترب من رأس الجزيرة حتى شرع أحد الرجال في المجيء الى مقدم القارب وهو يحمل

المصباح ، وأيقنت ألا جدوى من الانتظار فانزلت من الناقلة الى الماء بهادوء ومضيت أسبح نحو الجزيرة ، وكنت أعتقد أنني سأتمكن من الخروج الى الشاطئ في أى مكان ، ولكنى لم أستطع . . . كان الشاطئ خداعا فاضطرت الى الاسمرار في السباحة الى أن كدت أصل الى طرف الجزيرة الآخر قبل أن أجد مكانا يصلح للخروج الى الشاطئ ، ومضيت على الفور الى الغاب وأنا أعلم أن من العبث أن أحاول النسل الى الناقلة النهرية مرة أخرى مادامت مضاعة بمصباح .

— ألم يكن لديك لحم ولا خبز نطعم بهما طوال هذه الفترة ؟ لماذا لم تحاول صيد الضفادع ؟

— وكيف يمكن الوصول اليها ؟ انك لا تستطيع الانقضااض عليها والامساك بها ، ثم كيف يمكن اصابتها بحجر ؟ وكيف يستطيع الانسان اقتناصها بالليل ؟ هذا الى أنني كنت مضطرا الى عدم الظهور على الشاطئ في ضوء النهار .

— أصبت . . . لقد كنت مضطرا الى الاختباء في الغابة طوال الوقت ، فهل سمعتهم وهم يطلقون المدفع ؟

— أوه ، نعم ، وأدركت أنهم يبحثون عنك . . . ولقد رأيت الناقلة وهي تجوب النهر وراقبتها من خلال الأعشاب .

وأقبل عدد من صفار الطيور ، وطارَت الطيور على ارتفاع ياردة أو اثنتين فوق رأسينا ، فقال « جيم » انها علامة على أن السماء ستمطر . وكنت أهم بمطاردة بعضها ولكن « جيم » منعنى قائلا اننى اذا فعلت فان ذلك سيكون نذيرا بالموت ! . . ثم قال ان أباه كان مريضا وان بعض الأشخاص اقتنص طيرا صغيرا فما لبث أبوه أن مات !!

وقال « جيم » انه ينبغي عدم عد الأشياء التى تطهى لطعام العشاء لأن ذلك فال سيىء ، وان النحس يصيب من ينفذ غطاء

المائدة بعد غروب الشمس ! كما قال انه اذا كان شخص ملك خلية نحل ، ومات هذا الشخص فيجب على النحل أن يسرع بموته قبل شروق شمس اليوم التالي والا ضعف النحل جميعه وتوقف عن العمل تم مات !! وأضاف جيم ان النحل لا يلدغ البلهاء ، بيد أنى لم أضدق هذا القول لأننى جربته بنفسى مرات كثيرة فالنحل لم يلدغنى مع اننى لست غبيا ! .

وكنت قد سمعت عن بعض هذه الأشياء من قبل ولكنى لم أكن قد عرفتها جميعا ، أما « جيم » فيعرف كل ذلك . . . لقد قال لى انه يعرف كل شىء تقريبا عن علامات الحظ والحسن . فقلت له انه يخيل لى ان جميع هذه العلامات تقتصر على سوء الحظ ، وسألت ان كانت هناك أية علامة على حسن الحظ .

فقال : انها قليلة جدا ، وهى لا تفيد احدا . . . اذ ماذا تريد ان تعرف عن الحظ الحسن مادام فى طريقه اليك ؟ هل تريد ان تصده عنك ؟

نم قال : اذا كان ذراعاك غزيرى الشعر ، وكذلك صدرك ، فان ذلك علامة على أنك ستصبح ثريا ! ولا شك فى ان معرفة مثل هذا القول الحسن أمر مفيد لأنه يكتشف عن المستقبل البعيد . . . فقد تظل فقيرا وقتا طويلا ، وربما تملكك اليأس فتقدم على الانتحار، لو لم تنبئك هذه العلامة بأنك ستصبح ثريا بعد حين !!

— وهل ذراعاك وصدرك غزار الشعر يا جيم ؟
— ما الفائدة من القاء هذا السؤال على ؟ ألا ترى ان ذراعى وصدري غزار الشعر ؟

— حسنا . . . وهل أنت ثرى ؟
— لا . . . ولكنى كنت ثريا فى أحد الأيام ، وسأصبح كذلك فى المستقبل . . . لقد كنت املك أربعة عشر دولارا ولكنى خسرتها فى التجارة .

- فيم تاجرت يا « جيم » ؟
- حسنا . . . لقد تاجرت في الماشية اول الامر .
- اى نوع من الماشية ؟
- الماشية الحية ! ! . . . القطعان كما نعلم . . . فقد ضاربت بعشرة دولارات على بقرة . . . ولكنى لن اجازف بنقودى فى الماشية ، فقد ماتت البقرة بين يدى .
- اذن فقدت عشرة دولارات .
- كلا ، لم افقدها كلها ، واما فقدت تسعة منها ، فقد بعث جلد البقرة المية بدولار وعشرة سنتات !!
- اذن فقد تبقى لديك خمسة دولارات وعشرة سنتات . . . وهل تضارب الآن ؟
- نعم . انك ولا شك تعرف الزنجى الأعرج الذى يملكه مستر براديس الكهل ؟ . . . لقد انسا مصرفا ، وهو يقول ان كل شخص يودع دولارا فى هذا المصرف يحصل على اربعة دولارات فى نهاية العام . . . ولقد ساهم جميع الزنوج فى هذا المصرف ولكنهم لا يملكون نقودا كثيرة . وكنت انا الوحيد الذى يملك هذا القدر من النقود ، ومن تم تمسكت بالحصول على أكثر من اربعة دولارات وقلت اننى اذا لم احصل على بغيتى فسافتح مصرفا ! وكان هذا الزنجى يريد ابعادى عن مثل هذا العمل ، فقال ان الامر لا يتسع لمصرفين ، وقال اننى أستطيع ان اودع دولاراتى الخمسة فى مصرفه ، وانه سيدفع لى خمسة وثلاثين دولارا فى نهاية العام !!
- فأعطيته المال . وانا اعتقد اننى سوف أستثمر الخمسة والثلاثين دولارا بمجرد حصولى عليها . وأدع الأمور تجري فى أعنتها . . . وكان هناك زنجى اسمه بوب حصل على كوخ خشبى بغير علم من سيده . فاشترىته منه على أن يحصل على الدولارات الخمسة والثلاثين فى نهاية العام ، ولكن شخصا ما سرق الكوخ الخشبى

أثناء الليل . وفي اليوم التالي قال لى الزنجى الأعرج ان المصرف
قد أفلس ، وهكذا لم يحصل أحد منا على نقوده !!
وكان الحزن باديا على « جيم » فقلت له :
— لا تحزن يا « جيم » . . فسوف تصبح نريا فى أحد الأيام .
فقال « جيم » :
— صدقت . . والحق أنى نرى . . فأنا سيد نفسى الآن . .
بل اننى أساوى ثمانمائة دولار كانت الأنسة واطسون تستطيع أن
تبيعنى بها ! . . وانه لمبلغ كبير لا تهفو نفسى الى أكثر منه !

الفصل التاسع

الكهف - المنزل العائم - غنيمة كبيرة .

أعربت لجيم عن رغبتى فى رؤية مكان معين فى منتصف الجزيرة تقريبا ، كنت قد عثرت عليه أثناء قيامى بعملية الاستكشاف . ومن ثم فقد مضينا اليه وسرعان ما بلغناه ، لأن طول الجزيرة لم يكن يتجاوز ثلاثة أميال، كما أن عرضها لم يكن يتجاوز ربع ميل . وكان ذلك المكان عبارة عن تل عميق شديد الانحدار وأخدود يبلغ ارتفاعه حوالى أربعين قدما ، ولقد لاقينا عناء شديدا حتى تمكنا من الوصول الى القمة لشدة انحدار جوانب التل وكثافة الأعشاب النامية فوقه . وأخذنا نرتاد التل مستكشفين . ولم نلبث أن عثرنا على كهف كبير بين الصخور عند قمة التل تقريبا من ناحية « الينوى » . وكانت مساحة هذا الكهف تعادل مساحة غرفتين أو ثلاث غرف فسيحة ، وكان فى استطاعة « جيم » أن يقف فيه منتصباً . أما الطقس بداخله فكان رطباً ، وكان من رأى جيم أنه يحسن بنا أن ننقل أمتعتنا الى الكهف بدون إبطاء ، ولكنى قلت أن الصعود الى التل والهبوط منه يستغرقان وقتاً طويلاً . وقال « جيم » اننا اذا استطعنا اخفاء القارب فى مكان آخر واحتفظنا بامتعتنا فى الكهف ، فاننا نستطيع الرحيل بسرعة اذا جاء أحد الى الجزيرة ، وان أحدا لن يستطيع العثور علينا الا اذا

استعان بالكلاب . ثم قال أن الطيور حين حلقت فوق راسبنا كانت تنذرنا بأن السماء ستمطر . . وعلى ذلك يحسن بنا أن نختفى فى الكهف حتى لا تبطل أمنعتنا .

وهكذا عدنا أدراجنا الى القارب ورحنا نجدف حتى بلغنا نقطة محاذية للكهف ثم نقلنا جميع أمتعتنا اليه ، وبحثنا عن مكان قريب لنخفى القارب فيه بين أشجار الصفصاف المتشابكة . وبعد أن اصطدنا بعض السمك أعدنا وضع « السنانير » فى الماء وبدأنا نتأهب لاعداد الطعام .

وكان باب الكهف واسعا الى درجة تكفى لدحرجة برميل كبير من خلاله ، وعلى احد جانبي الباب ، كانت أرض الكهف بارزة قليلا ومسطحة بحيث تصلح لانشاء موقد عليها ، وقد انشأناه فعلا وطهونا الطعام .

وبسطنا البطاطين على الأرض — كما لو كانت سجادة — وتناولنا طعامنا فوقها ، ثم وضعنا جميع أمتعتنا فى مؤخرة الكهف حتى تكون فى منناول أيدينا . وبعد قليل اظلمت الدنيا ، وبدأ الرعد يهزم والبرق يومض ، فبادرت الطيور بالفرار ، ثم أخذ المطر ينهمر بغرارة شديدة ، وراحت الريح تقصف بعنف لم يسبق لى أن شأهدت مثله . . كانت عاصفة من عواصف الصيف الدورية ، وكان الفضاء خارج الكهف شديد الظلام ، أما الأشجار فكانت تبدو — والامطار تكتسحها اكتساحا — مثل نسيج العنكبوت ، وكانت الريح لا تلبث أن تشتد ، فتمايلت الأشجار وتساقطت أوراقها وتشابكت أغصانها . وكلما اشتد الظلام حلكة ، أو مض البرق وتألقت الدنيا نورا . ثم لا يلبث الدنيا أن تفرق فى الظلام الحالك ، ثم يفرقع البرق محدنا انفجارا يصم الآذان ويدوى بطول السماء وعرضها .

واستمر الفيضان فترة تتراوح بين عشرة أيام وانتهى عشر يوما حتى فاض ماء النهر على النساطين ، فبلغ عمق الماء ثلاث أقدام أو أربعا في الأماكن المنخفضة من الجزيرة وفي قاع «الينوى» . وكان الشاطئ متسعا عدة أميال على هذا الجانب ، ولكنه كان بعرض الجزيرة من ناحية نهر الميسورى - نصف ميل فقط - وكان شاطئ الميسورى عبارة عن جدار من الصخور المرتفعة .

وكنا نركب القارب في النهار وندور حول الجزيرة ، وكنا نرتاد الغاب فنسير بين الأشجار . وكانت الكروم تتشابك في بعض الأماكن فتسد الطريق ، فنضطر إلى العودة من حيث جئنا لنبحث عن طريق آخر . ولكننا كنا نرى في كل شجرة قديمة محطمة كثيرا من الأرناب والتعابين وما شابهها ، فإذا ما أغرق فيضان النهر الجزيرة يوما أو يومين استأنست هذه الحيوانات بسبب الجوع ، وهكذا يمكنك أن تركب القارب وتجدف نحوها وتمسك بها جميعا إلا التعابين والسلاحف البحرية - لأنها تبادر بالانزلاق تحت الماء ! وكانت حافة التل التي يوجد فيها كهفنا مملوءة بهذه الحيوانات ، ومن ثم كان في استطاعتنا أن نحصل على عدد كبير من الحيوانات الأليفة متى شئنا .

و ذات ليلة ، استطعنا أن نعتز على أفريز خشبي مصنوع من ألواح خشب الصنوبر الجميلة . وكان عرضه اثنتى عشرة قدما وطوله حوالى خمس عشرة أو ست عشرة قدما ، وكان سطحه يعلو عن سطح الماء حوالى ست أو سبع بوصات وكأنه قطعة من الأرض الصلبة . وكنا نرى كثيرا من كتل الأخشاب الطافية فوق سطح الماء في بعض الأحيان ، ولكننا كنا نتركها تمضي في طريقها . لأننا كنا نحرض على عدم الظهور في النهار .

وفي ليلة أخرى ، بينما كنا واقفين عند رأس الجزيرة قبل طلوع النهار مباشرة ، رأينا منزلا سائرا (متحركا) مع التيار على

الجانب الغربى من النهر ، وكان المنزل خشبيا مكونا من طابقين ، وكان مائلا بدرجة كبيرة ، فركبنا القارب ولحقنا به ثم تسلقناه ودخلنا فى نافذة علوية ، ولكن الظلام كان لا يزال حالكا بحيث تستحيل معه الرؤية ، فربطنا القارب الى المنزل العائم وانتظرنا طلوع النهار .

وبدأ النهار فى الطلوع قبل أن نصل الى طرف الجزيرة . وعندئذ تطلعنا من النافذة واستطلعنا أن نرى سريرا ومنضدة ومقعدين قديمين وأشياء أخرى كثيرة مبعثرة على الأرض . وكانت هناك ملابس معلقة فوق الجدار ، كما كان هناك شئ ممدد فوق الأرض فى الركن البعيد . وكان هذا الشئ على هيئة رجل ! فصاح به جيم :

— يا هذا ...

ولكن الرجل لم يتحرك ، فصحت أناذيه ، وعندئذ قال جيم :
— ان الرجل ليس نائما ، انه ميت . . الزم الهدوء وسأذهب لأتبين جلية الأمر .

وتقدم من الرجل ، وانحنى فوقه ، وتطلع اليه ثم قال :
— انه رجل ميت ، نعم ميت ، وهو عار أيضا ، لقد أطلق الرصاص عليه من الخلف ، وأكبر ظنى أنه مات منذ يومين أو ثلاثة أيام ، تعال يا « هالك » ، ولكن لا تنظر الى وجهه لأن منظره مخيف .

ولم أنظر الى وجهه . . وألقى جيم فوقه بعض الخرق القديمة . ولم أر سببا يدعو الى اخفاء وجه الرجل الميت لأننى لم أكن راغبا فى النظر الى وجهه . . وكانت هناك أكداش من أوراق اللعب القذرة مبعثرة فوق الأرض ، وزجاجات خمر قديمة ، وقناعات مصنوعة من قماش أسود اللون ؛ وفوق الجدران نقشست كلمات غير مفهومة وصور سيئة الرسم مرسومة بالقحم ، وكان هناك

ثوبان فديمان من « الدبلان » ، وقبعة شمس صغيرة ، وبعض ثياب نسائية داخلية معلقة فوق أحد الجدران ، وبعض ثياب الرجال أيضا . ولقد نقلنا جميع هذه الأشياء الى القارب لعلها تنفعنا في المستقبل . وعثرت على قبعة غلام قديمة من القش المنقوش ملقاة على الأرض فأخذتها ، وكانت هناك أيضا زجاجة بها آثار لبن ، ولها سداة من القماش ليرضع منها طفل ، وكنا نهم بأخذ هذه الزجاجة لولا أننا وجدناها « مكسورة » . وكان هناك كذلك صندوق عتيق وحقيبة قديمة محطمة « المفصلات » . وكان الصندوق والحقيبة مفتوحتين ، ولم يكن بهما شيء يستحق الذكر . وعلى أية حال فقد استخلصنا من منظر تلك الأشياء المبعثرة أن سكان المنزل هجروه على عجل ولم يكونوا مستعدين لنقل معظم أمتعتهم !!

وحصلنا على مصباح عتيق من الصفيح ، وسكين جزار بدون مقبض ، وسكين جديدة تساوى دولارين في أى حانوت ، وعدد من الشمعدانات الملوخة بالشمع ، وفنجان من الصفيح ، ولحاف قديم كان ملقى على الأرض ، وكيس صغير ، وأبر ، وشمع عسل ، وأزرار ، ودبابيس ، وخيط ، وقادوم صغير ، وبعض المسامير ، وسنارة قطرها كقطر اصبعي الخنصر بها شص عجيب المنظر ، وياقة منتشة ، وحدوة حصان ، وبعض زجاجات من الدواء لا تحمل بطاقات تدل عليها . وبينما كنا نتأهب للانصراف عثرت على فرشاة ، كما عثر « جيم » على ساق ختبية ، كانت سيورها مقطوعة ولكنها كانت ساقا صالحة للاستعمال وأن كانت طويلة بالنسبة الى وقصيرة بالنسبة لجيم . غير أننا لم نعر على الساق الأخرى رغم أننا بحثنا عنها في كل مكان .

وهكذا نقلنا كل هذه الأشياء الى القارب ، وبذلك ربحتنا غنيمة كبيرة . وعند ما كنا على استعداد للرحيل ، تبين لنا أننا ابتعدنا

ميلا عن جنوب الجزيرة وأن ضوء النهار ساطع جدا ، ومن ثم ،
فقد جعلت جيم يقبع في جوف القارب وغطينه بالحاف لاني
كنت أدرك أنه لو جلس في القارب لاستطاع الناس أن يميزوا أنه
زنجي من بعد كبير . . ووجهت القارب نحو شاطئ « الينوى »
ومضينا حتى بلغنا منطقة الماء الهادىء في أمان وبغير أن نرى
أحدا . وهكذا عدنا الى كهفنا سالمين !!

الفصل العشائر

الثمانية دولارات الذهبية - « هانك
يانكر » العجوز - التنكر في زى فتاة .

ما كدنا نفرغ من تناول طعام الافطار حتى أبديت رغبتى فى
التحدث عن الرجل الميت والتكهن بكيفية قتله ، ولكن جيم رفض
قائلا ان ذلك يجلب لنا النحس ، وان حديثنا عن القتل خلى
بأن يجعله يحوم حولنا لأن روح الرجل الذى يموت ولا يدفن تكون
أكثر قلقا من روح الرجل الذى يدفن ويستقر فى قبر . وبدأ لى
قوله معقولا ، فامتنعت عن الكلام فى هذا الموضوع ، ولكنى
لم أستطع أن أكف عن التفكير فيه ، وأنا أتمنى أن أعرف من الذى
أطلق الرصاص عليه والسبب الذى حدا بالقاتل الى قتله !

وأخذنا نتفحص الملابس التى حصلنا عليها ونفتشها ، فعثرنا
على ثمانية دولارات ذهبية مخبأة فى بطانة معطف مصنوع من بطانية
قديمة ، وقال جيم انه يظن أن سكان المنزل « العائم » الذى عثرنا
فيه على هذه الأشياء سرقوا هذا المعطف لأنهم لو كانوا يعرفون
أن بداخله نقودا لما تركوها ، فقلت : اننى أعتقد أن جريمة القتل
ارتكبت لذلك الغرض ، ولكن جيم رفض الحديث فى هذا
الموضوع ، فقلت :

— انك تظن أن مثل هذا الحديث يجلب النحس ، ولكن هل تذكر ما قلته لى عندما أحضرت جلد الثعبان الذى عثرت عليه عند حافة النهر أول أمس ؟ لقد قلت ان من أسوأ الأمور التى تجلب سوء الحظ أن ألمس جلد ثعبان بيدي . حسنا . . . ها هو النحس الذى تحدثت عنه . . . لقد حصلنا على كل هذه الغنيمة فضلا عن ثمانية دولارات . . . لكم أتمنى لو حاق بنا سوء حظ مماثل كل يوم يا جيم .

— لا تشغل بالك يا عزيزى . . . لا تكن متسرعا ، فان النحس مقبل لا شك فى ذلك . . . وسوف تتذكر كلماتى هذه عند ذاك . ولقد أقبل النحس فعلا . . . دار حديثنا هذا فى يوم الثلاثاء ؛ وفى مساء يوم الجمعة تناولنا طعام العشاء ، ثم تمددنا فوق الحشائش وخطر لى أن أذهب الى الكهف لأحضر شيئا . وهناك وجدت ثعبانا ذا أجراس . فقتلته بسهولة ولففته ووضعته عند حافة البطانية التى ينام « جيم » عليها وأنا أتوقع أن يكون ذلك دعاية لطيفة لجيم عند ما يتهيا للنوم ، وعند ما حان موعد النوم كنت قد نسيت كل شىء عن الثعبان الميت . وعند ما ألقى « جيم » بنفسه فوق البطانية كانت « أليفة » الثعبان هناك ، وبينما كنت أضئ الشمعدان عضت الحية « جيم » .

ووثب « جيم » فى الهواء وهو يصرخ ، وما كاد الضوء يلا المكان حتى ألقى السامة تنهيا لوثة جديدة ، فقتلتها بعصا غليظة ، بينما جذب جيم ابريق أبى المملوء بالشراب وبدأ يجرع ما فيه .

كان « جيم » حافى القدمين ، ولهذا عضته الأفعى فى كعبه ، ولقد حدث ذلك نتيجة لحماقتى وعدم تذكرى أنه أينما يكون الثعبان الميت فان « أليفته » تسعى إليه وتلف نفسها حوله . وطلب « جيم » منى أن أقفل رأس الحية وأن ألقينها بعيدا ، ثم

أنزع قطعة من جلد الأفعى وجسمها وأشويها ، ففعلت ذلك .
وعندئذ أخذ القطعة وأكلها وهو يقول ان ذلك يساعد على شفائه .
ثم جعلنى أقطع الأجراس وأربطها حول معصمه قائلا ان ذلك
يساعد أيضا على شفائه ، وبعدئذ تسللت من الكهف بهدوء وألقيت
بقايا الثعبان والأفعى بعيدا بين الحشائش ، اذ كنت أبغى ألا يعرف
جيم اننى المخطيء ، ما دمت أستطيع أن أحول بينه وبين معرفة
ذلك بالتخلص من الثعبان !

وراح جيم بجرع ما فى ابريق الشراب رويدا رويدا ، وكاد يفقد
اتزانه بين الحين والحين فيتدحرج على الأرض وهو يصرخ صراخا
مخيفا ، ولكنه كان لا يلبث أن يتغلب على آلامه ويستأنف احتساء
الشراب . ولقد تورمت قدمه ورجله تورما شديدا ، ولكن الشراب
أحدث تأثيره ، فأيقنت أن جيم لن يلبث أن تتحسن حاله ، مع
اننى كنت أفضل أن يلدغنى ثعبان على أن يستهلك شراب أبى !!
وظل « جيم » طريح الفراش أربعة أيام ، ثم لم يلبث الورم ان
اخذنى ، واستعاد الزنجى قواه ، وعندئذ قررت ألا ألمس جلد ثعبان
مرة أخرى بعد أن رأيت ما ترتب على ذلك من نتيجة . أما
جيم فقد قال انه يجدر بى أن أصدق ما يقوله لى فى المرة التالية .
وأضاف ان للمس جلد الثعبان نتائج وخيمة العاقبة ، وانه يفضل
أن يرى القمر ألف مرة من فوق كتفه الأيسر على أن يلمس جلد
ثعبان بيده ! ولقد بدأت أومن بهذا الرأى أيضا رغم اننى كنت
أعتقد دائما ان التطلع الى القمر من فوق الكتف الأيسر من أكثر
الأعمال التى يأتىها الانسان دلالة على الإهمال والحماقة . ولقد
فعل « هانك بانكر » العجوز ذلك ذات مرة ، وكان يتفاخر به .
وفى أقل من عامين مات على أثر افراطه فى الشراب فدفنوه بين
بابى « شونة » جعلوا منهما تابوتا . . . هكذا قالوا ، لأننى لم أر
الحادث بنفسى ، وإنما سمعت هذه التفاصيل من أبى ، ومهما يكن

من أمر ، فان هذا الحادث كان نتيجة تطلع الرجل الى القمر بهذه الطريقة الحمقاء !

ومرت الأيام ، وانخفض منسوب ماء النهر بين ضفتيه مرة أخرى ، وكان أول شيء فعلناه ، أننا نصبنا فخا اصطدنا به سمكة فى حجم رجل ، طولها ست أقدام وبوصتان وزنتها أكثر من مائتى رطل ، ولم نستطع أن نقرب منها فى بادىء الأمر ، فتركناها تحاول التخلص من الشخص الى أن استنزفت قواها واستسلمت . وعثرنا فى جوفها على زرار نحاسى وكرة وكثير من القمامة . وفتحنا الكرة بالقادوم فوجدنا بداخلها « بكرة » ، وقال جيم انه كان يملك هذه « البكرة » منذ أمد طويل وكان يريد تغليفها ليصنع منها كرة ، أما السمكة فكانت أضخم من أية سمكة اصطدناها من قبل فى نهر الميسيبى . وقال جيم انه لم ير سمكة على هذه الضخامة وانها نساوى مبلغا كبيرا لو عرضت للبيع فى القرية ، فان الصيادين يذهبون بمثل هذه السمكة الى « حلقة » السمك حيث يبيعونها هناك بالرطل ، فيبتاع كل شخص جزءا منها لأن لحمها أبيض كالثلج وطعمها لذيد عند القلى !

وفى صباح اليوم التالى قلت ان الحياة قد أصبحت بطيئة مملة واننى أريد أن أفعل شيئا مثيرا ، وقلت اننى سأعبر النهر لأعرف ماذا يحدث فى المدينة ، وأعجب جيم بهذه الفكرة ولكنه قال انه يجب على أن أذهب فى الظلام وأن أكون على حذر ، ثم فكر فى الأمر مليا وسألنى اذا كنت أستطيع أن أرتدى بعض الثياب النسائية العتيقة التى عثرنا عليها لأبدو فى شكل فتاة . وأعجبتنى الفكرة بدورى ، فبادرنا بتقصير أحد الثوبين المصنوعين من « الدبلان » ثم ثنيت طرفى بنطلونى الى ما فوق ركبتى وارتديت الثوب ، وأغلقه جيم من الخلف بالمشابك ، فاذا به يلائمنى تماما . ووضعت قبعة الشمس فوق رأسى ، وربطتها أسفل ذقنى فأخفيت معالمه .

وقال جيم ان احدا لن يعرفنى حتى فى ضوء النهار . وظللت أتمرن على أداء دورى الجديد طوال النهار ، ولكن جيم قال أننى لا أمشى مشية فتاة وان على ألا أرفع ثوبى كلما أردت وضع يدي فى جيب بنطلونى ، وحرصت على تذكر هذه النصيحة ، وبذلك أجدت الدور .

وعند ما أرخى الليل سدوله ركبت القارب ومضيت الى شاطئ « ألينوى » .

وعبرت النهر فى طريقى الى المدينة من منطقة الى الجنوب قليلا من مرسى الزوارق ، وساعدنى اتجاه التيار على الوصول الى طرف المدينة ، وشددت قاربى الى الشاطئ ، وبدأت رحلتى فرأيت ضوءا ينبعث من كوخ صغير ظل مهجورا أمدا طويلا ، فتساءلت عمن يكون قد اتخذ له من هذا الكوخ مسكنا ، وتسلمت الى الكوخ واختلست النظر من النافذة فرأيت امرأة فى حوالى الأربعين من عمرها منهمكة فى شغل الابرة على ضوء شمعة مثبتة فوق منضدة من خشب الصنوبر . ولم أعرف وجهها ، اذ كانت غريبة على ، فقد كنت أعرف وجوه جميع من فى المدينة . وكان ذلك من حسن حظى ، اذ أننى كنت قد بدأت أضعف ، فقد ملكنى الخوف من اقدامى على المجرى خشية أن يعرف الناس صوتى ويكشفوا أمرى ، أما اذا كانت هذه المرأة قد جاءت الى المدينة الصغيرة منذ يومين ، فان فى استطاعتها أن تقول لى كل ما أريد معرفته دون أن تعرفنى . . . وطرقت الباب ، وحزمت أمرى على ألا أنسى أننى فتاة !!

الفصل الحادى عشر

((هاك)) والسيدة - البحث - المراوغة -
الذهاب الى ((جوشن)) - أنهم فى أثرنا

قالت المرأة : ادخل . . . فدخلت

ثم قالت : اجلسى . . . ففعلت

وتطلعت الى بعينيهما الصغيرتين المتألفتين ، ثم قالت :
ما اسمك ؟

- سارة ويليامز

- وأين تقيمين ؟ أفى هذه المنطقة ؟

- كلا يا سيدتى . اننى أقيم فى « هوكر فيل » النى تبعد سبعة
أميال عن هنا ، ولقد قطعت هذه المسافة سيرا على قدمى ، ولذلك
فاننى متعبة أشد التعب .

- وجائعة أيضا فيما أظن ؟ سأبحث لك عن شىء تأكلينه

- كلا يا سيدتى . لست جوعانة ، فقد عرجت على مزرعة

تبعد ميلين من هنا وأكلت هناك . ولذلك فاننى لم أجمع بعد ،
وهذا هو السبب فى أنى تأخرت الى هذه الساعة . ان أمى مريضة ،
ومفلسة . ولقد جئت لأقول ذلك لعمى « أبنى مور » الذى يقيم
فى الجانب الآخر من المدينة كما قالت لى أمى ، وار اننى لم آت الى
هذه المنطقة من قبل ، فهل تعرفينه ؟

— لا ... اننى لا أعرف كل انسان هنا لأننى لم آت للاقامة فى هذا المكان الا من حوالى أسبوعين نم ان المسافة الى الجانب الآخر من المدينة طويلة ، وخير لك أن تقضى الليلة هنا . . . اخلع قبعتك .

فقلت : كلا . . . سأستريح قليلا ثم أستأنف رحلتى ، فاننى لا أخشى الظلام .

فقلت لى : انها لن تدعنى أذهب بمفردى ، وأن زوجها لن يلبث أن يعود بعد ساعة أو ساعة ونصف فترسله معى . ثم بدأت تتحدث عن زوجها وعن أقاربها المقيمين على شاطئ النهر عند طرف المدينة الشمالى ، والآخرين المقيمين عند الطرف الآخر ، وعن مدى الشراء الذى كانوا ينعمون به ، وكيف انهم اكتشفوا فيما بعد أنهم أخطأوا حينما قدموا الى هذه المدينة ، وأنه كان يجدر بهم أن يتخلوا عن فكرة الهجرة الى المدينة ، وهلم جرا ، حتى بدأت أخشى أن أكون قد أخطأت بمجيئى اليها طمعا فى معرفة ما يدور فى المدينة . ولكنها لم تلبث أن تحدثت بعد قليل عن أبى وجريمة القتل . وعندئذ قررت أن أجعلها تثرثر كما تشاء . حدثتني عن عشورى و « توم سوير » على الستة آلاف دولار (ولكنها قالت انها عشرة آلاف !) ، وعن كل ما يتعلق بأبى وكيف أنه رجل صعب المراس وعن صعوبة مراسى أيضا ، ثم تطرقت الى الحديث عن جريمة قتلى . فقلت : من الذى ارتكب الجريمة ؟ . . . لقد سمعنا أقوالا كثيرة عن هذه الأحداث فى « هوكرفيل » . . . ولكننا لا نعرف من الذى قتل « هالك فن » .

— حسنا ، أعتقد أن أشخاصا كثيرين فى هذه المدينة يتوقعون الى معرفة من قتله . ويظن البعض أن أباه « فن » العجوز هو الذى ارتكب الجريمة .
— أحقا ؟ . . .

— لقد ظن كل شخص تقريبا ذلك في بادئ الأمر ، وكاد الرجل يروح ضحية هذه الريبة ، ولكن الناس ما لبثوا أن عدلوا عن هذا الاتهام قبل حلول الظلام ، ورجحوا أن القاتل زنجى هارب اسمه جيم .

— انه ...

وأمسكت عن الكلام ، فقد أيقنت أن من الأفضل أن ألوذ بالصمت واستأنفت السيدة الحديث بغير أن تلاحظ أنني قاطعتها .
قالت : لقد هرب الزنجى في الليلة ذاتها التي قتل فيها « هاكلبرى فن » . ولهذا أعلن عن دفع مكافأة قدرها ثلاثمائة دولار ، لمن يقبض عليه . وهناك مكافأة أيضا لمن يقبض على الأب « فن » قدرها مائتا دولار . فقد جاء الى المدينة في صباح اليوم التالي لارتكاب الجريمة ، وأفضى بنبأها ، كما رافق الباحثين عن جثة ابنه في الناقلة النهرية ، ولكنه لم يلبث أن اختفى بعد ذلك . وكان البوليس يريد استجوابه قبل حلول المساء ولكنه كان قد هرب . وفي صباح اليوم التالي اتضح أن الزنجى قد هرب ، وتبين أن أحدا لم يره منذ الساعة الثامنة من الليلة التي ارتكبت الجريمة فيها ، فاتهموه بارتكابها ، وبينما كان الجميع يؤمنون بصدق هذا الظن ، عاد في اليوم التالي وأثار زوبعة عاتية مع القاضي « تاتشر » مطالبا إياه باعطائه نقودا ليستعين بها على مطاردة الزنجى في جميع أنحاء « ألينوى » . وأعطاه القاضي بعض المال ، وفي تلك الليلة أسرف العجوز في شرب الخمر وأخذ يتجول في المدينة الى ما بعد منتصف الليل مصطحبا رجلين غريبين تثير هيتتهما الريبة ثم اختفى معهما ، ولم يعد منذ ذلك الحين . ولكنهم لن يبحثوا عنه الا بعد أن تهدأ الزوبعة قليلا ، إذ أن الناس يظنون الآن أنه قتل ابنه بطريقة تجعل الجميع يظنون أن لصوصا هم الذين ارتكبوا الجريمة ، وبعدئذ يمكنه المطالبة بثروة هائلة بغير حاجة الى الالتجاء للقضاء واجراءاته

الطويلة . . . ويقول الناس انه غير صالح لأداء هذا العمل . وانى أعتقد أنه شديد المكر ، فاذا لم يعد قبل عام ، فان ذلك سيجعله بمنجاة من الخطر لأن أحدا لن يستطيع اثبات الاتهام عليه بعد أن تكون جميع الأدلة قد تلاشت ، ومن ثم يستطيع الحصول على ثروة « هاك » بكل سهولة .

— أعتقد أن الأمر كذلك . فلست أرى مأخذا في هذا الرأى . . . لكن هل صرف الجميع النظر عن اتهام الزنجى ؟

— أوه . كلا . ليس كل شخص يعتقد ذلك ، فان كثيرين ما زالوا يظنون أنه القاتل ، ولكنهم سوف يظفرون به عاجلا ؛ بل لعلمهم يستطيعون ادخال الفزع فى قلبه فيضطرونه الى الظهور .
— ولكن لماذا يبحثون عنه حتى الآن ؟

— حسنا . . . انك فتاة بريئة . . . أليس كذلك ؟ هل تظنين أن الناس تتاح لهم كل يوم فرصة ربح ثلاثمائة دولار ؟ ان بعض الناس يظنون أن الزنجى ليس بعيدا من هنا ، وأنا واحدة منهم ولكنى لم أذع هذا الرأى . ومنذ أيام قليلة كنت أتحدث مع زوجين طاعنين فى السن يقيمان فى كوخ خشبى مجاور ، وقد اتفق أن قالا ان أحدا لا يذهب الى تلك الجزيرة التى يطلقون عليها اسم جزيرة جاكسون ، فسألتهما : « ألا يقيم بها أحد ؟ » . . . فأجابا : « كلا . . . لا أحد » . . . فلم أقل لهما شيئا آخر ولكننى فكرت فى الأمر مليا ، وكنت شبه واثقة من أننى رأيت دخانا يتصاعد من عند رأس الجزيرة قبل ذلك الحديث بيوم أو اثنين ، فتساءلت ألا يجوز أن يكون الزنجى مختبئا فى هذه الجزيرة وأن من الحكمة تفتيشها ؟ ولكنى لم أر دخانا بعد ذلك ، فلعله رحل عن الجزيرة اذا كان هو الذى أشعل النار فى تلك الليلة ، ولكن زوجى سيذهب لاستجلاء حقيقة الأمر ومعه رجل آخر . لقد ذهب الى النهر

ولكنه عاد اليوم فحدثته بما يساورنى من شكوك بمجرد عودته الى هنا منذ ساعتين .

وانتابنى القلق ، ولم أستطع أن ألزم الهدوء . وكان لابد لى من أن أفعل شيئاً بيدى ، فالتقطت ابرة من فوق المائدة ، وحاولت أن أدخل الخيط فى ثقبها . ولكن يدى كانتا ترتعشان فلم أوفق فيما حاولته . وعند ما كفت المرأة عن الكلام رفعت عينى اليها فألفيتها تتأملنى باهتمام وقد انفرجت شفاتها عن ابتسامة خفيفة ، فوضعت الابرّة والخيط فوق المنضدة وتظاهرت بالاصغاء الى حديثها ، وقلت :

— ان ثلاثمائة دولار مبلغ كبير . لكم أود لو تستطيع أُمى الحصول عليه ، هل سيذهب زوجك الى الجزيرة الليلة ؟

— أوه ... نعم لقد ذهب الى المدينة ومعه الرجل الذى حدثتك عنه للحصول على قارب ، ولمحاولة اقتراض بنديفة أخرى ... وسيذهبان الى الجزيرة عند منتصف الليل .

— ألا تكون الرؤية أوضح اذا انتظرا حتى مطلع النهار ؟

— نعم ، ولكن ألا يستطيع الزوجى أيضا أن يرى فى ضوء النهار أفضل مما يرى فى الليل ؟ ومن الأرجح أنه سيكون مستغرقا فى النوم بعد منتصف الليل ، ومن ثم ستتاح للرجلين فرصة أفضل لرؤية النار التى يشعلها الزوجى فى الظلام ان كان سيشعل نارا .

— ان ذلك لم يخطر ببالى .

واستمرت المرأة تتأملنى باهتمام ، فازداد قلقي .. وسرعان ما قالت :

— نسيت اسمك .. ما اسمك يا حبيبتى ؟

— م ... ماري ويليامز .

وخيل الى أننى لم أقل أن اسمى ماري فى المرة السابقة . ولذلك لم أنظر الى محدثتى ، وبدا لى اننى قلت ان اسمى ساره ،

ولهذا أدركت اننى أوقعت نفسي فى مازق حرج ، وختسيت أن
يفضحنى ارتباكى . وتمنيت لو استأنفت المرأة الحديث لأنها كلما
استغرقت فى الصمت زاد ذلك من قلقى وارتباكى .. وبعد قليل
قالت :

— لقد ذكرت لى يا حبيبتى أن اسمك سارة عند ما سألتك
عنه فى المرة السابقة .

— أوه ، نعم يا سيدتى .. أن اسمى ساره مارى ويليامز .
ان ساره هو اسمى الأول ، والبعض يطلقون على اسم سارة بينما
يطلق على البعض الآخر اسم مارى .

— أوه ... هذا معقول .

— نعم يا سيدتى .

وبدأت أشعر بشيء من الارتياح ، ولكنى تمنيت أن أتمكن من
الانصراف ، ولم أستطع أن أتطلع الى السيدة خشية افتضاح
أمرى .

واستأنفت السيدة الحديث ، فأخذت تردد أن الوقت عصيب
وأن الناس يعيشون فى فقر مدقع ، وأن الفئران تتجول فى الكوخ
كما لو كانت هى مالكته ، وهلم جرا .. وعندئذ عاودنى الارتياح ،
فقد كان ما قالتها السيدة عن الجرذان صحيحا لأننى رأيت جرذا
يبرز أنفه من جحر فى ركن الكوخ بين آونة وأخرى . وقالت انها
تضطر الى الاحتفاظ ببعض الأشياء لتقذفهم بها عند ما تكون
وحدها والا فانهم لن يجعلوها تشعر بسلام . وأمسكت بقضيب
من القصدير ملفوف على شكل أنشودة وقالت انها تجيد الرماية
به ولكن ذراعها التوى منذ يومين وانها لم تعد تعرف ان كانت
تجيد الرماية الآن أم لا ، وتترقب فرصة للتحقق من ذلك ...
وفى اللحظة التالية رفعت المرأة القضيب وقذفت الجرذ به ولكنها
أخطأته . وتأوهت لأن المجهود ألم ذراعها كثيرا .. وطلبت منى

أن أجرب اصابة الجرذ في المرة التالية ، ولكنى كنت أتلهف على الانصراف قبل أن يعود زوجها وان كنت لم أصارحها بذلك ، وأمسكت بالقضيب وما كاد أول جرذ يبرز أنفه حتى قذفته بالقضيب .. ولو أن الفأر لزم مكانه لأصيب ولكنه لم يفعل . وقالت المرأة اننى رامية ماهرة وانها تقترح على أن أحاول ذلك مرة أخرى ، ونهضت وأحضرت قضيب القصدير كما أحضرت « كرة » من الخيط وطلبت منى أن أساعدها في اعدادها لشغل الابرة ، فبسطت لها يدي فأخذت تلف الخيط حولهما ، ومضت تتحدث عن شئونها وشئون زوجها ، ثم قالت فجأة :

— راقبى الجرذان ! يحسن بك أن تضعى قطعة القصدير في حجرى !

ووضعت قطعة القصدير في حجرى ، وضممت فخذى حولها . واستمرت السيدة في الحديث ، ولكنها كفت عنه بعد لحظات . ثم حدقت في وجهى بعد أن انتزعت كرة الخيط ، وقالت بلطف :

— والآن أخبرينى ما اسمك الحقيقى ؟

— ماذا تقولين يا سيدتى ؟

— ما اسمك الحقيقى ؟ هل هو « بيل » أو « توم » أو « بوب » .. أو ماذا ؟

أكبر ظنى اننى انتفضت كريشة في مهب الريح ، ولم أدر ماذا أفعل ، ولكنى قلت :

— أرجوك ألا تسخرى من فتاة فقيرة يا سيدتى .. اذا كان وجودى يضايقك فاننى ..

— كلا .. كلا .. اجلس والتزم مكانك ، فاننى لن أسىء اليك ، كما اننى لن أفضح أمرى .. فقط اذكر لى شرك وثق بى فاننى سأكتمه ، بل وسأمد لك يد المساعدة ، كما سيساعدك زوجى أيضا اذا أردت مساعدته . انك غلام ضائع هارب .. وليس فى

ذلك موضع للمؤاخذه ؛ فقد اسيئت معاملتك فقررت الفرار ..
فليباركك الله أيها الصبي .. اننى لن أشى بك ، فهيا حدثنى
بأمرك أيها الغلام الطيب .

وأدركت أن من العبث أن أتمادى فى تمثيل دور الفتاة ، وأن من
الخير لى أن أفضى الى محدثى بالحقيقة كلها على شريطة ألا تتراجع
فى وعودها ، فقلت لها اننى يتيم مات أبى وأمى ، وأن القانون
ألزمنى بالاقامة مع فلاح كهل وضيع فى الريف على مبعدة ثلاثين
ميلا من الناحية الجنوبية للنهر ، وأن الفلاح أساء معاملتى فلم أعد
أطبق البقاء فى منزله فانتهزت فرصة غيابه عن المنزل لمدة يومين
وسرقت بعض ملابس ابنته القديمة وهربت . وقلت لها اننى
قطعت مسافة الثلاثين ميلا فى ثلاث ليال لأننى كنت أسير بالليل
وأختبئ وأنام بالنهار، أما الحقيبة المملوءة بالخبز واللحم التى أخذتها
معى من المنزل فقد كفتنى طوال الطريق ، وما زال معى طعام
كثير . وأضفت أننى اعتقد ان « آبنر مور » سوف يعنى بى ..
وهذا هو السبب فى اننى جئت الى مدينة « جوشن » هذه .

— « جوشن » !.. هذه ليست « جوشن » يا غلام .. انك
فى « سانت بيتر سبورج » .. ان « جوشن » على مسافة عشرة
أميال شمال النهر . من قال لك ان هذه هى مدينة « جوشن » ؟
— رجل قابلته فجر اليوم عند ما كنت أتهيأ لدخول الغابة
لأفوز بقسط من النوم .. لقد قال لى أن أسلك الطريق الأيمن
عندما أصل الى المكان الذى يتفرع عنده الطريق الذى كنت أتبعه ،
فلن ألبث أن أصل الى مدينة « جوشن » بعد خمسة أميال .

— أكبر ظنى أنه كان مخمورا ، فقد كان قوله خاطئا .

— حسنا ، لقد كان يتصرف كالمخمور ، ولكن لا بأس . ينبغى
أن أنصرف الآن حتى أستطيع أن أصل الى « جوشن » قبل
طلوع النهار .

- مهلا لحظة ، سأعد لك طعاما خفيفا ، فقد تحتاج اليه .
- وأعدت لى الطعام ثم قالت :
- أخبرنى .. عند ما ترقد البقرة فأى طرف من طرفيها يرتفع أولا ؟ أجب سريعا .. لا تتوقف ريثما تفكر فى الأمر ..
- أى الطرفين يرتفع أولا ؟
- الطرف الخلفى يا سيدتى .
- والجواد ؟
- الطرف الأمامى يا سيدتى .
- أى الجانبين من الشجرة يكون أكثر عرضة لنمو الطحالب عليه ؟
- الجانب الأيسر .
- اذا كانت خمس عترة بقرة ترعى الكلا فوق التل فكم عدد الأبقار التى تأكل ورؤسها فى اتجاه واحد ؟
- جميعها يا سيدتى .
- حسنا ، أظن أنك عشت فى الريف .. لقد خطر لى أنك تحاول تضليلى ثانية ، والآن ما اسمك الحقيقى ؟
- جورج بيترز يا سيدتى .
- حسنا ، حاول أن تتذكره يا جورج .. اياك أن تنساه ..
- لا تقل لى انه الكسندر قبل أن تنصرف ، ثم تحاول تغطية خطأك فتقول انه جورج الكسندر عند ما أوقع بك ! وثم لاتحاول خداع السيدات بارتداء هذا الثوب النسائى العتيق ، أنك تسيء تمثيل دور الفتيات ولكنك قد تخدع الرجال .. فليباركك الله أيها الغلام .. عند ما تحاول أن « تلضم » الابرة لا تثبت الخيط وتحرك الابرة لتدخله فى الثقب ، وانما ثبت الابرة وحاول ادخال الخيط فى الثقب ، فتلك هى الطريقة التى تتبعها المرأة فى أغلب الأحوال . أما الرجل ، فيعمل العكس . وعند ما تحاول اصابة

جرذ أو أى شىء آخر ، قف على أطراف أصابعك وارفع يدك فوق رأسك بارتباك بقدر ما تستطيع ثم اخطئ الهدف بحوالى ست أو سبع أقدام ، واجعل الرمية عنيفة من الكتف كما لو كان هناك محور يجب أن تدور حوله - فهذا ما تفعله الفتاة ، وليس من المعصم والمرفق وذراعك الى أحد الجانبين كما يفعل الغلام . . وتذكر أن الفتاة تفتح حجرها حينما تحاول أن تحتفظ بشىء فيه وأنها لا تضم فخذيها كما فعلت عند ما التقطت قطعة القصدير . لقد اكتشفت أمرك ، وعرفت أنك صبي عند ما كنت (تلضم) الابرّة . ولقد استنتجت الأشياء الأخرى للتأكد . . والآن اذهب الى عملك يا « سارة مارى ويليامز جورج الكسندر بيترز » ! وإذا صادفتك أية متاعب ، ابعث بكلمة الى السيدة « جوديت لوفتاس » التى هى أنا ، وسأبذل ما فى طاقتى لانقاذك من المتاعب . . اسلك طريق النهر باستمرار ، وعند ما تتجول فى المرة القادمة ارتد جوربا وحذاء لأن طريق النهر صخري فسوف تدمى قدماك قبل أن تصل الى « جوشن » .

وسرت فى طريق النهر حوالى خمسين ياردة ، ثم نكصت على عقبي وتسللت الى المكان الذى تركت قاربى فيه بالقرب من كوخ السيدة ووثبت بداخله وأطلقت على عجل ، وسرت مع التيار مسافة كافية فى اتجاه رأس الجزيرة ، ثم عبرت النهر ، وخلعت القبعة لأننى لم أكن بحاجة الى شىء يعوق قدرتى على الابصار . وعند ما توسطت النهر تقريبا سمعت ساعة تدق ، فتوقفت عن التجديف وأصخت السمع . ومع أن صوت دقات الساعة كان ضعيفا فانه بدا لى واضحا ، فعرفت أن الساعة الحادية عشرة ، وعند ما بلغت رأس الجزيرة ، دفعت القارب الى منطقة معسكرى القديم ، وأشعلت نارا كبيرة فوق مكان مرتفع جاف . ثم وثبت فى القارب ومضيت الى المنطقة التى نعسكر فيها

والتي تبعد ميلا ونصف ميل الى الجنوب بأسرع ما استطعت ،
ووثبت الى البر ، وركضت متسلقا التل حتى بلغت الكهف ،
فألفيت « جيم » مستغرقا في النوم على الأرض ، فأيقظته وقلت :
— انهض سريعا يا جيم ، فليست هناك دقيقة يحسن بنا ان
نضيعها ، لأنهم يطاردوننا .

ولم يستفسر « جيم » عن معنى قولي ، بل انه لم ينبس
ببنت شفة ، الا أن تصرفاته خلال النصف الساعة التالي أفسحت
لي عن مدى ذعره ، وفي تلك الاثناء كان كل شيء تملكه قد نقل الى
العائمة التي عثرنا عليها ، وكانت العائمة ذاتها معدة للابحار من
الفجوة التي أخفيناها فيها . وبادرنا فاطفأنا النار التي كانت
مشتعلة في معسكرنا كما أطفأنا جميع الشموع .

وأخرجت القارب بعيدا عن الشاطئ قليلا ، ثم ألقيت نظرة
حولى لأستوثق مما اذا كان هناك قارب آخر ، ولكنى لم أستطع
الرؤية لأن ضوء النجوم كان باهتا . ثم ركبنا العائمة على عجل
ومضينا بها متجهين نحو طرف الجزيرة بغير أن نتبادل كلمة
واحدة !

الفصل الثاني عشر

الملاحة البطيئة - اقتراض أشياء - الصعود
فوق الخطام - المتآمرون - أقوال ليست
من الأخلاق في شيء - البحث عن العائمة .

لا ريب أن الساعة كانت قد بلغت الواحدة عند ما وصلنا في
النهاية الى طرف الجزيرة ، وقد خيل الى أن العائمة تقطع النهر
ببطء . وكنا قد قررنا اذا ما رأينا قارباً مقبلاً نحو الجزيرة أن
نبادر بركوب قاربنا ونذهب به الى شاطئ « الينوى » . وكان
من حسن الحظ أن قارباً ما لم يأت . . وكنا قد نسينا أن نضع
البندقية أو السنانير أو أى شيء نطعم به في القارب ، لأننا كنا في عجلة
من أمرنا حتى أننا لم نجد متسعاً من الوقت للتفكير في أشياء كثيرة . .
حقاً ، لقد كان من خطر الرأي أن نضع كل شيء على العائمة !!
وبدأنا نفكر . . .

لو أن رجلين ذهبا الى الجزيرة ، فمما لا جدال فيه أنهما عثرا
على النار التي أوقدتها . . ومن المؤكد أنهما سيراقبانها طوال
الليل في انتظار عودة جيم ، وعلى كل حال ، فانهما سيبقيان
بعيدا عنا . أما اذا لم تخذعهما النار التي أشعلتها ، فلن يكون
الخطأ خطأى فقد بذلت قصارى جهدى لتضليلهما .
وعند ما بدأت خيوط النهار الأولى تظهر في السماء ، شددنا

العائمة الى انحاء كبير فى شاطيء « الينوى » وكسرنا بعض فروع
حطب القطن بالقادوم وغطينا العائمة بها حتى تبدو ككهف داخلى
فى الشاطيء .

وكانت على شاطيء الميسورى جبال ، كما كانت هناك اشجار
ضخمة كثيفة من ناحية « الينوى » . وكان مجرى الماء يتصل
بنهر الميسورى فى هذه المنطقة ، ومن ثم لم نشعر بأى خوف من
مقابلة أحد . وبقينا فى هذا المكان طوال النهار ، ورحنا نراقب
العائمات والقوارب البخارية وهى تمخر عباب اليم بجوار شاطيء
الميسورى بينما كانت البواخر الكبيرة تصارع اللجج فى قلب
النهر ، وحدثت جيم بكل ما دار بينى وبين السيدة ، فقال جيم
انها امرأة ذكية لبقة ؛ واذا كانت هى التى ستخرج لتعقبنا فانها
لن تجلس لتراقب نار المعسكر . . كلا يا سيدى ، انها ستستعين
بكلب . . فقلت : ولماذا لا تطلب من زوجها أن يبحث عن كلب ؟
فقال جيم انه يراهن أنها سوف تفكر فى ذلك عند ما يتاهب
الرجلان لرحلتهما ، وانه يعتقد انهما لا ريب قد ذهبا الى المدينة
للبحث عن كلب ، ولهذا أنفقا كثيرا من الوقت ، والا لما كنا فى هذا
المكان الذى يبعد ستة عشر أو سبعة عشر ميلا عن القرية ، ولكننا
الآن فى المدينة القديمة ذاتها ! ! فقلت ، اننى لا أعبأ بالسبب الذى
من أجله لم يستطيعا القبض علينا ما داما لم يقبضا علينا ! !

وعند ما بدأ الليل يرخى سدوله ، أخرجنا رأسينا من بين
أعواد القطن الكثيفة وتطلعنا أمامنا فلم نر شيئا على مرمى البصر .
والتقط جيم بعض الألواح الخشبية من فوق العائمة ، وأنشأ كوخا
هنديا مريحا لكى نلوذ به من القیظ والمطر ، ونحتفظ فيه بأممتعتنا
جافة ، ولقد صنع جيم « أرضية » للكوخ رفعها قدما أو أكثر
فوق سطح العائمة ؛ وهكذا أصبحت البطاطين وجميع الأمتعة
بعيدة عن متناول الرشاش المتطاير بسبب مرور البواخر .

ووضعنا طبقة من الطين يتراوح سمكها بين خمس بوصات وست بوصات وجعلنا حولها اطارا يثبتها في مكانها ، لنشعل فوقها نارا عند ما يكون الطقس باردا . وكان الكوخ كفيلا بحجب هذه النار عن العيون ، وصنعنا مجدافا اضافيا خشية أن يتحطم مجداف من مجدافينا . وأعدنا عصا قصيرة ثبتناها في الكوخ لنعلق المصباح فوقها ، اذ كان يتعين علينا أن نوقد المصباح كلما رأينا باخرة مقبلة نحونا خشية أن ترتطم بنا ، ولكننا قررنا ألا نضيئه اذا اقتربت منا القوارب العادية اللهم الا اذا كان هناك خطر من اصطدامها بنا .

وفي الليلة الثانية ظللنا نسير زهاء سبع ساعات أو ثمان ساعات في تيار سرعته أكثر من أربعة أميال في الساعة وقطعنا الوقت في صيد السمك والحديث ، كما كنا نستحم بين الحين والحين لنبعد النوم عن جفوننا ، وكانت رحلتنا هذه نوعا من الانسياق السهل مع التيار فوق صفحة ماء النهر الهادىء . ولقد تمددنا فوق ظهورنا وأخذنا نتطلع الى النجوم ولم نشعر بأى رغبة في الكلام بصوت مرتفع ، كما أننا لم نكثر من الضحك ، وإنما كنا نقهقه بصوت منخفض ، وكان الطقس لطيفا بصفة عامة ولم يقع لنا أى حادث في تلك الليلة أو الليلة التى تلتها أو التى جاءت بعدها .

وكنا نمر بالمدن فى كل ليلة ، وكان بعضها بعيدا فوق جوانب التلال السوداء حيث كانت تبدو كفراش لامع من الأضواء ، ولكننا لم نستطع أن نرى أى منزل من منازل هذه المدن . وفى الليلة الخامسة مررنا بمدينة سانت لويس وكانت أشبه بعالم كامل مضىء . ولقد سمعناهم فى « سانت بيترسبرج » يقولون أن سكان « سانت لويس » يبلغون عددا يتراوح بين عشرين ألف و ثلاثين ألف نسمة ، ولكنى لم أصدق ذلك حتى رأيت ذلك الانتشار المدهش للأضواء

فى الساعة الثانية صباحا من تلك الليلة الهادئة . ولم يكن يرتفع من المدينة أى صوت ، لأن جميع من فيها كانوا نياما .

وكنى اتسلل الى التساطع حوالى الساعة العاشرة كل ليلة ، فأمضى الى أقرب قرية لأبتاع منها طعاما ولحما أو أية مأكولات أخرى فى حدود عشرة سنتات أو خمسة عشر سنتا ، وكنى أسرق أحيانا دجاجة أصادفها فى طريقى ، فطالما قال لى أبى انه لا بأس من أن أسرق دجاجة كلما أتيت لى فرصة ، لأننى ان لم أكن بحاجة اليها فان هناك من هو بحاجة اليها ، والصنيع لا يمكن أن ينسى ، ولكننى لم أر أبى فى غير حاجة الى دجاجة مطلقا . . غير أن هذا هو ما كان يقوله على أية حال !! . . . ولكننى بعد أن كبرت استنكرت أمر السرقة أيا كان سببها ، ووددت لو كان هناك طريقة أستطيع بها رد ما سرقت الى أصحابه تكفيرا عن ذنبى . . ولكن كيف ؟ . . . واأسفاه . . !!

وفى صباح بعض الأيام ، كنت أتسلل الى حقول القمح و « اقترض » بطيخة أو شماعة أو بعض حبوب القمح أو أشياء من هذا القبيل ! فقد كان أبى يقول ألا ضرر على الانسان اذا « اقترض » بعض الأشياء ما دام فى نيته دفع ثمنها فى أحد الأيام ! ولكن الأرملة كانت تقول ان ذلك ليس الا (مظهرا) مخففا لجريمة السرقة ، وهو ما لا يقبل الانسان الشريف الاقدام عليه . ولقد قال جيم انه يعتقد أن الأرملة صادقة الى حد ما وأن أبى صادق الى حد ما أيضا ! . . . ولذلك فان أحسن طريقة يمكننا أن نتبعها هى أن نختار شيئين أو ثلاثة أشياء من القائمة ونقول اننا لن نقترضها ! ثم قال انه لا ضرر علينا بعد ذلك اذا اقترضنا بقية الأشياء ! وهكذا ، قضينا ليلة كاملة فى مناقشة هذا الموضوع ، والعائلة تنساب بنا فوق صفحة الماء ، ونحن نحاول أن نستقر على رأى فيما اذا كان علينا أن نلقى بالبطيخة أو بالشامة أو بغيرهما فى

اليم . وعند ما بدأ انبثاق الفجر كنا قد حزمنا أمرنا بشكل يدعو للارتياح ، فقررنا القاء التفاح ولون آخر من الفاكهة في اليم ، وكنا نشعر بعدم الارتياح قبل أن نتخذ هذا القرار ، ولكن ما ان اتخذناه ونفذناه حتى أحسنا بالراحة . ولقد سرني أن الأمر انتهى على هذا النحو لأن التفاح والنوع الآخر من الفاكهة كانا فجين غير مستساغى الطعم ؛ ولأن « السرقة » أمر تعافه النفس السريفة مهما كان سببها !

وكنا نصطاد دجاجة مائية بين الحين والحين ، كلما وجدنا واحدة استيقظت مبكرة أو تأخرت عن النوم في الليل . وصفوة القول ، ان حياتنا في تلك الفترة كانت تبعث على الارتياح . وفي الليلة الخامسة بعد مرورنا بمدينة « سانت لويس » هبت علينا عاصفة عاتية بعد منتصف الليل صحبها رعد وبرق شديدان، وانهمر المطر بغزارة ، فلزمنا الكوخ الهندى وتركنا العائمة وشأنها ! ولكن عند ما ومض البرق استطعنا أن نرى نهرا كبيرا مستقيما أمامنا وكتلا صخرية على الجانبين . وبعد قليل قلت « هالو جيم . . . انظر هناك ! » كانت هناك باخرة قد تحطمت على الصخور ، وكنا نتقدم حثيثا نحوها ، وقد أظهرها البرق بوضوح شديد . كانت مائلة على جانبها وما زال جزء من سطحها العلوى بارزا فوق الماء بحيث كان يمكن رؤية كل ما فوقه بوضوح .

وكان الظلام دامسا ، كما كانت العاصفة عاتية ، وكل ما يحيط بالباخرة محوطا بالغموض ، فانتابنى ذلك الاحساس الذى يسيطر على غلام مثلى يرى حطام سفينة مائلة على جانبها وحيدة حزينة فى وسط النهر . . . وكنت أريد الصعود على ظهرها وارتياده قليلا لأرى ماذا هناك . ولذلك قلت :

— دعنا نصعد الى ظهرها. يا جيم .

ولكن جيم عارض قولى هذا بشدة فى بادئ الأمر ثم قال :

— اننى لا أريد العبث فى سفينة غارقة . دعنا نبيع تعاليم الكتاب المقدس فلا نفعل ما يستوجب المؤاخذه . نعم انه من المحتمل جدا أن يكون هناك حارس فى هذه السفينة الغارقة .

فقلت : لعنة الله على الحارس . ليس هناك ما يستحق الحراسة، فهل تظن أن هناك شخصا غيبيا يقبل البقاء على ظهر سفينة غارقة فى ليلة كهذه يحتمل أن تهوى الباخرة فيها الى الأعماق فى أية لحظة؟ ولم يستطع جيم الرد على هذا القول ، فاسنطردت :

— وعلاوة على ذلك ، فانا قد « نستعير » شيئا ذا قيمة من حجرة الربان . . . أراهنك أننا سنجد به مجموعة من السيجار . . ان كل واحد منها يساوى خمسة سنتات . كما أن ربابنة البواخر يكونون أنرياء دائما ويحصل الواحد منهم على مرتب يقدر بستين دولارا شهريا ، ولهذا فانهم لا يهتمون بسعر أى شىء يريدونه . ضع شمعة فى جيبك يا جيم ، فلن يهدأ لى بال حتى استكشف هذه الباخرة الغارقة . هل تظن أن « توم سوير » كان يدع مثل هذه الفرصة تفلت منه ؟ لست أظن انه يفعل ذلك حتى لو عرضت عليه فطيرة لذيذة ! انه يطلق على هذا العمل اسم مغامرة ، وليس من شك فى انه ماكان ليتردد فى الصعود على ظهر الباخرة الغارقة ولو كان ذلك آخر عمل يؤديه فى حياته . . . بل انه يتكرر فى مغامراته هذه . لكم أود لو قدم توم سوير الى هنا .

وتذمر جيم قليلا ، ولكنه استسلم فى النهاية قائلا أنه يجدر بنا ألا نتكلم أكثر من القدر اللازم ، وأن يكون كلامنا بصوت منخفض جدا ، ولمع البرق فى تلك اللحظة فكشف لنا عن الباخرة الغارقة مرة أخرى ، وكان ذلك فى الوقت المناسب فقد أثار لنا السبيل الذى يجدر بنا أن نسلكه ، فقصدناه على عجل .

كان سطح الباخرة عاليا ، فأخذنا نزحف هابطين المنحدر نحو يسارها متحسسين طريقنا فى الظلام بأيدينا وأقدامنا لكى لا نتعثر

في السلاسل والجبال في الظلام . وسرعان ما بلغنا الجانب الأمامي ،
وعشرنا على فجوة في سطح السفينة ، فهبطنا منها . وبعد لحظات
كنا نقف أمام غرفة الربان . وكان الباب مفتوحا . وشد ما كانت
دهشتنا حينما رأينا من خلال باب آخر في غرفة الربان ، نورا
مضيئا في بهو الباخرة كما سمعنا أصواتا تتصاعد منها .

وهمس جيم قائلا انه يشعر برعب قاتل ، وطلب مني أن نعود
ادراجنا من حيث أتينا ، فوافقته على ذلك في بادئ الأمر ، ولكني
ما لبثت أن سمعت صوتا يولول قائلا :

— أولا ، أرجوكم أيها الفتيان ! أقسم لكم أننى لن أبوح بالسر
ما حييت .

وعندئذ قال رجل بصوت أكثر ارتفاعا :

— هذا كذب يا جيم تيرنر . . لقد مثلت هذا الدور من قبل ،
وانك تطالب دائما بأكثر من حصتك من الفئمة ، وكنت تحصل
دائما على ما تريد بمجرد التهديد بأنك ستبوح بالسر . ولكنك
تماذيت في ذلك هذه المرة ، انك أدنا وأسفل كلب في البلاد .

في هذا الوقت كان جيم (الزنجي) قد عاد الى العائمة ، أما أنا
فكنت أشعر بأشد اللفة ، وقلت لنفسى ان « توم سوير » ما كان
ليترجع في موقف كهذا ، ومن ثم فلن أترجع أنا أيضا ، وسأضئ
في مغامرتى لأرى ماذا يحدث هنا ، وأسرع أجثو على ركبتى
ويدي في الممر الضيق ، وزحفت الى الأمام في الظلام حتى لم يبق
بينى وبين الردهة غير غرفة الجلوس . وعندئذ رأيت رجلا ممددا
على الأرض وهو متسدود اليدين والقدمين ، بينما وقف أمامه
رجلان كان يحمل أحدهما مصباحا ضعيف الضوء بينما كان الثانى
يشهر مسدسا . وكان الأخير يسدد فوهة مسدسه نحو رأس
الرجل الممدد على الأرض ، ويقول :

— بودى ان ألهب رأسك بالرصاص ؛ بل ان ذلك فرض على أيها الخائن الحقير .

فانكمش الأسير على نفسه وقال : أوه . أرجوك ألا تفعل يا « بيل » ، اننى لن أشى بكم اطلاقا .

وكان كلما نطق الأسير بهذه العبارة انفجر حامل المصباح ضاحكا وهو يقول :

— ألم تفعل ؟ لم يسبق ان قلت شيئا أصدق من ذلك . . . واستطرد حامل المصباح ؛ أسمعته يسنجدى ؟ لو اننا لم نشدد وثاقه لقتلنا . . . فلماذا ؟ لأننا طالبناه بحقوقنا . . . هذا هو السبب ، ولكنى أؤكد لك يا جيم تيرنر انك لن تهدد انسانا بعد الآن . . . ارفع هذا المسدس يا « بيل » .

فقال بيل : كلا يا جاك باكارد . . . اننى افضل قتله . ألم يقتل هاتفيلد العجوز بنفس الطريقة . . . فهلا يستحق الموت ؟ . . . فقال « جاك باكارد » هذا : ولكنى لا أريد قتله لأن لدى من الأسباب ما يحملنى على ذلك . . .

فقال الرجل الممدد على الأرض بصوت بغص بالدموع :
— فليباركك الله على هذه الكلمات يا جاك باكارد ، اننى لن أنساها ما حييت .

ولم يلق « باكارد » بالا لهذه الكلمات ، وإنما تقدم فى انجابهى نحو الظلام ثم أشار لبيل أن يلحق به ، فبادرت بالتراجع بأسرع ما فى طاقتى ، وأمكنتى الابتعاد نحو ياردتين ، ولكن السفينة تمايلت فى تلك اللحظة فلم أستطع المضى فى التقهقر ، ولكى أتجنب اصطدام الرجل القادم بى وافتضح أمرى ، اضطررت الى الزحف نحو غرفة الجلوس على الجانب العلوى . وأقبل باكارد سائرا فى الظلام . وعند ما دخل الغرفة التى كنت فيها قال :

— هنا . . . تعال هنا !

ودخل . ثم دخل « بيل » فى أعقابيه ، ولكنى بادرت ، قبل دخولهما ، بالصعود الى سرير بأعلى الغرفة ، وأنا جد آسف على اننى جئت . ووقف الرجلان بداخل الغرفة وأبديهما على حافة السرير ، وراحا يتكلمان . . ومع اننى لم أستطع رؤيتهما ، فقد كان فى استطاعتى أن أعرف أين كانا يقفان بفضل رائحة الخمر التى كانت تنبعث من فمهما . ولكم سرنى اننى لا أشرب الخمر ، والا لكان فى استطاعتهما أن يكتشفا امرى .

قال « بيل » :

— لقد هددنا بالوشاية ، ولا شك فى انه سيفعل ذلك . وحتى اذا تنازلنا له عن حقنا ، فان ذلك لن يغير من الأمر شيئاً بعد المشاجرة التى نتسببت بينها وبينه والمعاملة التى لقيها على يدينا . وانى أؤكد لك انه سوف ينقلب شاهد ملك ضدنا . . فهل تدرك ما أقول ؟ اننى أفضل اراحته من متاعبه !!
فقال « باكارد » بهدوء : وكذلك انا .

عندئذ قال « بيل » :

— يا للعنة ، لقد ساورتنى الريبة فى الأمر ، وظننت انك لاتريد التخلص منه . . هذا حسن اذن . . هلم بنا لنضع حدا للموقف .
— مهلا لحظة ، فاننى لم أفرغ من كلامى بعد . . واضع الى : ان قتله رميا بالرصاص لا غبار عليه ، الا أن هناك وسائل أكثر هدوءا اذا لم يكن مفر من التخلص منه . أما ما أريد قوله فهو انه ليس من الحكمة أن تقدم على عمل طائش لتحقيق أحد مآربك ما دامت هناك وسيلة أخرى تحقق لك هذا المآرب ولا تعرضك للمجازفة . . ألا توافقنى على هذا الراى ؟

— نعم . . لكن كيف ستحقق غايتك هذه المرة ؟ .

— حسبنا . . اليك راى . . أرى أن نبادر الآن بجمع كل ما نستطيع جمعه من غرف الباخرة ووضعه فى الصندوق الكبير ،

ثم ننقله الى الشاطئ ونخبئه هناك . ثم ننتظر .. فاننى اعتقد
أن هذه الباخرة سوف تتحطم وتهوى الى قاع النهر فى خلال
ساعتين على الأكثر . فهل فهمت ؟ سوف يفرق الرجل ، وإن
يلازم أحد على ذلك الا هو . وأكبر ظنى أن ذلك أفضل جدا من
اقدامنا على قتله .. اننى لا أوافق على قتل أى رجل ما دام
فى الامكان التخلص منه بطريقة أخرى ، لأن ذلك ليس من الحكمة
أو الأخلاق فى شىء .. أليس ذلك صحيحا ؟

— نعم ، أظن أنك على حق .. لكن لنفرض أن الباخرة لم
تتحطم وتغرق ؟

— حسنا .. علينا أن ننتظر ساعتين على كل حال وسترى
النتيجة بنفسك !

— لا بأس .. هلم بنا .

ثم غادر الرجلان الغرفة ، فهبطت من فوق الفراش وأنا غارق
فى العرق البارد وزحفت فى الظلام الدامس . ثم همست بصوت
مبحوح : جيم .

وعند ما رد على بما يشبه آهة صادرة من جانبه ، قلت له :
— اسرع يا جيم ، فليس هناك وقت نضيعه فى التلكؤ والتأوه ،
فإن هنا عصابة من القتلة فاذا لم نستول على قاربها ونبعده عن
الباخرة بحيث لا يستطيع القتلة الابتعاد عن حطام الباخرة ، فإن
شخصا سيموت ، أما اذا عثرنا على قارب القتلة فأننا نستطيع
أن نوقعهم جميعا فى مأزق ، لأن العمدة سوف يقبض عليهم ..
أسرع .. أسرع .

— سأمضى الى مقدم السفينة وامض أنت الى مؤخرها ثم
اهبط الى العائمة و ...

— أواه ياربى .. أواه .. العائمة .. أين العائمة ؟ .. لقد قطع الحبل
الذى يشدها الى الباخرة ، فانطلقت على رسلها ، وهانحن فى موقف خطير .

الفصل الثالث عشر

الهرب من حطام الباخرة -
الحارس - الفرق - نوم عميق .

شهقت وكدت أفقد وعيى .. فهنا نحن سجينان فى حطام
باخرة غارقة مع عصابة مخيفة . وأصبح لزاما علينا أن نغتر على
قارب العصابة وأن نستولى عليه لأنفسنا . ومن تم بدأنا نتقدم
نحو حاجز الباخرة ونحن ننتفض من الخوف . وكان تقدمنا
بطيئا جدا ، حتى لقد خيل إلينا أن أسبوعا قد انقضى قبل أن
نصل الى الحاجز . ولكننا لم نجد أثرا للقارب ، وقال جيم انه
لا يستطيع أن يتقدم أكثر من ذلك وأن الفرع قد شل قواه
وحركته . ولكنى رحت أحثه على التقدم لأننا اذا تركنا فى الباخرة
فسنصبح فى مأزق خطير . فاضطر جيم الى الزحف ثانية ،
وبلغنا جانب السطح العلوى ، فأخذنا نهبط منه الى الجانب
الأسفل ، ورحنا نزحف ببطء حتى بلغنا مستوى الماء ، وشد
ما كان سرورى عند ما رأيت القارب أمامى ، وأدركت أننى لن
ألبث أن أثب إليه بعد لحظة ، ولكن فجأة فتح باب فى تلك اللحظة ،
وأبرز أحد الرجلين رأسه منه . ولم تكن المسافة التى تفصله
عننى تزيد على قدمين ، فخيّل الى اننى من الهالكين ، ولكنه
استدار على عقبه وقال :

— اخف هذا المصباح اللعين عن العيون يا « بيل » .
ثم ألقى بحقيبة مملوءة في القارب وهبط إليه ثم جلس . .
كان هذا الرجل هو باكارد . ثم هبط « بيل » الى القارب بدوره ،
فقال باكارد بصوت منخفض : .

— ان كل شيء على ما يرام . . اطلق القارب .
ولم أستطع التعلق بالنافذة لأننى أحسست بضعف شديد . .
ثم قال « بيل » لرفيقه :
— انتظر . . هل فتشته ؟
— لا ، هل فتشته انت ؟

— لا . . اذن ، فهو لا يزال يحتفظ بحصته من النقود .
— حسنا . . تعال بنا ، لا جدوى من أن نذهب بالصندوق.
ونترك النقود معه .

— اخبرنى . ألا يتير ذلك ريبته فيما نعتزمه ؟
— ربما لا يرتاب . . لكن مهما يكن من أمر ، يجب أن نحصل
على النقود فهل بنا .

وغادر الرجلان القارب وعادا أدراجهما الى الباخرة .
وأغلقا باب الغرفة خلفهما . وفي اللحظة التالية ، كنت في
القارب ، ولحق جيم بى وهو يتعثر ، وأسرعت أخرج مديتى
وقطعت الحبل ، فانطلق القارب مبتعدا بنا عن الباخرة .
ولم نلمس المجاديف . . كذلك لم نتكلم أو حتى نتهامس ، بل
اننا لم نتنفس . . وانساب القارب فوق صفحة الماء بسرعة
وسكون . وبعد لحظة أو اثنتين كان القارب قد ابتعد أكثر من
مائة ياردة عن مقدم الباخرة ، وابتلعه الظلام . وهكذا أصبحنا
آمنين . .

وعندما أصبحت المسافة التى تفصلنا عن الباخرة حوالى
ثلثمائة أو أربعمائة ياردة ، رأينا نور المصباح وكأنه نقطة من

الضوء تبرز من باب غرفة ربان الباخرة ، ولكن هذا الضوء اختفى فجأة ، فأدركنا أن النسقيين اكتشفا أن القارب قد اختفى ، وأنهما بدأ يدركان أنهما وقعا في نفس المأزق الذي وقع فيه «جين تيرنر» ! وعندئذ بدأ جيم يستخدم المجذافين ، وبدأنا نبحث عن عائمتنا . وكانت تلك أول مرة أشعر فيها بالقلق على هؤلاء الرجال . . وأكبر ظني أن الوقت لم يتسع لى من قبل للأسف عليهم . . بدأت أفكر في أنه من المؤلم أن يقف انسان مثل هذا الموقف الرهيب حتى لو كان قاتلا . وقلت لنفسي اننى سأصبح قاتلا بدورى اذا تركتهم يغرقون ، فهل تزانى ارتضى لنفسي ذلك ؟ وقلت لجيم انه يحسن بنا أن نهبط الى البر على مبعدة مائة ياردة من أول نور تقع أعيننا عليه ، بشرط أن نعثر على مكان يصلح لاختبائنا واخفاء القارب ، ثم أذهب وأحاول حث أحد الأشخاص على انقاذ العصابة من « ورطتها » حتى يمكن شنق أفرادها في الوقت المناسب !

ولكن هذه الفكرة لم يقدر لها أن تنفذ . . فقد بدأت العاصفة تهب من جديد ، وكانت هذه المرة أعنف من ذى قبل ، بينما انهمر المطر بغزارة شديدة ، ولم أر نورا في النوافذ ، فأيقنت أن جميع من في المدن قد آووا الى فراشهم !! وانساب القارب بنا فوق صفحة الماء ونحن نبحث عن الضوء ، وعن عائمتنا أيضا . وبعد فترة طويلة توقف المطر ولكن السحب بقيت تظلل صفحة الماء ، وأخذ البرق يلمع ؛ وفي احدى ومضات البرق رأينا شيئا مظلما يسبح أمامنا ، فاتجهنا نحوه .

كان هذا الشيء السابح هو عائمتنا ، فغمرنا الفرح عند ما صعدنا اليها مرة أخرى ، ورأينا نورا في تلك اللحظة . وكان هذا النور منبعثا من بعيد على الشاطئ فقررت أن أكتشف مصدره . وكان القارب مملوءا الى منتصفه بالمسروقات التى استولت

العصابة عليها ، فطلبت الى جيم أن يوجه العائمة في اتجاه الضوء ، وأن يوقد مصباح العائمة عند ما يعتقد أننا قطعنا ميلين ، وأن يترك المصباح مضاء حتى أعود . ثم هبطت الى القارب ، والتقطت المجذافين وبدأت أضرب بهما صفحة الماء في طريقى نحو الضوء . وعند ما اقتربت منه ، ظهرت لى ثلاثة أو أربعة أضواء أخرى على جانب التل . فادركت أن أمامى قرية . ووجهت القارب الى الشاطئ ، وكففت عن التجديف ، وتركت القارب ينساب مع التيار . وبينما أنا اقترب من الضوء لاحظت أنه ينبعث من مصباح معلق فى حامل (معدية) ذات سطحين . واقتربت من القارب لكى يرانى الحارس ، وأنا أتساءل أين ينام . ولم ألبث أن رأيته جاثما عند مقدم المعدية وقد وضع رأسه بين ركبتيه فهززته من كتفه مرتين أو ثلاث مرات وبدأت أصرخ فى وجهه !

وتحرك الرجل بطريقة تنم عن الفزع . وعند ما رآنى تغطى وتناوب ، ثم قال :

— هالو .. ماذا هناك ؟ لا تصرخ يا طفل ؟ ما هى منسكلتك ؟

فأجبت : والدى ، ووالدتى وأختى ، و ...

وتوقفت عن الكلام ، فقال :

— أوه . كفى حزنا يا فتى ، فان لنا جميعا متاعبنا ، ولسوف

ينتهى كل شىء على ما يرام .. ماذا حدث لهم ؟

— انهم .. انهم .. هل أنت حارس المعدية ؟

فقال بلهجة تشف عن الارتياح : نعم .. أننى ربانها وصاحبها

وضابطها ومرشدها وحارسها وكبير بحارتها ، وأحيانا أكون

الحمولة والركاب ! .. اننى لست ثريا مثل جيم هوربنالك ، كما

اننى لا أستطيع أن أكون كريما وطيبا مثله مع توم وديك وهارى

وأن أبعثر النقود حيثما اتفق كما يفعل ، ومع ذلك قلت له مرات

كثيرة اننى لا أقبل أن أبادله مركزه لأننى أعتقد أن حياة البحار

هى الحياة التى تصلح لى أنا ، لأننى لا أطيق حياة المدنية و . . .
فقاطعته قائلا : انهم فى موقف خطير و . . .

— من هم ؟

— أبى وأمى وأختى والآنسة هوكر ، فاذا ذهبت بالمعدية الى
هناك . . .

— الى أين ؟ أين هم ؟

— فى الباخرة الغارقة .

— أية باخرة غارقة ؟

— ماذا تعنى ؟ هناك باخرة واحدة . . ألا تعرفها ؟

— ماذا تقول ؟ لا أظنك تعنى باخرة والتر سكوت ؟

— نعم . . . انها هى .

— يا الهى ، وماذا يفعلون هناك بحق السماء ؟

— حسنا ، انهم لا يفعلون شيئا !

— يا الهى . . اعتقد انه ، لن تكون أمامهم فرصة للحياة الا اذا

أنقذهم أحد . . لكن كيف اتفق أن ذهبوا الى هذا الحطام ؟ .

— هذا أمر سهل . . كانت الآنسة هوكر تزورهم فى المدينة و . . .

— نعم . . وذهبت الى مرسى بوث . . ثم ماذا ؟ استمر !

— كانت فى زيارة بالقرب من مرسى بوث . وعند ما بدأ الظلام

يرخى سدوله ركبت ومعهما خادمتها الزنجية معدية لتقضى ليلتها

فى منزل صديقتها الآنسة التى لا أتذكر اسمها الآن ، ولكنهم

فقدوا المجداف الذى كانوا يستعينون به فى تحديد اتجاه المعدية ،

فدارت المعدية حول نفسها واندفعت مع التيار بمؤخرها الى أن

قطعت حوالى ميلين وارتطمت بحطام السفينة ، ففرق بحار

المعدية والخادمة الزنجية ، أما الآنسة هوكر فقد جاهدت باصرار

حتى استطاعت الصعود الى حطام الباخرة ، وبعد ساعة من حلول

الظلام جئنا بنقالتنا البخارية . وكان الظلام حالكا ، فلم نر حطام

السفينة الفارقة الا عند ما أصبحنا أمامه مباشرة ، ثم ارتطمنا به ولكننا نجونا جميعا عدا بيل هوبيل . . . أوه . لقد كان أحسن ملاح . . لكم كنت أود أن أغرق أنا وأن ينجو هو !

— ياإلهى ، ان هذا أسوأ نيا سمعته . . لكن ماذا فعلتم جميعا ؟
— حسنا ، لقد علا صياحنا ، وتشبثنا بالحطام ، ولكن لما كانت الباخرة كبيرة ، فان أحدا لم يسمعنا . فقال أبى انه لا بد من أن يذهب أحدها الى الشاطئء فى طلب المساعدة ، وكنت أنا الوحيد الذى يستطيع السباحة ، فألقيت بنفسى فى اليم . أما الآنسة هوكر فقالت لى اننى اذا لم أستطع الحصول على النجدة سريعا فان على أن آتى الى هنا للبحث عن عمها ، فهو الكفيل بوضع الأمور فى نصابها ! ولقد وصلت الى الشاطئء على مسافة ميل من هنا ، وحاولت أن أحث الناس على أن يفعلوا شيئا ولكنهم قالوا : « ماذا تريد منا أن نفعل فى مثل هذه الليلة وهذا التيار ؟ ان ذلك غير معقول ، اذهب الى المعديفة البخارية . . فاذا ذهبت و . . .

— يا إلهى ، لكم أود أن أفعل ذلك ، لكن من الذى سيدفع لى أجرى ؟ هل تظن أن أباك . .

— نعم . . لقد قالت لى الآنسة هوكر ان عمها هو «هوربنالك» . .
— يا للسماء ! هل هو عمها ؟ اصغ إلى ، امض الى هذا الضوء الذى تراه ، ثم انعطف غربا عند ما تصل اليه ، فهناك حانة على مبعدة ربع ميل تقريبا ، وعند ما تبلغها قل لمن فيها أن يذهبوا بك الى منزل « جيم هوربنالك » ، ولكن لا تتسكع بعد ذلك لأن الرجل متلهف ولا شك على معرفة الأنباء ! قل له اننى سأنقذ ابنة أخيه والجميع قبل أن يصل الى المدينة ! اسرع يا فتى .
وانطلقت فى اتجاه الضوء ، ولكننى ما كدت أنثنى فى المنعطف حتى عدت أدراجى الى قاربى وانطلقت به فى الماء الهادىء حوالى

ستمائة ياردة ثم دخل بقاربى بين مجموعة من القوارب الخشبية
لأننى كنت أريد ان اتأكد من أن المعديّة تنطلق نحو حطام الباخرة .
وعلى أية حال ، فقد شعرت بارتياح كبير لأننى تجشمت كل هذا
العناء لانقاذ أولئك الرجال ، فما كان كيرون يفعلون ما فعلت .
ولكم تمنيت لو عرفت الأرملة ، بما فعلت ، ورجحت أنها كانت
ستفخر بى لأننى سبطت يد المعونة لهؤلاء الناس رغم أنهم أشرار ،
فلأشرار هم الذين تهتم الأرملة والأخيار بهم أعظم اهتمام .

ولم بمض وقت طويل ، قبل ان أرى حطام الباخرة على شكل
كومة مظلمة تنزلق الى أسفل . وأحسست برعشة باردة تسرى
فى جسدى ! . . . كانت الباخرة تفوس بسرعة ، فأيقنت أنه ما ان
تمضى دقيقة واحدة حتى يفقد جميع من فيها حياتهم ، ودرت
حول الباخرة الفارقة وصحت قليلا ، ولكنى لم أتلّق رداً على
صياحى ، كان كل شيء هادئاً تماماً ، فشعرت بقلبى يفوص بين
جنبى خوفاً على ركبائها ، ولكن خوفى لم يكن طاغياً !

ثم افبلت المعديّة ، ومضيت الى منتصف النهر . وعند ما
قدرت اننى أصبحت بعيداً عن مرمى البصر ، تركت مجدافى وتطلعت
خلفى فرايت المعديّة تدور حول الباخرة الفارقة بحثاً عن بقايا
الأنسنة هوكر ، التى كان الربان يعتقد أن عمها « هوربناك » ،
يرغب فى الحصول على هذه البقايا (الجثة) ! وبعد قليل تخلت
المعديّة عن المحاولة وعادت الى الشاطئ ، أما أنا فقد انطلقت
فى عرض النهر . .

وخيل الى أن وقتاً طويلاً قد مضى قبل أن يشعل جيم
مصباحه ، وعند ما ظهر النور خيل الى أنه صادر من على بعد
ألف ميل . وعند ما وصلت الى مكان عائمتنا ، كان ضوء النهار
قد بدأ ينبثق من الشرق . فاتجهنا صوب احدى الجزائر وأخفينا
العائمة ، وأغرقنا القارب ، ثم ذهبنا لننام كالموتى ! !

الفصل الرابع عشر

وقت طيب بصفة عامة ! -
الحریم ! - اللغة الفرنسية .

عند ما استيقظنا من النوم ، تفحصنا محتويات الصندوق الذى سرقتة العصابة من الباخرة الفارقة ، فعثرنا فيه على أحذية وبطاطين وملابس وأشياء أخرى متنوعة وكمية من الكتب ونظارة مكبرة وثلاث علب من السيجار الفاخر . . وقضينا النهار كله راكدين فى الغاب ونحن نتحدث حيناً ثم انصرف الى قراءة الكتب حيناً آخر ، وهكذا قضينا وقتاً طيباً بصفة عامة ، وحدثت جيم بما دار داخل الباخرة الفارقة ، وقلت له ان ما فعلته كان من أعمال المغامرات ! فقال انه ليس بحاجة الى مزيد من المغامرات ، وانه عند ما زحفت أنا عائداً الى بهو الباخرة ، وزحف هو عائداً الى العائمة نم تبين انها اختفت ، كاد يموت خوفاً ، لأنه اعتقد أن كل شيء قد انتهى بالنسبة اليه ، فاذا لم ينقذ فانه سيموت غرقاً ، واذا أنقذ فان منقذه سوف يعيده الى المدينة ليحصل على المكافأة ، وعندئذ تبيعه الآنسة واطسون لتاجر الرقيق ! ولقد كان جيم على حق فيما قال ، بل انه على حق دائماً ، لأنه يتمتع بعقل متزن لا يتمتع به عادة أى زنجى. آخر !

وقرأت لجيم كثيراً عن الملوك واللوردات وثيابهم الموشاة

المزركشة ، واسرافهم فى التكلف ، وكيف انهم ينساون أحدهم الآخر « يا صاحب الجلالة » ، و « يا صاحب السمو » ، و « يا صاحب السعادة » وهلم جرا بدلا من « يا سيد » فبرزت عينا جيم من محجريهما ، وبدا عليه الاهتمام ، ثم قال :

— لم أكن أعلم أن هناك عددا كبيرا كهذا منهم ، لأننى لم أسمع الا عن الملك سليمان ، اللهم الا اذا كنت تعد هؤلاء الملوك مثلما تعد ملوك « الكوتشينة » . . وبالمناسبة ، كم أجر الواحد منهم ؟ فقلت : أجر ؟ انهم يستطيعون الحصول على ألف دولار شهريا اذا شاءوا ، بل انهم يستطيعون الحصول على كل ما يريدون ، فان كل شئ ملك لهم .

— أليس ذلك مبعنا للبهجة ؟ وماذا يفعلون يا هاك ؟

— انهم لا يفعلون شيئا . انك تهرف يا جيم . . . فهم لا يفعلون شيئا غير الجلوس .

— احقا ؟

— بالتأكيد . . انهم لا يفعلون شيئا غير الجلوس اللهم الا حينما تدور رحى الحرب . . . وحتى هذه لا يشتركون فيها ! فاذا لم تكن هناك أية حرب فانهم يتكاسلون ويتسكعون . . صه . . هل سمعت ضوضاء ؟

وتسللت الى الخارج وتطلعنا حولنا ، وسرعان ما سمعنا صوت محرك قارب بخارى يدور حول نفسه فى مكان بعيد فى النهر ، فعدنا أدراجنا .

واستأنفنا الحديث . . . فقلت : نعم . حينما تكون هناك حرب ، فان الملوك يعلو ضجيجهم مع البرلمانات ، والا فانهم يتسكعون حول الحريم معظم الوقت .

— حول ماذا ؟

— الحريم .

- وما هو الحريم ؟
- المكان الذى يحتفظون فيه بزوجاتهم . . . ألم تسمع عن الحريم ؟ ان للملوك « حريما » يحتفظ فيه الواحد منهم بليون زوجة !!
- أحقا ؟ لقد نسيت ذلك . . . ان الحريم عبارة عن (بنسيون) فيما أظن ! ومن المحتمل انهم يقضون وقتا مشحونا بالفسجيج والصخب فى هذه البيوت ! وأعتقد أن الزوجات يكثرن من التشاجر مع بعضهن ، مما يزيد الضجيج صخبا .
- ثم حدثت جيم عن الملك « لويس السادس عشر » الذى أعدم فى فرنسا منذ أمد بعيد ، وعن ولى عرشه الصغير الذى كان سيصبح ملكا فى أحد الأيام ولكنهم أودعوه السجن حيث مات هناك ، كما يقول بعض الناس .
- فقال جيم : مسكين هذا الغلام .
- يقول بعض الناس انه هرب وجاء الى أمريكا !
- هذا حسن ، ولكن لابد انه كان وحيدا . . . هل فى بلادنا ملوك يا هاك ؟
- لا . . .
- اذن لابد انه لم يستطع الحصول على عمل . . . فماذا عساه قد فعل ؟
- لست أعلم . . . ان بعضهم يلتحق بخدمة البوليس ، والبعض الآخر يعلم الناس كيف يتكلمون اللغة الفرنسية .
- ألا يتكلم الفرنسيون مثلنا يا هاك ؟
- كلا يا جيم ، انك لا تستطيع أن تفهم كلمة واحدة مما يقولونه .
- وكيف ذلك ؟
- لست أدري ، ولكن هذا هو الواقع ، لقد أمكننى أن التقط

بعض الكلمات والجمل من أحد الكتب . . . لنفرض أن رجلاً قال لك:
Parlez vous le Francais ؟ فما تظنه يقول ؟

— لا أظن شيئاً . . . أضربه على أم رأسه أن لم يكن رجلاً
أبيض ، فأننى لا أسمح لزنجى أن يشتمنى بمثل هذا الكلام !

— هذا سخف ، أنه ليس اهانة . . . أنه مجرد سؤال معناه
« هل تتكلم الفرنسية » ؟

— حسناً . . . لماذا اذن لا يقول ذلك كما نقوله نحن ؟

— أنه يقوله . . . فتلك هى الطريقة التى يتحدث بها الرجل
الفرنسى .

— انها طريقة جد مضحكة ، وأنا لا أريد أن أسمع مزيداً منها
لأنها أبعد ما تكون عن العقل !

— اصغ الى يا جيم . . . هل تتكلم القطعة مثلنا ؟

— لا ، ان القطعة لا تتكلم مثلنا .

— حسناً ، فهل تتكلم البقرة مثلنا ؟

— لا . . . ان البقرة لا تتكلم مثلنا أيضاً .

— وهل تتكلم القطعة كالبقرة ، أو البقرة كالقطعة ؟

— لا ، ان الواحدة منهما لا تتكلم كما تتكلم الأخرى .

— وهل من الطبيعى أن يختلف كلام كل منهما عن الأخرى ؟

— بالطبع . . . !

— اذن ، أليس من الطبيعى أن يختلف كلام البقرة والقطعة

عن كلامنا ؟

— بالتأكيد نعم .

(*) هذه العبارة الفرنسية معناها « هل تتحدث بالفرنسية ؟ » ولكنها كتبت
فى الأصل بشكل مختلف ، لأن المؤلف سجلها كما ينطقها زنجى بلهجته الخاصة .
(المترجم) .

- حسنا . . . اذن لماذا لا يكون طبيعيا أن يتكلم الرجل الفرنسى
لغة تختلف عن لغتنا ؟ أجب عن هذا السؤال ؟
— هل القطعة رجل يا « هاك » ؟
— لا . . .
— حسنا . . . اذن ، ليس من العقل فى شىء أن تتكلم القطعة
كالإنسان . . . وهل البقرة انسان ؟ تم هل البقرة قطعة ؟
— لا . . . انهما ليستا مثل الانسان .
— اذن فمن غير المعقول أن تتكلم احدهما مثل الأخرى . . .
وهل الرجل الفرنسى انسان ؟
— نعم
— حسنا ، اذن لماذا لا يتكلم كالإنسان ؟ . . . أجب عن هذا
السؤال ؟
وأيقنت ألا جدوى من اضاءة الوقت هباء ، فانت لا تستطيع
أن تعلم زنجيا كيف يجادل . وعندئذ كفت عن الحديث !

الفصل الخامس عشر

((هالك)) يفقد العائمة - في الضباب - الغلام فوق
العائمة - ((هالك)) يعثر على العائمة - قاذورات .

قدرنا أننا سنصل الى « كايرو » - عند طرف « الينوى » -
بعد ثلاثة أميال ، فهناك يلتحم نهر « أوهايو » بنهر المسيسيبي ،
وكان هذا هو المكان الذى نقصده ، فهناك كنا نزمع أن نبيع العائمة
ونبتاع قارباً بخارياً ونذهب الى أوهايو ، وهى إحدى الولايات
الحرّة . وبذلك نتخلص من المتاعب . . . فقد كان « جيم »
يخشى أن تبيعه الآنسة « واطسون » اذا عاد اليها .

وفى الليلة الثانية أخذ الضباب ينتشر ، فقررنا أن نشد العائمة
الى الشاطئ ، فقد كان من العبث أن نحاول السير فى الضباب .
الا اننى حينما تقدمت العائمة مستقلاً القارب ومعى الحبل لأربطه
فوق الشاطئ لم أجد غير شجيرات صغيرة أستطيع أن ألف الحبل
حولها ، فلففت الحبل حول احداها ، وكانت على حافة الشاطئ .
غير أن التيار كان قويا فى هذه المنطقة فأقبلت العائمة مندفعة بشدة
فانتزعت الشجرة من جذورها وشدتها والحبل معها . ثم رأيت

(*) الولاية الحرّة فى ذلك الوقت ، هى الولاية التى أخذت بتحريم الرق واقتناء
العبيد . . . (المترجم) .

الضباب يلفها في جوفه ، فأحسست بالألم والخوف معا ولم أسنطع حراكا . وبعد دقيقة ، كانت العائمة قد اختفت عن ناظري ، ولم أستطيع أن أرى لأبعد من عشرين ياردة أمامي . وعلى الفور وثبت في القارب ، وركضت الى المؤخرة واختطفت المجداف وأعملته في الماء ، ولكن القارب لم يتحرك لأن لهفتي أنستني . فك الحبل الذي يشد القارب الى الشاطئ فنهضت واقفا وحاولت حل الحبل ، ولكنني كنت شديد الارتباك ، فقد كانت يداي ترتعشان بشدة . وعند ما فككت الحبل أخيرا انطلقت بالقارب في أبر العائمة ، وكنت أجدف بكل قواي ، وسرعان ما ابتلعني الضباب الأبيض ، فلم أدر في أى اتجاه كنت منطلقا .

قلت لنفسى ألا جدوى من التجديف ، لأننى كنت لا ادرى مصرى . . . هل ارتطم بالشاطئ ؟ أو اصطدم بجبل أو سلسلة ؟ وآثرت أن أجلس جامدا تاركا القارب يجرى مع التيار ، رغم اننى كنت أشعر بالأسف . وصحت بأعلى صوتى ، نم اصخت السمع ، ومن بعيد سمعت صياحا خافتا ، فانتعشت آمالى ومضيت في اتجاه مصدر الصياح ، وأنا أرهف أذنى لأسمعه ثانية ، ولكن تبين لى ، عند ما تكرر الصياح ، اننى لم أكن ماضيا نحوه ، وانما كنت منطلقا بعيدا عنه الى اليمين ، وفى المرة التالية ، تبين لى اننى منطلق الى اليسار وأننى لم أتقدم كثيرا ، لأن القارب كان يتقدم في هذا الاتجاه وذلك !!

ولكم تمنيت لو أن جيم الأحمق فكر في الطرق على وعاء من الصفيح طوال الوقت حتى أسمعه ، ولكنه لم يفعل ، وانما اكتفى بالصياح في فترات متباعدة ، وبذلك بلبل أفكارى . . . ومضيت أجاهد أعنف الجهاد ، وسرعان ما سمعت الصياح صادرا من خلفى مباشرة ، فتملكنى الفرحة . . . ولكن الصياح كان صياح شخص آخر على ما خيل الى ! .

وتركت المجداف ، وأنصت الى الصياح مرة أخرى ، وكان لا يزال يصدر من ورائي ، ولكن من مكان لم أتبينه ، واستمر الصياح مدة طويلة . . كما استمر مكان صدوره في التغير ! . ولم أكف عن الرد عليه ، الى أن صدر من أمامي مرة أخرى ، فأدركت أن التيار قد دفع مقدم القارب الى المجرى ، وانه لا بأس من أن يكون جيم هو الصائخ ، وليس بحار عائمة أخرى ؛ فقد تعذر على تمييز الأصوات في الضباب ، فما من شيء أو صوت يكون طبيعيا في الضباب !!

واستمر الصياح . وبعد حوالى دقيقة ، كنت أندفع بالقارب الصاخب نحو شاطئ فوقه أشباح أشجار كثيرة . ودفعني التيار الى اليسار ، فاذا بي وسط مجموعة كبيرة من جذوع الأشجار التي كان التيار يندفع بينها محدثا هديرا شديدا .

وبعد لحظة أو اثنتين ، بدا كل ما أمامي صلبا أبيض اللون مرة أخرى . لقد كان ذلك الشاطئ الذي اعترضني جزيرة ! . فجمدت في مكاني وأصغحت السمع الى دقات قلبي العنيفة . . . وأكبر ظني أنني حبست أنفاسي مترقبا . .

واستسلمت للأمر الواقع بعد أن أدركت الحقيقة . . . لقد كان الشاطئ الذي اعترضني جزيرة ! ولا ريب أن جيم ذهب الى جانبها الآخر . ولم تكن تلك الجزيرة احدى الجزائر الصغيرة التي يمكنك أن تقطعها طولا في عشر دقائق ، وانما كانت احدى جزائر الغابات ؛ ومن ثم فمن المحتمل أن يتراوح طولها بين خمسة أميال وستة وأن يزيد عرضها على نصف ميل .

وبقيت هادئا وأنا أرهف السمع حوالى خمس عشرة دقيقة . واستمر القارب في تقدمه بسرعة أربعة أو خمسة أميال وان يكن ذلك لم يدر بخلدي . ففي مثل هذه الأحوال يعتقد الانسان أن القارب متوقف تماما عن السير فوق صفحة الماء ! فاذا مر به جذع

شجرة صغير في الماء ، فانه يفكر في مدى السرعة التي يسير بها .
ويتبادر الى ذهنه انه يسير بسرعة كبيرة . واذا لم تصدق انك
ستشعر بالوحدة والوحشة في مثل هذا الضباب الكثيف انما
الليل ، فخير لك أن تجرب ذلك بنفسك !!

وفي خلال نصف الساعة التالي ، رحت أصيح بين الحين والحين .
وأخيرا سمعت صياحا يجيبني من بعيد ، فحاولت ان أمضي في
اتجاهه ، ولكني أخفقت . وفي التو ، حكمت بانني دخلت في شبكة
ألياف القنب لأنني كنت ألمحها على جانبي . وفي بعض الأحيان
كان يجري وسط هذه الألياف مجرى ضيق . وأحيانا أخرى لم
أكن أستطيع تمييز هذا المجرى رغم انني كنت أعلم أنه موجود ، فقد
كنت أسمع خرير التيار وهو يرتطم بجذوع النباتات على الشاطئ .
ولم تغب عني صيحات الصائح طويلا بين ألياف القنب ، فحاولت
أن أتبعها مدة طويلة أيا كان اتجاهها . . ولا شك عندي انك لم
تسمع صوتا مراوغا كهذا طيلة حياتك ، ولا رأيت اماكن سريعة
التغير والتبدل كهذه الأماكن ! !

ولقد اضطررت الى الابتعاد عن الشاطئ اربع او خمس مرات
لكي أتجنب الاصطدام بالجزائر القائمة في النهر ، ولهذا قدرت ان
العائمة لا بد سترتطم بالشاطئ بين آونة وأخرى ، والا لكانت قد
قطعت مسافة طويلة ولأصبحت خارج نطاق السمع !

وعلى أية حال . . . فقد خيل الى انني عدت الى النهر المكشوف
مرة أخرى ، ولكني لم أستطع أن أسمع صياحا من اى اتجاه ،
فاعتقدت أن « جيم » قد شد عائلته الى جذع شجرة واستراح .
وكان التعب قد نال مني كل منال ، فرقدت في القارب وقررت الا
أزعج نفسي بعد الآن ، ولم أكن راغبا في النوم بالطبع ، ولكني لم
أستطع مقاومة النوم ، فقلت انه لا بأس على اذا أنا نمت نوما متقطعا
كنوم القطط !

غير أن نومى لم يكن كنوم القطط ، فما أن اسنيقظت حتى رأيت
النجوم متألقة في السماء وقد انقشع الضباب تماما ، وألقيت القارب
يدور حول منحني كبير بمؤخرته . ولم أدر أين أنا ، وخيل الى أننى
أحلم . وعند ما بدأت أفكرى تنتظم خيل الى أن ما مزى بي حدث
منذ أسبوع مضى .

كان النهر هائلا في هذه المنطقة . . وكانت تشمخ فوق شاطئيه
أشجار ضخمة كثيفة أشبه بجدار صلب . وألقيت نظرة على
طول النهر ، فرأيت نقطة سوداء فوق صفحة الماء ؛ فوجهت
القارب نحوها ، ولكنى ما كدت أصل اليها حتى تبينت أنها عبارة
عن كتلتين من الخشب مربوطتين معا . ثم رأيت نقطة أخرى
فتبعتها ، ثم ثالثة فتوجهت نحوها . . وفي هذه المرة أصبت
الحكم . فقد كانت هذه النقطة السوداء هى العائمة ! !

وعند ما صعدت اليها ألفت « جيم » جالسا ورأسه بين
ركبتيه وهو يغط في نومه ، وقد تدلى ذراعه الأيمن من فوق أحد
المجدافين . أما المجداف الآخر فكان محطما ، بينما كانت العائمة
مملوءة بأوراق الأشجار والفصون والوحل ، فأدركت أنه مز
بفترة عصيبة ! !

وتقدمت من « جيم » وبدأت ألوح بقبضتى في وجهه ، ثم قلت :
— هاللو جيم . . هل كنت نائما ؟ لماذا لم توقظنى ؟
— يا الهى . . أهذا أنت يا « هالك » ؟ اذن فأنت لم تمت . .
لم تفرق . . هل عدت ثانية ؟ اننى لا أكاد أصدق عينى يا عزيزى . .
دعنى أتأملك أيها الطفل . . دعنى أتحمسك . . انك لم تمت . .
لقد عدت ثانية حيا ترزق سليما معافى مثلما كنت . . الحمد لله ؟
— ماذا دهالك يا جيم ؟ هل احتسيت خمرا ؟
— خمرا ، وهل أتيحت لى فرصة لاحتساء الخمر ؟
— حسنا . . اذن ما الذى يجعلك تهرف بمثل هذا الكلام ؟

- وهل أقول كلاما غير معقول ؟
 - نعم .. ألم تتحدث عن عودتى كما لو كنت قد رحلت عنك ؟
 - هاك .. هاك فن .. انظر الى عيني .. انظر الى عيني ..
 ألم ترحل عنى ؟
 - أرحل ؟ ماذا تعنى بحق السماء ؟ اننى لم اغب عنك ، فإين عساي كنت أذهب ؟
 - اصغ الى .. هناك خطأ ما .. هل أنا جيم أو من أكون ؟
 هل أنا هنا ؟ أم أين عساي أكون الآن ؟ هذا ما أريد ان أعرفه .
 - حسنا .. أظن انك هنا . فهذا واضح تماما ، ولكنى أظن
 أنك أحمق معقد التفكير يا جيم .
 - هل أنا كذلك ؟ حسنا .. أجبني ، ألم تنزل الى الشاطئ
 ومعك الحبل لتشد العائمة الى شجرة قنب على الشاطئ ؟
 - لا .. لم أفعل .. أية شجرة قنب تعنى ؟ اننى لم ار
 أشجارا كهذه .
 - لم تر أشجار قنب ؟ اصغ الى .. ألم يقطع الحبل فاندفعت
 العائمة الى عرض النهر وبقيت أنت فى القارب ومن حولك الضباب ؟
 - أى ضباب ؟
 - الضباب .. الضباب الذى كان منتشرا طوال الليل .. ثم
 ألم تصح ، فصحت بدورى ، الى أن اختلط غليتنا الأمر بين
 الجزائر ، ففقد أحدهما الآخر ، لأن كلا منا لم يكن يعرف أين
 صاحبه ؟ ألم أصطدم بالجزائر مرات عديدة حتى كدت أغرق ؟
 ألم يكن الأمر كذلك ؟ أجب عن هذا السؤال ؟
 - ان ذلك فوق ادراكى يا جيم .. فأننى لم ار ضبابا ، ولا
 جزرا ، ولا متاعب .. لم أر شيئا ! .. لقد كنت جالسا هنا
 أتحدث اليك طوال الليل الى أن غلبك النعاس على أمرك منذ
 حوالى عشر دقائق .. وأعتقد اننى نمت أيضا .. ولما كان من

المستحيل أن نحتسى الخمر في مثل هذا الوقت فمن المحقق انك كنت تحلم !

— لكن كيف يمكن أن أحلم بذلك كله في عشر دقائق ؟
— مهما يكن من أمر ، فان الأمر كله كان حلما ، لأن شيئا مما قلت لم يحدث على الاطلاق .

— لقد كان كل شيء شديد الوضوح أمامي .
— ان وضوحه لا يغير من الأمر شيئا . . اننى أعلم أن شيئا مما تقول لم يحدث ، لاننى كنت هنا طوال الوقت .
ولزم « جيم » الصمت حوالى خمس دقائق ، ولكنه استغرق في تفكير عميق . . وأخيرا قال :
— حسنا . . أعتقد اذن اننى كنت أحلم يا هاك . . ولكنه كان أقوى حلم رأيته ، ثم اننى لم يسبق لى أن رأيت حلما أتعبنى كهذا الحلم .

— أوه . . لا بأس ، فان الحلم يتعب الجسم أحيانا ككل شيء آخر ، ولقد كان هذا الحلم مؤلما . حدثنى عنه يا جيم !
وراح « جيم » يحدثنى بكل شيء كما وقع ، ولكنه كان يزخرفه كثيرا . ثم قال انه يجب عليه أن يبدأ فى « تفسير » الحلم لأنه انذار ونذير ! قال ان أول شجرة قنب تمثل رجلا سيحاول أن يفعل بنا خيرا ، وان التيار يمثل رجلا آخر يريد ابعادنا عن الخير ، أما الصياح فيمثل التحذيرات التى ستصل الى كل منا بين آونة وأخرى ، فاذا لم نبذل قصارى جهدنا لكى نفهمها فانها ستنتهى بنا الى سوء الحظ بدلا من أن تبعدنا عنه ، أما ألياف القنب الكثيرة فتعنى أننا كنا سنقع فى مشكلات مع قوم مشاكسين أوغاد ، الا أننا اذا أخذنا حذرنا ولم نحاول اثارتهم ، فأننا سوف نخرج سالمين من الضباب الى النهر الكبير الصافى ، حيث الولايات الحرة ، وبعدئذ لن نصادف أى متاعب أخرى .

كانت الدنيا قد أظلمت بعض الشيء بعد صعودى الى العائمة ،
ولكن السماء صفت فى تلك الأثناء .

قلت : أوه . . انه تفسير لا بأس به فى حد ذاته يا جيم . .
لكن ما معنى كل هذا ؟

وأشرت الى أوراق الأشجار والأغصان وغيرها مما كان يملأ
العائمة ، كما أشرت الى المجداف المحطم .

وتطلع «جيم» الى هذه القاذورات ، ثم تطلع الى ، وعاد فتطلع
الى القاذورات . . لقد كانت فكرة الحلم قد رسخت تماما فى ذهنه
حتى انه لم يعد يستطيع التخلص منها ولكنه لم يلبث أن عرف
الحقيقة !! . . فتأملنى مليا وقال فى ألم :

— ما معنى هذه الأشياء ؟ سأخبرك بذلك ! عند ما استبد بى
التعب من كثرة العمل ، ومن كثرة النداء عليك ، غلبنى النوم على
أمرى بعد أن تملكنى حزن شديد على فقدك . ولست أدري ماذا
حل بى وبالعائمة أثناء نومي . وعندما استيقظت ووجدتك أمامى
سليما معافى اغرورقت عيناي بالدموع وكدت أجتو فوق ركبتي
وأقبل قدميك شكرا ! أما أنت فكنت تفكر فى السخرية منى ،
بأكذوبة ضخمة . . ان هذه قاذورات وأوخال ! والأوخال هى
التي يضعها الناس فوق رؤوس أصدقائهم اشعارا منهم لهم
بالخزي والعار .

ثم نهض ببطء ، وتقدم من الكوخ الهندى ، ودخل بغير أن
يضيف الى قوله شيئا . . غير أن ما قاله كان كافيا . . فقد
شعرت بالضعة ووددت لو استطعت ان اقبل قدميه مرضاه له .
ومضت خمس عشرة دقيقة قبل أن أتغلب على كبريائى
وأذهب للاعتذار لزنجى منل « جيم » ، ولكنى فعلت ذلك ، ولم
أسف عليه فيما بعد ، ولم أحاول أن أسخر منه مرة أخرى ،
وما كنت لأقدم على تلك السخرية لو اننى عرفت انها ستؤذى
شعوره على هذا النحو !!

الفصل السادس عشر

الترقب - ((كايرو)) المدينة العزيزة - أكذوبة
بيضاء - تيارات عاتمة - المرور بمدينة
((كايرو)) - السباحة نحو الشاطئ ..

فضينا معظم النهار في النوم . نم استأنفنا رحلتنا ليلا خلف
عائمة طويلة ضخمة كانت تسير فيما يشبه الموكب . وكانت لهذه
العائمة أربع زحافات طويلة على كل طرف ، فقد رنا أنها تحمل
حوالى ثلاثين رجلا ، وكان فوقها أربعة أكواح هندية كبيرة
متباعدة عن بعضها البعض ، وصارى علم طويل في كل طرف ..
كانت عائمة يشعر الانسان بالفخر حينما يركبها !!
ومضينا نتقدم نحو منحني كبير ، وكانت السماء مغطاة
بالسحب والجو حارا في تلك الليلة ، أما النهر فكان شديد الاتساع .
يحف به من جانبيه جداران من الأشجار الضخمة الباسقة الكثيفة
التي تحجب كل ما وراءها عن الأنظار .. وتحدثنا عن « كايرو »
وتساءلنا ، أترانا سنعرفها عند ما نصل إليها ؟ فقلت اننا لن
نعرفها لأننى سمعت أنه لا يوجد على شاطئها أكثر من اثني عشر
منزلا . فاذا لم تكن في هذه المنازل أنوار موقدة ، فكيف نعرف
اننا نمر بها ؟ وقال جيم : اننا اذا وصلنا الى ملتقى النهرين الكبيرين
كان هذا دليلا على أننا وصلنا الى مدينة « كايرو » .. ولكنى
قلت اننا قد نظن في هذه الحالة اننا نمر باحدى الجزائر ، واننا

سائرون فى النهر القديم نفسه . وقد أقلق ذلك بال جيم .
وتساءلنا ماذا عسانا نفعل ؟ وقلت ان خير حل هو أن أذهب الى
الشاطيء عند ظهور أول ضوء وأقول للناس ان أبى مقبل خلفى
بحمولته التجارية واننا نريد أن نعرف أين توجد « كايرو » .
وقال جيم انها فكرة حسنة !

لم يكن هناك ما نفعله الآن سوى أن نراقب ما يمر بنا حتى نرى
المدينة فلا نخطئها . . وقال « جيم » انه من المحقق أنه سيراهنا
لأنه سوف يصبح رجلا حرا بمجرد رؤيته لها . أما اذا أخطأ
فسيصبح فى بلاد الرقيق مرة أخرى ولن يكون هناك أمل فى
تحرره . وكان لايفتأ يشب واقفا بين حين وآخر ويهتف : ها هى .
ولكنه سرعان ما يتبين أنه أخطأ . . وكنا فى كل مرة نعاود
الجلوس والمراقبة . وقال جيم انه يشعر برعشة تسرى فى جسده
كلما فكر فى اقترابه من الحرية ! ولقد كنت محموما بدورى ، ارتعش
كلما سمعته يقول ذلك ، لأننى بدأت أدرك أنه حر تماما فى تلك
اللحظة ، وأخذت أتساءل من المألوم على ذلك ، ؟ انه أنا . . ولم
أستطع ابعاد وقر هذه الفكرة عن ضميرى ، بل لقد استبدت
بى هذه الفكرة وسببت لى عذابا عظيما . ولم تكن تلك الفكرة
قد خطرت ببالى من قبل ، كما اننى لم أكن أفكر فى ذلك الوزر . .
أما الآن فقد استيقظ ضميرى ، وظل يعذبنى أكثر فأكثر ،
وحاولت دون جدوى أن أتخلص من عذاب الضمير وأن أقول
لنفسى اننى لست المألوم لاننى لم أهرب جيم من مالكته الشرعية ،
غير أن ضميرى ظل يهتف بى « ولكنك كنت تعلم أنه يسعى الى

(*) كان القانون يدين كل شخص أبيض يتستر على هروب عبد رفيق فى
الولايات التى لم تأخذ بتحريم الرق . وهذا هو السبب فى أن « هاكبرى فن »
— وهو أبينى — شعر بأنه خرق القانون وبدأ يخنى العقاب والمسئولية والجزاء !

الحرية ، وكان فى استطاعتك أن تذهب الى الشاطئ وتفضى بالحقيقة الى أول شخص يقابلك » وكان ما يهتف به ضميرى صحيحا ، فلم أجد منه مهربا . وكان هذا هو أكثر ما يعذبنى . . . كان الضمير يهتف بى : « ماذا جنت الآنسة واطسون التسعة حتى تدع خادمها الزنجى يهرب تحت بصرك ولا تنطق بكلمة واحدة ؟ ماذا فعلت هذه الآنسة المسكينة لك حتى تعاملها هذه المعاملة الدنيئة ؟ لقد حاولت أن تعلمك العلم والأخلاق : وأن تجعل منك غلاما صالحا ، كما أحسنت اليك بكافة السبل التى تعرفها . . . هذا ما فعلته من أجلك » .

وبدأت أشعر بالاثم والتعاسة ، و تمنيت لو اخترمنى الموت . وأخذت أقطع العائمة جيئة وذهابا وأنا أؤنب نفسى ! وكان جيم يروح ويغدو أيضا فى قلق . . . فلم يكن أحدا قادرا على التزام الهدوء ، وفى كل مرة كان جيم يرقص فيها أمامى ويهتف : ها هى « كايرو » ، كنت أشعر كأننى أصبت بطلق نارى ، وكنت أظن أننى سوف أموت من التعاسة اذا كانت تلك المدينة هى « كايرو » حقا !

وكان جيم يتكلم بصوت مرتفع طوال الوقت . أما أنا فكنت أكلم نفسى . كان يقول ان أول ما سيفعله عند ما تطأ قدماه ولاية حرة هو أن يقتصد نقودا ، وألا يتفق سنتا واحدا ° الى أن يدخر مبلغا يمكنه من شراء زوجته التى كانت رقيقا فى مزرعة مجاورة للمكان الذى تقيم الآنسة واطسون فيه ، وبعدئذ سوف يعمل هو وزوجته ويقتصدان مبلغا من المال يمكنهما من شراء ولديهما ، فاذا رفض مالكما بيعهما فسوف يستأجران من يسرقهما !!

(*) السنت عمله أمريكية تبلغ قيمتها ٤ مليارات تقريبا .

وغاص قلبى بين جنبى وأنا أسمع هذا الكلام ، فما كان الزنجى
ليجرؤ على قول مثل هذا الكلام من قبل ، لكن أنظر الى التغير
الذى طرأ عليه فى اللحظة التى ظن فيها انه اوشك على التحرر !
ان المثل القديم ينطبق تماما على هذا الزنجى . . فهذا المثل يقول
« اعط الزنجى من الحبل مقدار بوصة ، يأخذ الحبل كله » ولقد
كان ذلك نتيجة لعدم تبصرى ، فها هو الزنجى الذى ساعدته على
الهرب يواجهنى بتحد ويقول لى بلا موارد انه سوف يسرق
ولديه — ولديه اللذين يملكهما رجل لا يعرفه . . رجل لم يسبق
له أن أساء الى .

ولقد أسف حينما سمعت جيم يقول ذلك . . فقد كان
مسلكه يكشف عن ضعفه . . واشتد تأنيب ضميرى لى فقلت
مخاطبا ضميرى « كف عن تعديبى فما زال فى الوقت متسع لتصحيح
الخطأ . . سوف أذهب الى الشاطئ عند أول ضوء يلوح لى
وأبوح بالسر كله » وعندئذ شعرت بالراحة والسعادة ، وانقشعت
جميع متاعبى ، ورحت أراقب ظهور أول ضوء وأنا أدندن بأحدى
الأغنيات . وبعد قليل لاح لنا ضوء فهتف جيم :
— اننا آمنان يا هاك . . اننا آمنان ، هيا أسرع بركوب القارب
فها هى « كايرو » أخيرا . . اننى واثق من ذلك .
فقلت : سأمضى بالقارب لأتبين حقيقة الأمر يا جيم « ولكن
لا تنس انها قد لا تكون « كايرو » .

وبادر « جيم » فأعد القارب ، ووضع سترته العتيقة فى قاع
القارب لكى أجلس فوقها ، وقدم لى المجداف . وبينما كنت
أبتعد عنه قال :

— عما قريب ، سوف أهتف من شدة الفرح وأقول اننى مدين
لهاك بحريتى ، واننى ما كنت لأتحرر يوما لولاه . . لقد كان

«هاك» هو الذى وهبنى الحرية . . ان جيم لن ينساك يا «هاك» . .
لقد كنت أحسن صديق لجيم العجوز .

ورحت أجدف مبتعداً والعرق ينسال من جبهتى بفزارة . .
فقد كنت أعتزم افشاء سره ! ولكنه ما كاد يقول ذلك حتى انحسر
عنى تأنيب الضمير . ومضيت أجدف ببطء ، ولم أكن أدري هل
يسعدنى ما سأفعله أم لا ؟ وعند ما ابتعدت خمسين ياردة عن
العائمة قال جيم :

— هلم يا هاك المخلص . . انك الرجل الابيض الوحيد الذى
حافظ على وعده لجيم العجوز .

وشعرت بقلبى يغوص بين جنبى ، ولكنى قلت لنفسى انه
لا مفر لى من افشاء سره لأننى لا أستطيع فرارا من تأنيب
ضميرى . وفى تلك اللحظة أقبلت عائمة بها رجلان معهما بندقيتان ،
وتوقفا ، فتوقفت . . وقال أحدهما :

— ما هذا الذى هناك ؟

فقلت : عائمة .

— هل تملكها ؟

— نعم يا سيدى .

— هل عليها رجال .

— رجل واحد يا سيدى .

— حسنا . . لقد هرب خمسة زنوج الليلة ومضوا هناك الى
أعلى المنحنى ، هل الرجل الذى معك أبيض أم أسود ؟

فلم أجب مباشرة . والواقع اننى حاولت الكلام ولكن ارتج
على ، فحاولت أن أستجمع أطراف شجاعتى وأن أفضى الى
الرجلين بالحقيقة ، ولكنى أخفقت . ولم ألبث أن تبينت ضعفى
فتخليت عن محاولة التظاهر بالرجولة ، وقلت :
— انه رجل أبيض .

— أظن أنه يحسن بنا أن نذهب ونراه بأنفسنا .
فقلت : لكم أتمنى ذلك يا سيدى لأن أبى هو الموجود فى العائلة ،
ولعلكما تساعداننى على شد العائلة الى الشاطئ . . ان أبى
مريض ، وكذلك أمى « ومارى آن » أختى !
— أوه : يا للشيطان . . اننا فى عجلة من أمرنا أيها الغلام ،
ولكن أكبر ظنى أنه يحسن بنا أن نأتى معك ، فهيا امضى أمامنا .
فأعملت مجدافى فى الماء ، وبعد قليل قلت :
— سوف يدين أبى لكما بالشكر . . فقد كان كل من ناشدته
أن يشد القارب الى الشاطئ ينصرف عنى . وأنا عاجز عن
تحقيق هذا بمفردى .
— هذه ندالة وضعة . . أخبرنى يا فتى مم يشكو أبوك ؟
— انه مريض . . مريض . . ولكن مرضه ليس خطيرا !
وتوقف الرجلان عن التجديف . وكان الوصول الى العائلة
يتطلب بذل جهد كبير .
وقال أحدهما : هذا كذب يا غلام . . ما هو مرض أبيك ؟
أجب بلا مواربة فان ذلك خير لك .
— سأفعل يا سيدى . . . سأفعل ، ولكن أرجوكم ألا تتخلينا
عنا . . . انكما سيدان شريفان ، ويكفى أن تساعداننى على شد
العائلة الى الشاطئ بغير أن تقتربا منها ان شئتما . أرجوكم .
فقال أحد الرجلين : هيا بنا يا جاك !
وتراجعا قليلا وقال المتكلم : ابتعد يا غلام . . . ابتعد . . .
أخشى أن تكون الريح قد نقلته الينا . . . ان أباك مريض بالجدرى ،
وأنت تعلم ذلك حق العلم . فلماذا لم تقل ذلك بلا مواربة ؟ هل
تريد أن ينتشر المرض فى كل مكان ؟
فقلت متلعثما : الحقيقة اننى صارجت كل من قابلنى بالحقيقة ،
فبادروا بالفرار وتركونا تحت رحمة الأقدار .

— مسكين أبوك أيها الشيطان ... اننا جد آسفان من أجلكم
... ولكننا ... يا للجنة اننا لا نريد أن تنتقل إلينا عدوى الجدرى
... ولكن اصغ إلى فسأقول لك ما يجب عليك أن تفعله ...
لا تحاول ارساء العائمة وحدك والا حطمتها ... استمر في سيرك
حوالى عشرين ميلا حتى تصل إلى مدينة على الجانب الأيسر للنهر،
وسوف تصل إلى هناك بعد شروق الشمس بوقت طويل، وعندما
تطلب المعونة قل ان أسرتك مصابة بنزلة برد وحمى ، وإياك
والحماقة مرة أخرى ! لا تدع الناس يتكهنون بحقيقة مرض أبيك .
لا جدوى من محاولة النزول إلى البر عند هذا الضوء القريب ،
فليس هناك غير مستودع خشب ... أكبر ظنى أن أباك فقير ،
وانه سيء الحظ أيضا ، انظر، سأضع قطعة ذهبية من ذات العشرين
دولارا فوق هذا اللوح فالتقطها عند ما يمر اللوح بك ... اننى
حزين من أجلك ، لكننى لا أستطيع أن أفعل غير ذلك ، لأن من
الحماقة الاستخفاف بالجدرى ، فهل فهمت ؟

فقال الرجل الآخر مهلا لحظة يا باركر ... فسأضع عشرين
دولارا أخرى على اللوح ... الوداع أيها الغلام ، افعل ما قاله لك
مستر باركر وسوف تستقيم الأمور .
— نعم يا بنى ... الوداع ... اذا رأيت زوجا هاربين فاطلب
النجدة ولعلك تتمكن من القبض عليهم والحصول على المكافأة .
فقلت : الوداع يا سيدى ... لن أدع الزوج الهاربين يفلتوا
منى اذا كان ذلك فى استطاعنى .

وابتعد الرجلان ، فصعدت إلى العائمة وأنا أشعر بالضجة
والإنهيار ، لأننى كنت أعلم اننى ارتكبت خطأ ، وأدركت الا فائدة
من أن أتعلم كيف أفعل الصواب ، فان الشخص الذى لا يتعلم كيف
يفعل الصواب وهو صغير لن يتعلم ذلك على الإطلاق ؛ فما أن
يتعرض لاحدى التجارب حتى يعوزه المبدأ الذى يشد أزره ويلزمه

باتباع جادة الشرف ، فيستسلم . . . تم فكرت لحظه وقلت
لنفسى : واثبت . . . لنفرض انك فعلت الصواب وتخليت عن جيم .
فهل كنت تشعر بأنك احسن حالا مما انت عليه الآن ؟ . . . وقلت :
كلا بالطبع ، كنت سأشعر بنعاسة عظيمة مثلما أشعر الآن .
وأضفت : ما الفائدة من أن اتعلم كيف أفعل الصواب عند ما يتير
عمل الصواب المتاعب ، بينما لا يثير عمل الخطأ أية متاعب ، والجزاء
واحد في الحالتين ؟ ولم أستطع أن أجد جوابا لهذا السؤال ، فقررت
ألا أثقل على نفسى مثل هذا الحديث . . . وأن أفعل ما يكون فى
متناول يدى أولا .

ودخلت الكوخ الهندى ، فلم أجد « جيم » هناك ، فتلفت حولى
ولكنى لم أجد له أترا !!
هتفت : جيم ؟

— هائذا يا « هاك » . . هل غابا عن الأنظار الآن ؟ لا تتكلم
بصوت عال ؟

كان جيم غاطسا فى النهر اسفل المجدف الخلفى ، فلم يكن يبرز
منه غير أنفه . . . فقلت له ان الرجلين قد غابا عن الأنظار ، فصعد
الى العائمة وقال :

— كنت أصفى لحدبشكم ، فنزلت الى النهر وكنت استعد
للذهاب الى الشاطئ لو أن الرجلين صعدا الى العائمة ، على أن
أعود الى العائمة سابحا بعد انصرافهما ، لكن يالك من غلام بارع . .
لقد استطعت تضليلهما بسهولة يا « هاك » ، لقد كانت حيلة
مدهشة يا غلام ، وأكبر ظنى انها هى التى أنقذتنى . . . ان جيم
العجوز لن ينسى لك هذا الصنيع يا عزيزى .

وتحدثنا عن النقود التى أعطاها لى الرجلان ، فقال جيم اننا
نستطيع بهذا المبلغ أن نسافر الآن على باخرة تم ننفق بسخاء فى
احدى الولايات الحرة ، وأضاف أن العشرين ميلا التى يجب أن

نقطعها ليست بالمسافة الكبيرة وانه كان يتمنى أن تكون هذه المدينة
في ولاية حرة !

وعند ما انبثق الفجر ، شددنا العائمة الى الشاطئ ، وقد حرص
« جيم » كل الحرص على اخفاء العائمة جيدا . ثم قضى النهار كله
في حزم الأمتعة والاستعداد لتترك العائمة .

وحوالى الساعة العاشرة من تلك الليلة ، رأينا أنوارا صادرة من
مدينة بعيدة عند منحنى في الجانب الأيسر من النهر .

وركبت القارب ، وقصدت الى هذه المدينة لاستجلاء الحقيقة ،
وسرعان ما التقيت برجل يركب قاربا ويعيد سنارته فتريت
وسالته :

— أخبرنى يا سيدى ، هل هذه هى مدينة « كايرو » ؟

— « كايرو » !! ... لا ... لا بد انك أحمق .

— اذن ما اسم هذه المدينة أيها السيد ؟

— اذا أردت أن تعرفه فاذهب واسأل عنه . أما اذا بقيت هنا
نصف دقيقة أخرى وأصررت على ازعاجى ، فسيصيبك ما لا
يسرك ...

وأسرعت عائدا بقاربى الى العائمة ... وما كدت أخبر « جيم »
بما سمعته حتى بدت عليه علامات خيبة الأمل المرة ، ولكنى قلت
له الا داعى للأسف لأن « كايرو » هى المدينة التالية فيما اعتقد .
ومررنا بمدينة أخرى قبل طلوع النهار ، وتهيأت للذهاب اليها ،
ولكنى لم البث ان تبينت انها مشيدة فوق مرتفع من الأرض ،
فعدلت عن الذهاب اليها لأن « كايرو » ليست مشيدة على مرتفع ،
وشددنا العائمة الى شجرة قنب على الجانب الأيسر من النهر ...
وبدأت أرتاب فى الأمر ، وكذلك جيم ... فقلت :

— لعلنا مررنا بمدينة « كايرو » أثناء الضباب فى تلك الليلة .
فقال : دعنا لا نتحدث فى ذلك يا هاك ، فان الزنوج المساكين

لا يمكن أن يواتيهم الحظ الحسن . . . لقد كنت أعرف دائما أن لمس جلد الأفعى ذات الأجراس يجلب النحس . . نعم !
- بودى لو أننى لم أر جلد هذه الأفعى يا جيم . . . بودى لو لم تقع عينى عليه .
- ليس الخطأ خطأك يا هاك . فأنت لم تكن تعلم ذلك ، فلا تلم نفسك على ذلك .

وعند ما طلع النهار رأيت مياه نهر « أوهايو » الصافية !
وهكذا ضاع أملنا فى بلوغ مدينة « كايرو » .
وتحدثنا فى الأمر مليا ، وأدركنا أن من العبث الذهاب الى الشاطئ وأنا لن نستطيع الانطلاق بالعائمة مع التيار ، ولذلك لم يكن ثمة مفر من الانتظار حتى يأتى المساء ثم نستقل القارب ونجازف . . .

ولقد قضينا النهار كله نائمين فى مزرعة قطن كثيفة ، ريثما يحل الليل . . . غير أننا ما كدنا نعود الى العائمة مع الظلام حتى تبين لنا اختفاء القارب .

ولم ينطق أحدهنا بكلمة واحدة وقتا طويلا ، فلم يكن فى استطاعتنا أن نقول شيئا . . . كنا نعلم حق العلم أن هذا نحس من عمل جلد الأفعى ذات الأجراس ! واعتقدنا أن من العبث أن نتحدث فى ذلك . . فلو أننا تحدثنا لجلب لنا جلد الأفعى مزيدا من النحس ، ولاستمر النحس فى ملاحقتنا الى أن نتعلم كيف نلزم الصمت !!

وبعد فترة ، أخذنا نتبادل الرأى فيما يحسن بنا أن نفعله ، وأخيرا أدركنا ألا سبيل أمامنا إلا أن نمضى قدما بالعائمة الى أن تتاح لنا فرصة لشراء قارب نعود به . لقد قررنا هذه المرة ألا «نقترض» قاربا لا يكون صاحبه موجودا مثلما كان يفعل أبى ، لأن ذلك خليك بأن يبعث الناس فى أثرنا .
وهكذا انطلقنا بالعائمة عند ما أرخى الليل سدوله .

وكان المكان الذى تباع فيه القوارب بعيدا عن العائمات الراسيات عند الشاطئ . . . ولكننا لم نر هذه العائمات ؛ ومن ثم مضينا فى سيرنا زهاء ثلاث ساعات أو أكثر . . ثم بدأ الظلام يرخى سدوله . وهذا أسوأ شئ بعد الضباب ، لأنه لا يمكنك من معرفة شكل النهر أو تقدير المسافات . وعند ما تقدم الليل وهدأ ، أقبل قارب بخارى من أمامنا فأوقدنا المصباح وقدرنا أن من فيه سيرون الضوء ، فالقوارب البخارية لا تقترب منا عادة وإنما يمر بنا من بعيد وتنطلق فى الماء الهادئ وتمضى فى قلب النهر فى متل هذه الليالى الحالكة .

وسمعنا صوت محرك القارب وهو مقبل ولكننا لم نره بوضوح إلا حينما اقترب منا ، فألفيناه يدنو منا سريعا كأنما ليرتطم بنا . ولقد ألفنا مثل هذه المداعبات ، إذ كان قواد مثل هذه القوارب يدنون منا حتى يخيّل إلينا أنهم سيصطدمون بنا ، ولكنهم لا يلبثون أن ينحرفوا فجأة مبتعدين ، بينما يخرج القائد رأسه من النافذة ويضحك وهو يعتقد أنه بارع فى الدعابة ! ولقد ظننا أن هذا هو ما سيفعله قائد هذا القارب . وكان القارب كبيرا بنسكل غير مألوف ؛ وفجأة سمعنا شخصا يصيح بنا ، أعقبه رنين جرس لوقف المحركات ، وصغير حاد . وما كاد « جيم » يلقى بنفسه فى اليم من جانب وأنا من الجانب الآخر حتى اندفع القارب وارتطم بالعائمة فى عنف بالغ .

وسبحت الى القاع حتى لا تمزق جسمى عجلة القارب البخارى البالغ قطرها ثلاثون قدما . . . ولقد كنت لا أبقي تحت سطح الماء أكثر من دقيقة، ولكنى بقيت هذه المرة أكثر من دقيقة ونصف . ثم بادرت بالصعود الى السطح بعد أن كدت أختنق . وما كدت أصل الى سطح الماء حتى شهقت بقوة وطردت الماء من أنفى . . . بالطبع كان التيار عنيفا . ولقد أدار من فى القارب محركاته من جديد

وانطلقوا به دون أن يعبأوا بمسيرنا . . . ثم لم يلبث القارب ومن فيه أن اختفى عن الأنظار .

. وناديت « جيم » أكثر من عشر مرات ولكنى لم أتلق ردا على ندائى . فأسرعت أتشبث بلوح اصطدمت به وأنا أصارع الماء للوصول الى الشاطئ ، ودفعت اللوح أمامى ولكنى لاحظت أن التيار يتجه نحو الشاطئ الأيسر ، وكان هذا دليلا على أننى أصبح فى تقاطع مائى ، فغيرت اتجاهى ومضيت الى اليسار .

كان تقاطعا طويلا لا يقل طوله عن ميلين ، ومن ثم فقد مر وقت طويل قبل أن أتمكن من بلوغ الشاطئ . ومع أن الرؤية كانت شاقة ، فقد أخذت أتقدم فوق أرض خشنة زهاء ربع ميل أو أكثر حتى بلغت منزلا خشبيا كبيرا مكونا من طابقين ، كدت أمر به بغير أن أنتبه اليه ، لولا أن عددا كبيرا من الكلاب انطلق ينبع بعنف ويتحفز للانقضاض على فأدركت أن من الخير لى ألا أتقدم خطوة أخرى !!

الفصل السابع عشر

زيارة ليلية - مزرعة اركانسو - الزخارف
الداخلية - استيفن داولنج بوتس - نغمات
شعرية - معزف (بيسانو) صغير عتيق .

بعد نصف دقيقة تكلم شخص من النافذة بغير أن يبرز رأسه
... قال :

- اصمتوا ايها الغلمان ... من هناك ؟

فاجبت : هذا أنا .

- ومن أنت ؟

- جورج جاكسون يا سيدى .

- ماذا تريد ؟

- لا أريد شيئا يا سيدى ... كنت سائرا فى طريقى ولكن
الكلاب اعترضتنى .

- ولماذا تتسكع هنا فى هذا الوقت من الليل ؟

- اننى لا اتسكع يا سيدى ... لقد سقطت من القارب فى
النهر ...

- اوه ... احقا ؟ ليوقد احدكم مصباحا ... ما اسمك
مرة أخرى ؟

- جورج جاكسون يا سيدى ... اننى غلام ...

— اصغ الى . اذا كنت تقول الصدق فلا شيء يدعو لك للخوف،
فلن يؤذيك أحد . . . لكن لا تحاول الهرب . . . قف حيث أنت . . .
هيا أيقظوا « بوب » و « توم » وهاتوا البنادق . . . هل معك أحد
يا جورج جاكسون ؟

— كلا يا سيدى ، لا أحد معى .

وسمعت هرجا ومرجا داخل المنزل، وبدأ من فيه يستيقظون ،
كما أضىء مصباح . وقال الرجل يحدث شخصا :

— ابعدى المصباح أيتها المغفلة (يتسى) . . . أليس فى رأسك
ذرة من العقل ؟ ضعيه على الأرض خلف الباب الأمامى . . . وأنتما
يا بوب وتوم ، اذا كنتما على استعداد فخذا مكانكما .

— نحن مستعدان .

— والآن يا جورج جاكسون . . . هل تعرف آل تبردسون ؟

— لا يا سيدى . اننى لم أسمع عنهم !

— قد يكون الأمر كذلك ، وقد لا يكون . . . والآن ، استعدوا
جميعا . . . تقدم يا جورج جاكسون . . . لكن لا تسرع . . . تقدم
ببطء شديد ، واذا كان أحد معك فلا تدعه يقترب والا أطلقنا
النار عليه . . . هيا تقدم ببطء . . . افتح الباب بنفسك . . .
افتحه بما يكفى لدخولك فقط . . . هل تسمعنى ؟

ولم أسرع ، فلم يكن ذلك فى مقدورى حتى ولو أردته ، وتقدمت
خطوة فخطوة نحو الباب بغير أن أسمع صوتا سوى دقات قلبى .
وكانت الكلاب صامتة كأصحابها ، ولكنها تبعتنى على مسافة
قصيرة جدا . وعند ما بلغت الدرجات الثلاث الخشبية المؤدية الى
الباب سمعت من بالداخل يفتحون الأقفال والمزالج ، فوضعت
يدى على الباب ودفعته قليلا قليلا ، الى أن قال شخص من
الداخل : « كفى . . . أدخل رأسك من الباب » . . . ففعلت ،
وقد خيل الى أنهم سينتزعونها .

كان المصباح موضوعا على الأرض ، وكان الجميع واقفين وهم يحملون في وجهي وأنا أحمل فيهم بدوري ، وظللنا على هذه الحال حوالى ربع دقيقة ... كان هناك ثلاثة عمالقة يحملون بنادق مصوبة الى ، مما جعلنى أجفل . وكان أكبر هؤلاء الرجال أشيب الشعر فى حوالى الستين من عمره ... أما الاثنان الآخران فكانت سنهما حوالى الثلاثين ؛ وكانوا جميعا حسنى الطلعة متأنقين . وكانت هناك أيضا سيدة جميلة بيضاء الشعر ، وخلفها سيدتان شابتان لم أستطع رؤيتهما جيدا ...

وقال الكهل : أظن أن كل شئ على ما يرام ... أدخل . وما كدت أدخل ، حتى أغلق الكهل الباب بالأقفال والمزاج ، وطلب من الشابين أن يتقدما ببندقيتيهما ، ومضى الجميع الى قاعة استقبال كبيرة ، غطيت أرضها بسجادة جديدة ، وتجمهروا جميعا فى ركن بعيد عن النوافذ الأمامية للمنزل . وكانوا يحملون المصباح ، فتأملونى مليا على ضوءه ، وقالوا جميعا : « انه ليس من أسرة شبردسون ... ليست به أية ملامح من هذه الأسرة » ... ثم طلب الى الكهل ألا أغضب اذا فتشنى ليتأكد من أننى لا احمل سلاحا . وقال انه لا يبغي الاساءة الى أو جرح شعورى . ولكنه لم يضع يده داخل جيوبى وانما اكتفى بتحسسها من الخارج . ثم قال انه مكتف بذلك ، وطلب الى أن أستريح وأن أعتبر نفسى فى منزلى ! ..

ولكن السيدة الكبيرة قالت :

— ان ملابس الغلام مبتلة يا سول ، ثم ألا تظن انه جائع ؟

— أصبت يا راشيل . لقد غاب عني ذلك .

وقالت السيدة للخادمة الزنجية بيتسى : اذهبى واحضرى له شيئا من الطعام بأسرع ما تستطيعين ، مسكين هذا الغلام ... ولتذهب احدى الفتاتين لتوقظ « باك » وتخبره بالأمر ... أوه

... ها هو قد جاء ... « باك » ... خذ هذا الغريب الصغير ،
ودعه يخلع ثيابه المبتلة وقدم له بعضا من ملابسك الجافة .
كان « باك » فى حوالى سنـى - فى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة
- ولكنه أضخم منى بنيانا . ولم يكن يرتدى غير قميص . أما
شعره فكان غير مصفوف . وأقبل الغلام نحوى وهو يتتأب
وفرك عينيه باحدى يديه ، ويحمل بندقية فى اليد الأخرى ثم
قال : ألا يوجد أحد من أسرة شبردسون هنا ؟

فأجابوه بالنفى وبأن ما سمعوه كان كذبا !!
- تعال ... لو جاء بعضهم فلا شك فى أننى سأقضى على
أحدهم .

فضحكوا جميعا ، وقال بوب : لقد كان من المحتمل أن يفتكوا
بنا يا « باك » لأنك تأخرت طويلا !!
- مهما يكن من أمر ، فان أحدا لم ينادنى .. وهذا خطأكم ..
انكم دائما تتجاهلوننى ..

فقال الكهل : هون عليك يا « باك » . سوف تشاهد المعارك
فى حينها ، فلا تقلق بالك من هذه الناحية .. امض الآن وافعل
ما قالته لك أمك .

وعندما صعدنا الى غرفة الغلام بالطابق الثانى، أحضر لى قميصا
خشنا ، وسروالا من ملابسهم فارتديتهما . وبينما أنا أرتدى
هذه الثياب سألتنى الغلام عن اسمى ولكنه لم يدع لى فرصة
لل كلام ، فمضى يحدثنى عن الطائر أبو زريق والأرنب اللذين ظفر
بهما فى الغاب منذ يومين ، وسألتنى أين كان موسى عند ما انطفأت
الشمعة ، فأجبتة باننى لا أعلم ، لاننى لم أسمع عن شىء من ذلك
من قبل .

فقال : حسنا ، اذن تكهن .

فقلت : وكيف أتكهن ، ما دمت لم أسمع أحدا يحدثنى عن هذا الموضوع ؟

— ولكنك تستطيع التخمين .. أليس كذلك ؟ ان الأمر سهل ..

فقلت : أية شمعة ؟

فقال : أى شمعة .

فقلت : اننى لا أعلم أين كان موسى .. فأين كان ؟

— يا الهى .. كان فى الظلام .

— حسنا .. ما دمت تعرف أين كان ، فلماذا تسألنى ؟

— انها « فزورة » ألم تفهم ذلك ؟ أخبرنى ، الى متى ستبقى هنا ؟

عليك أن تقيم هنا معنا حتى نقضى معا أوقاتا سعيدة كثيرة ..

فان المدرسة مغلقة فى الوقت الحاضر .. هل تملك كلبا ؟ اننى أملك

واحدا — وهو قادر على السباحة فى النهر ليحلب لك قطعة

البطاطس التى تلقيها فيه .. هل تحب تصفيف شعرك فى أيام

الاحاد وما شابه ذلك من الحماقات ؟ صدقنى اننى لا أحبها ،

ولكن أُمى هى التى تتولى أمر مظهرى .. لعنة الله على السراويل

الطويلة ، ولكننى مرغم على ارتدائها رغم اننى لا أحبها .. انها

تزعجنى بما تشيعه فى الجسم من دفء .. هل أنت على استعداد ؟

حسنا .. هلم بنا .

ووجدت لحما باردا وزبدا وقشدة فى انتظارى على المائدة ،

وهو ما لم اذقه من أمد طويل . ودخن « باك » وأمه والجميع

الا الزنجية التى كانت قد انصرفت ، والسيدتين الصغيرتين ..

كانوا جميعا يدخلون ويتكلمون . أما أنا فكنت آكل وأتكلم .

وكانت السيدتان الصغيرتان تلتفان فيما يشبه السارى ، وقد

تدلى شعرهما وراء ظهريهما . وراح الجميع يوجهون الأسئلة الى ،

فرويت لهم قصة خيالية مؤداها ان أبى وأنا وجميع الأسرة كنا

نقيم فى مزرعة صغيرة عند نهاية « أركانسو » ، وان أختى

« ماري آن » هربت وتزوجت ولم نسمع عنها أى نبأ بعد ذلك ، وكيف أن « بيل » ذهب للبحث عنها ولكنه لم يعد ثانية . وكيف مات « توم » و « مورت » ، فلم يبق إلا أبى وأنا ، وكيف أن أبى أفلس وكاد يموت جوعا ، وكيف اننى جمعت القليل الذى تبقى ورحلت ، لأن المزرعة لم تكن ملكا لنا ، وكيف أردت عبور النهر على ظهر قارب بخارى ، فسقطت فى الماء ، وهذا هو السبب فى وجودى فى هذه المنطقة ! فقالوا اننى أستطيع أن أقيم معهم اذا رغبت فى ذلك . وكان النهار قد أوشك على الطلوع فى ذلك الحين ، فأوى كل شخص الى فراشه ، وآويت أنا الى الفراش مع « باك » . وعند ما استيقظت فى الصباح كنت قد نسيت اسمى المستعار ، فبقيت راقدًا فى الفراش زهاء ساعة وأنا أحاول عبثا أن أتذكره ، ثم استيقظ « باك » فقلت له : هل تستطيع التهجية يا « باك » ؟

فأجاب : نعم .

فقلت : أراهن على أنك لا تستطيع تهجية اسمى ؟

— أراهن أنك لا تجرؤ على الاقدام على هذا الرهان !

فقلت : حسنا ، دعنى أر اننى مخطيء .

فقال : ج — و — ر — ج . . ج — ا — ك — س — و — ن . .
فما رأيك ؟

فقلت : حسنا ، لقد أثبت جدارتك .

ورحت أكرر الاسم وتهجيته فى رأسى خشية أن يطلب أحد الى ذلك .

كانت أسرة لطيفة ، وكان المنزل جميلا أيضا . بل انه لم يسبق لى أن رأيت منزلا فى الريف بمثل هذا الجمال والزخرف . لم تكن بباب المنزل (سقاطة) من الحديد أو الخشب مشدودة الى خيط تجذب منه ، وإنما كان به مقبض نحاسى يدار كما هى الحال فى

منازل المدن ، وكانت هناك مدفأة كبيرة شيدت قاعدتها بالطوب الأحمر ! وفي بعض الأحيان كان أصحاب المنزل يغسلون هذه القاعدة بماء مذاب فيه طلاء أحمر مثلما يفعلون في المدن . كذلك رأيت ساعة موضوعة فوق منتصف رف المدفأة ، رسمت فوق النصف الأسفل من واجهتها الزجاجية صورة مدينة ، كما رسمت دائرة في وسطها تبين الشمس ، وبذلك تستطيع أن ترى البندول وهو يتأرجح خلفها . وكان لصوت الساعة وقع جميل على الأذن . وكان يحدث أحيانا أن يكون أحد اخصائى الساعات مارا بالمنزل ، فيطلب اليه أصحابه ضبط الساعة فتبدأ في الدق ولا تتوقف الا بعد أن تدق مائة وخمسين دقة !! لذلك كان أصحابها يرفضون بيعها مهما بلغ الثمن الذى يعرض عليهم .

وكان هناك ببغاء كبير على كل جانب من جانبي الساعة . . وكان كل ببغاء مصنوعا من شئ أشبه بالطباشير المطفى بلون زاه . والى جانب أحدهما وضع قط مصنوع من الخزف ، وبجوار الآخر كلب من الخزف أيضا ، فاذا ضغطت على أحدهما أطلق صراخا حادا ، ولكنهما كانا لا يفتحان فمهما ، ولا تتغير نظراتهما أو يبدو عليهما الاهتمام . أما هذا الصراخ فكان يصدر من باطنهما . . وكان ينتشر خلف هذه الأشياء جناح ديك رومى كبير على شكل مروحتين . وعلى منضدة فى منتصف الغرفة وضعت سلة جميلة من الخزف امتلأت بالتفاح والبرتقال والخوخ والعنب ، وكانت ألوانها الحمراء والصفراء أجمل من الألوان الطبيعية ، ولكنها لم تكن فاكهة حقيقية ! وكان بوسعى أن أرى الطباشير الأبيض فى بعض مواضعها مما يدل على أنها مصنوعة من « الجبس » ! .

وكان لهذه المنضدة غطاء مصنوع من قماش الشمع الجميل ، له حافة مطبوعة ، كما يحمل صورة نسر منشور الجناحين

باللونين الأحمر والأزرق . وعلمت أنهم جاءوا بهذا الغطاء من فيلاديلفيا كما قالوا ! وكان هناك أيضا بعض الكتب مرتبة بنظام بديع على جانبي المنضدة ، ميزت من بينها انجيل الأسرة وهو مملوء بالصور ، ثم كتاب « رحلة الحاج » وهو يعالج موضوع رجل هجر أسرته ، ولكن الكتاب لم يذكر السبب ! ولقد قرأت بعض فصول هذا الكتاب ، فقد كانت الحقائق الواردة فيه مثيرة للاهتمام ولكنها جافة . ونم كتاب آخر هو (هبة الصداقة) وهو زاخر بالعبارات المنمقة والشعر ، ولكنى لم اقرأه لاننى لا أحب الشعر ! وضمت المجموعة كتاب « خطب هنرى كلاى » وكتاب « طبيب الأسرة » للدكتور جان ، وهو كتاب طبى يخبرك عما يجب أن تفعله عندما يمرض أحد افراد الأسرة أو يموت ! هذا بالإضافة الى كتاب تراتيل ومجموعة من الكتب الأخرى ! وكانت بالمنزل مجموعة من المقاعد الوثيرة التى يرتاح الانسان عند الجلوس عليها .

وكانت هناك مجموعة من الصور معلقة على الجدران ، أهمها صور واشنجطون ولافاييت وبعض المعارك ، وبعض هذه الصور مرسوما بالفحم . وقد علمت انها من رسم فتاة من فتيات الأسرة ، ماتت وهى فى الخامسة عشرة من عمرها ! وكانت هذه الصور تختلف عن أية صور رأيتها من قبل . كان سوادها اكثر من السواد الشائع ، وكانت احداها تمثل امرأة ترتدى ثوبا اسود رقيقا وتضع (شالا) كبيرا اسود فوق رأسها وقناعا اسود ايضا فوق وجهها ؛ وكان ثمة شريط اسود يلتف حول ركبتيها الرقيقتين . وكانت هذه السيدة تتكىء على شاهد قبر بجانب مرفقها الأيمن تحت شجرة صفصاف وهى تبكى ، وقد بدت على وجهها علامات التفكير . أما يدها الأخرى فكانت تحمل منديلا وكيسا صغيرا ، وقد كتب أسفل الصورة « هلا أراك بعد .

الآن ؟ وأسفاه » وكانت هناك صورة ثانية لسيدة صغيرة تبكى في منديل ، وهى تحمل عصفورا ميتا ممددا على ظهره فى يدها الأخرى وكتب أسفل هذه الصورة : « لن أسمع تغريدك العذب بعد الآن ، وأسفاه » . وثمة صورة ثالثة لسيدة تطل من نافذة على القمر والدموع تنساب على خديها وقد أمسكت بخطاب مفتوح فى إحدى يديها بينما راحت تقضم بفمها قلادة معلقة فى عنقها ، وكتب تحت هذه الصورة « لقد ذهبت . . نعم ذهبت - وأسفاه » ، وكانت كلها صورا جميلة فيما أظن ، ولكننى لم احبها لأنها كانت تثير حزنى دائما . وكان جميع أفراد الأسرة أسفين لموت الفتاة لأنها كانت قد وضعت تصميم عدد آخر من الصور لم تستكملها . وكانت الفتاة - قبل موتها - ترسم أعظم صورة رسمتها فى حياتها كما قالوا ! ولقد كانت تبتهل ليل نهار الا تموت قبل أن تفرغ من رسم هذه الصورة ، ولكن الموت اخترمها قبل أن تتحقق أمنيته . . كانت الصورة التى لم تستكملها تمثل شابة ترتدى ثوبا أبيض ، تقف على حاجز قنطرة وتناهب للوثوب فى الماء ، وقد استرسل شعرها على ظهرها وهى تتطلع الى القمر والدموع تنحدر فوق وجنتيها ، وقد عقدت ذراعيها على صدرها بينما بسطت ذراعين آخرين أمامها ، ورفعت ذراعين آخرين نحو القمر ! وكانت الفكرة - كما قالوا - هى معرفة أحسن وضع تكون فيه الذراعان ، ثم تزال بعد ذلك الأذرع الأخرى ! ولكن الفتاة ماتت كما قلت قبل أن تبت فى اختيار الوضع المناسب للذراعين ، فاحتفظت الأسرة بالصورة معلقة بأعلى الفراش الذى كانت الفتاة تنام فوقه فى غرفتها . وكلما حان يوم عيد ميلادها احاطوا الصورة بالزهور . اما فى الأيام الأخرى ، فكانوا يغطونها بستار صغير . وكان للفتاة المرسومة فى الصورة وجه لطيف ، الا ان كثرة الأذرع جعلتها تبدو لى كالعنكبوت ! !

وكانت الفتاة المسكينة تحتفظ بكراسة اعتادت أن تسجل فيها المرائى والحوادث وحالات المرضى الذين يتعذبون . وكانت تكتب فيهم أشعارا جيدة ، ومن بين هذه القصائد رثاؤها لغلام اسمه « استيفن داوولينج بوتس » سقط في بئر فغرق !

واذ كانت « اميلين جرانجرفورت » - وهذا اسمها - قادرة على قرض الشعر وهى فى الرابعة عشرة من عمرها ، فليس هناك أدنى شك فيما كانت تستطيع أن تقرض من قصائد رائعة لو أن القدر مد فى عمرها . وقال « بالك » انها كانت تتكلم بالشعر ! كانت ترتجله . ولا تفكر فيه قبل ان تقوله ! . . وقال انها كانت تكتب شطرا ، فاذا لم تجد شيئا يتفق معه فى القافية والوزن شطبته وكتبت شطرا آخر ، ثم تمضى فى كتابة بقية القصيدة . ولم تكن الفتاة تعالج ناحية معينة ، وانما كانت تكتب عن أى شىء تختاره لها . فكلما مات رجل أو امرأة أو طفل فانها تذهب اليه - حاملة معها « هديتها » - من الشعر - قبل ان يبرد جسده ! . وكانت تطلق على هذه القصائد اسم « هدايا » ! وكان الجيران يقولون ان الطبيب يأتى أولا ، ثم « اميلين » ، ثم حفار القبور ، ولم يسبق حفار القبور « اميلين » الا فى مناسبة واحدة . وعندئذ كتبت قصيدة ملتهبة ظلت ترددها الأفواه فى رثاء الميت . وكان هذا الميت يدعى هويسلر . وبعد هذه المناسبة ساءت حالة الفتاة الصحية ، ومع انها لم تتألم فانها كانت تذوى باستمرار ولم تعش طويلا . مسكينة هذه الفتاة . . لطالما كنت أصعد الى غرفتها الصغيرة والتقط كراسة مذكراتها واقرا محتوياتها عند ما تهولنى صورها وتروعنى . . ولقد احببت جميع افراد الأسرة الموتى منهم والأحياء ، وكنت أعتزم الا أجعل شيئا يقف بيننا . . ولما كانت المسكينة « اميلين » تدبج الشعر عن الموتى وهى على قيد الحياة ، لذلك لم يكن من الصواب الا يرثيها أحد بقصيدة

بعد موتها . ومن ثم فقد عصرت ذهني لأكتب سطرين من النثر .
ولكنني أخفقت !

أما غرفة الاستقبال : فقد كانت جميلة حقاً . . فالستائر
الجميلة تغطي نوافذها . وكانت هذه الستائر بيضاء اللون ، محلاة
بصور مطبوعة لقلاع تتدلى أشجار الكروم من فوق جدرانها ،
بينما تقبل قطعان الماشية لتستقي من جداول الماء ، وكان بالغرفة
معزف صغير عتيق (بيانو) ولم يكن هناك ما هو أجمل من أن
تستمع الى الآنسات وهن يرددن أغنية «لقد تحطمت آخر حلقة» .
أو يعزفن أنسودة « معركة براغ » على المعزف !

الفصل الثامن عشر

الكولونيل «جرانجر فورت» - ارستقراطية -
تار - الكتاب المقدس - (الثعابين المائية) -
استعادة العائمة - كومة الأخشاب - لحم
الخنزير والكرنب - « أهذا أنت يا حبيبي ؟ »

كان الكولونيل «جرانجر فورت» - مضيفى - سيدا مهذبا بمعنى الكلمة . وكذلك كانت أسرته كلها مهذبة .. كان من عنصر طيب المولد كما يقول المثل ؛ ولهذا العنصر بالنسبة للانسان اهمية لا تقل عن اهميته بالنسبة للخيل كما قالت لى الأرملة دوجلاس التى لم ينكر أحد أنها فى مقدمة الارستقراطيين فى بلادنا ! . ولقد قال أبى ذلك أيضا ، مع أنه لم يكن من ذوى الأخلاق الفاضلة .. وكان الكولونيل «جرانجر» رجلا فارع الطول . أما بشرته فكانت سمراء ممتقبة ليس فيها أثر للاحمرار . وكان يحلق وجهه النحيل كل صباح . وكانت شفتاه أرفع شفيتين رايتهما . وكان أنفه طويلا ، كما كان حاجباه كثيفى الشعر . أما عيناه فكانتا سوداوين فاحمتين غائرتين جدا ، حتى لكأنهما تنظران اليك من كهفين . وكانت جبهته عالية ، كما كانت يداه طويلتين رفيفتين . وكان الرجل يرتدى كل يوم قميصا نظيفا وبذلة كاملة من رأسه الى أخمص قدميه ، مصنوعة من كتان ناصع

البياض الى درجة تؤذى عينيك اذا تطلعت اليها . اما في ايام
الاحاد ، فكان يرتدى سترة زرقاء ، لها ذيل بأزرار نحاسية ،
ويحمل عصا من الخشب الفاخر لها رأس من الفضة . ولم يكن
منظر الرجل يوحى بأنه مستهتر أو طائش ؛ كما انه لم يكن يرفع
صوته اثناء الكلام . وكان شفوفا طيب القلب يوحى لمن يراه
بالثقة به . وكان يبتسم أحيانا ، فيبدو منظره لطيفا . ولم يكن
الرجل بحاجة الى تنبيه الناس الى انباع قواعد الأخلاق في
حضرتة ، فقد كانوا جميعا يحترمونه ويحبون أن يتحدثوا اليه .
بل انه كان اشبه بشروق الشمس !. واقصد بذلك انه كان يجعل
الناس يشعرون وكأنهم يستمتعون بدفع حديثه .

وكانت أسرته تحترمه ، فكلما هبط بصحبة السيدة العجوز
من الطابق العلوى كل صباح ، هبت الأسرة كلها واقفة لتحييهما
نحية الصباح ؛ ولا يجلس أحد حتى يجلس الاثنان .

اما أفراد الأسرة - عدا « باك » - فكانوا أربعة . . . « بوب »
أكبر أبناء الأسرة ، ويتلوه « توم » . وكان الاثنان شابين طويلي
القامة جميلين ، عريضى المنكبين ، سمرأوى الوجه ، شعرهما طويل
أسود ، وعيناهما سوداوان . وكانت تيا بهما مصنوعة من الكتان
الأبيض كثياب أبيهما . كما كانا يرتديان قيعنين من قبعات « بناما »
العريضة .

وتأتى بعدهما الأنسة « شارلوت » . وكانت فى الخامسة
والعشرين من عمرها ، طويلة القامة ، تبدو عليها امارات العظمة
والكبرياء ، ولكنها كانت طيبة القلب وهى هادئة ! اما اذا اثرت فان
نظرة تنبعث من عينيها كافية لأن تجعلك تنكمش فى مكانك !
ولكنها كانت - رغم ذلك - جميلة !

اما اختها الأنسة « صوفيا » ، فقد كانت ذات طابع مختلف . .
كانت فى العشرين من عمرها ، رقيقة لطيفة مثل الحمامة .

وكان لكل فرد في الأسرة زنجية أو زنجى يقوم على خدمته ! ولقد كان الزنجى الذى قام على خدمتى مرتاحا الى وجودى ، لانى لم أبهظ كاهله بالعمل ، ذلك اننى لم أعتد الاعتماد على خادم يخدمنى ! أما الزنوج الآخرون ، فقد كان العمل يثقل كواهلهم . تلك كانت حال الأسرة وقتذاك . أما قبل ذلك ، فقد كانت الأسرة أكبر عددا اذ قتل ثلاثة أبناء وماتت ابنة كانت تدعى « اميلين » .

وكان الكهل يملك عددا كبيرا من المزارع وأكثر من مائة زنجى . وفى بعض الأحيان ، كانت مجموعة كبيرة من الناس تفد على المنزل على ظهور الجياد من أمكنة تبعد عشرة أميال أو خمسة عثر ميلا ، ويمكثون بضعة أيام يقومون خلالها برحلات كثيرة حول النهر ويقومون برحلات فى الغابات أثناء النهار ، كما يقيمون حفلات للرقص بالمنزل ليلا . وكان معظم هؤلاء الزائرين من أصدقاء الأسرة الاخصاء . وكان الرجال منهم يحضرون بنادقهم معهم وخلاصة القول كان هؤلاء القادمون على خلق حميد .

وكانت هناك أسر ارسقراطية أخرى تعيش فى هذه المنطقة . . . خمس أو ست أسر ، يحمل معظمها اسم « شبردسون » وهى أسر عريقة تتمتع بالتراء العظيم والجاه مثل أسرة «جرانجفورد» ، وكانت أسرتا « شبردسون » و « جرانجفورد » تستخدمان مرفأ واحدا للقوارب يبعد خوالى ميلين عن المنزل . وكنت أذهب أحيانا مع بعض أفراد الأسرة الى هذا المرفأ ، فأرى هناك أفرادا كثيرين من أسرة « شبردسون » ممتطين صهوات جيادهم الجميلة . وذات يوم كنت و « باك » نصطاد بعيدا فى الغاب ، وسمعنا وقع حوافر جواد مقبل ، وكنا نعبر طريقا فصاح « باك » فجأة : — أسرع ، بادر بالدخول الى الغاب .

واختفينا داخل الغاب على عجل ، ثم أخذنا نختلس النظر من

خلال أوراق الشجر ، وسرعان ما رأينا شابا جميلا مقبلا على الطريق فوق صهوة جواد أصيل . وكان منظر الشاب وسهولة جلسته يجعلانه يبدو كجندى . وكان يثبت بندقيته على كتفه . وكنت قد رأيت هذا الشاب من قبل . . . لقد كان « هارفى شبردسون » الصغير ، وسمعت بندقية « باك » تنطلق بجوار أذنى . وفى التو ، طارت قبعة « هارفى » من فوق رأسه . وجذب الشاب بندقيته واندفع الى المكان الذى كنا نختبئ فيه ، ولكننا لم ننتظر ، فقد اندفعنا نركض بكل قوانا داخل الغاب . ولكن الغاب لم يكن كثيفا ، فتطلعت من فوق كتفى لأتجاشى الرصاص ، فقد رأيت « هارفى » يصبوب بندقيته الى « باك » مرتين ؛ ولكنه سرعان ما كف عن ملاحقتنا وكر عائدا من حيث أتى ليلتقط قبعته فيما أعتقد ، وان كنت لم أره يفعل ذلك ، ولم نتوقف عن الركض حتى وصلنا المنزل . وهناك قابلنا الكهل . . . تألقت عيناه لحظة ، ولم يكن منظره ينبئ عن سرور ، ولكن أسارير وجهه لم تلبث أن انفرجت ، ثم قال بلهجة رفيقة :

— اننى لأحب اطلاق النار من وراء الشجيرات ! لماذا لم تعترض طريقه يا بنى ؟
فقال « باك » :

— ان آل « شبردسون » لا يفعلون ذلك يا أبى !
ورفعت الأنسة « شارلوت » رأسها بكبرياء كما تفعل الملكات ؛ بينما كان « باك » يسرد قصته . ثم انتفخت أوداجها وتألقت عيناه . أما الشابان ، فقد تجهم وجهاهما وان لم ينطقا ببنت شفة . وأما « صوفيا » فقد امتقع لونها ، ولكن الدم لم يلبث أن سرى فى وجنتيها عند ما تبينت أن الكهل لم يثر أو يغضب .
وحينما اختليت بالشاب « باك » قلت له :

— هل كنت تريد قتله يا « باك » ؟

- نعم .
- وماذا فعل لك ؟
- هو ؟ . . . انه لم يفعل شيئاً .
- اذن لماذا كنت تريد قتله ؟
- لا لشيء . . . الا للثأر .
- أى ثأر ؟
- أين نشأت يا هالك ؟ ألا تعرف ما هو الثأر ؟
- اننى لم أسمع هذه الكلمة من قبل ، فسرّها لى .
- فقال « باك » : الثأر هو أن يشتبك رجل مع آخر فى عراك فيقتله ؛ وعندئذ يقوم أخو القتيل بقتل القاتل ، فيقوم أخو القتيل بقتل القاتل وهلم جرا ، الى أن ينتهى الاخوة ؛ فيتولى القتل أبناء العم ! وهكذا يموت الجميع على مر الزمن ، فلا يكون هناك ثأر ! ولكن الأمر يسير ببطء ويستغرق وقتاً طويلاً .
- وهل مضى وقت طويل على هذه الحال يا « باك » ؟
- أظن ذلك . . . لقد بدأ الخلاف منذ ثلاثين عاماً أو أكثر . . .
- فقد نشأ خلاف على شيء ما ، ثم تحول الخلاف الى دعوى قضائية للبت فى الأمر ، وخسر أحد الخصمين القضية طبعاً ، وعندئذ قتل الرجل الذى ربحها !
- وماذا كان سبب الخلاف يا « باك » ؟ .. أرض ؟
- أظن ذلك ، وان كنت لا أعلم على وجه التحقيق .
- ومن الذى بدأ باطلاق النار ؟ أهو أحد أسرة « جرانجفورد » أم أحد أفراد أسرة « شبردسون » ؟
- يا الهى . . . انى لا أعرف ؟ لقد حدث ذلك منذ أمد طويل .
- ألا يعلم أحد ذلك ؟
- أوه . . . بالطبع أبى يعرف . . . كذلك يعرفه بعض الكهول

من أفراد الأسرة الأخرى . . . ولكنهم لا يعلمون الآن لماذا نشأ الخلاف أول الأمر .

— وهل قتل كثيرون يا « باك » ؟

— نعم . . . لقد سارت جنازات كثيرة في تلك الفترة . ولكن كثيرا من الاشتباكات لم تكن تنتهى دائما بالقتل . فقد أصيب أبى عدة مرات ولكنه لا يبالى ، لأنه لا يقيم لمثل هذه الأمور وزنا . . . كذلك أصيب « بوب » و « توم » عدة مرات .

— وهل قتل أحد هذا العام يا « باك » ؟

— نعم . قتل واحد منا وواحد منهم . فمنذ حوالى ثلاثة نهور ، كان ابن عمى « باد » البالغ من العمر أربعة عشر عاما يتطى صهوة جواده فى الغاب على الجانب الآخر من النهر ولم يكن معه سلاح ، وهى حماقة لا تفتقر ؛ وعند ما كان ير ببقة منعزلة سمع وقع جواد مقل فى أثره ، ثم رأى « شبردسون » العجوز يجد فى أثره وبندقيته فى يده وشعره الأشيب يتطاير فى الهواء . وبدلا من أن يترجل « باد » ويلوذ بالغاب ، ظن أنه يستطيع أن يسبق الكهل ، فدارت بين الاثنين مطاردة حامية استمرت خمسة أميال أو أكثر . وكان الكهل يقترب رويدا رويدا من « باد » طوال الوقت . وأخيرا أدرك « باد » أنه لن يستطيع الهرب ، فتوقف واستدار الى مطارده حتى يواجه الرصاص . وتقدم الكهل منه وأطلق عليه النار فأرداه قتيلا ، ولكن القاتل لم يجد متسعا من الوقت للاستمتاع بنصره ، ففى مدى أسبوع واحد قتلت أسرنا . — أعتقد أن ذلك الكهل كان جبانا يا « باك » .

— أما أنا فأعتقد أنه لم يكن جباناً ، فليس بين أسرة « شبردسون » جبناء ؛ كما أنه ليس بين « آل جوانجفورد » جبناء أيضا . لقد قاتل ذلك الكهل ثلاثة من أسرة « جرانجرفورد » ذات مرة ، واستمر القتال نصف ساعة ، ثم خرج منه ظافرا ! .

كانوا جميعا ممتطين صهوات جيادهم ، فأسرع الكهل بالترجل واحتفى خلف كومة صغيرة من الخشب ووضع جواده أمامه ليحميه من الرصاص ، ولكن رجال أسرة « جرانجفورد » ظلوا فوق جيادهم وراحوا يدورون حول الكهل ويمطرونه بوابل من رصاصهم وهو يطرهم برصاصه أيضا . ولقد عاد هو وجواده الى منزله مصابين ، ولكن رجال أسرة « جرانجفورد » لم يستطيعوا العودة ، فقد نقلوا الى المنزل محمولين ، ومات أحدهم في تلك الليلة ، ثم مات آخر في اليوم التالي ! . . . كلا يا سيدى . . . اذا أراد أحد الحديث عن الجبناء ، فخير له ألا يتحدث عن أسرة « شبردسون » ، لأن هذه الأسرة لم تنجب جبناء !



وفي يوم الأحد التالى ، ذهب الجميع الى كنيسة تبعد حوالى ثلاثة أميال عن المنزل . وكان الجميع يمتطون صهوات جيادهم . وأخذ الرجال بنادقهم معهم ، وكذلك فعل « باك » . وكان الواحد منهم يضع بندقيته بين ركبتيه ، أو يسندها الى الجدار حتى تكون فى متناول يده . . . وفعل آل « شبردسون » المثل ! وتحدث الواعظ عن الحب الأخوى والتعاطف ، وقال الجميع انها كانت عظة حسنة ، ولم يكفوا عن الحديث عنها عندما عادوا الى المنزل ، كما أسرفوا فى الحديث عن الايمان والأعمال الطيبة وحسن النية وغير ذلك مما لا أعلمه .

وبعد الغداء بساعة ، كان الجميع يأخذون قسطا من الراحة . . فاستمتع البعض بالراحة وهم جلوس فوق مقاعدهم ، بينما استمتع البعض الآخر بها فى غرفهم مما جعل المنزل يبدو شديدا الكآبة . وكان « باك » وكلبه راقلين فوق الحشائش المشمسة خارج الدار . أما أنا ، فقد سعدت الى غفرتى لأنال قسطا من

النوم بدورى ! والتقيت بالآنسة « صوفيا » الجميلة عند باب غرفتها التى تجاور غرفتنا ، وبعد أن تبادلنا التحية سألتنى أن أودى لها خدمة دون أن أخبر بذلك أحدا قالت أنها نسيت انجيلها بين كتابين كانا موضوعين على المقعد فى الكنيسة ؛ وطلبت منى أن أتسلل من المنزل بهدوء وأذهب الى الكنيسة وأحضر لها انجيلها دون أن أخبر أحدا بذلك .

وتسللت من المنزل ، وانطلقت فى الطريق ، وذهبت الى الكنيسة . ولم أجد بها أحدا اللهم الا خنزيرا أو اثنين ، لأن باب الكنيسة لم يكن مغلقا بقفل والخنازير تحب التمرغ على البلاط أثناء الصيف للاستمتاع ببرودته ! !

وقلت لنفسى أن فى الأمر شيئا ، فليس من الطبيعى أن تبدى إحدى الفتيات مثل هذه اللهفة على انجيلها ! وعند ما هزرت الانجيل سقطت منه قطعة صغيرة من الورق كتب عليها « الساعة الثانية والنصف » بالقلم الرصاص وفتشت الانجيل ولكنى لم أجد شيئا آخر . ولم أستطع أن أفهم معنى هذه العبارة ، فأعدت الورقة الى الكتاب ثانية . وعندما عدت الى المنزل وصعدت الى الطابق العلوى وجدت الآنسة « صوفيا » فى انتظارى عند باب غرفتها . وعندما أخذت الانجيل منى بحثت بين أوراقه حتى عثرت على الورقة . وما أن قرأتها حتى بدا عليها السرور ! وشكرتنى ثم طلبت منى مرة أخرى ألا أخبر أحدا بما فعلت . وكان وجهها شديد التوهج وعيناها لامعتين ، مما جعلها تبدو فاتنة ! ولقد دهشت لذلك أيا دهشة . وما كدت ألتقط أنفاسى اللاهثة حتى سألتها عن تلك الورقة ، فسألتنى ان كنت قد قرأتها ، فأجبت بالنفى ! فسألتنى ان كنت أعرف القراءة فأجبت بالنفى أيضا ! وعندئذ قالت ان قطعة الورق لم تكن أكثر من مجرد علامة لمعرفة المكان الذى توقفت فى القراءة عنده ! ثم صرفتنى لالعب !

غادرت المنزل الى النهر ، وانا افكر فى الأمر . وسرعان ما لاحظت أن خادمى الزنجى يتبعنى من بعد . وعند ما أصبحنا بعيدين عن المنزل تطلع الزنجى خلفه وحوله لحظة ، ثم أقبل راكضا ، وقال :

— اذا جئت معى الى المستنقع يا مستر جورج ، فساريك كمية هائلة من الثعابين المائية !

وعجبت لذلك أشد العجب ، فقد سمعته يقول ذلك بالأمس أيضا . وكان ينبغى أن يدرك هذا الزنجى اننى لا أحب رؤية ثعابين الماء الى الدرجة التى تدفعنى الى البحث عنها ؛ وعندئذ أيقنت أن فى الأمر شيئا !

قلت له : اذن امض امامى !

وتبعته مسافة نصف ميل . وعندئذ اشرفنا على مستنقع خاضه الزنجى الى أن بلغ الماء ركبتيه وانا فى اثره . وبعد أن قطعنا نصف ميل آخر اشرفنا على رقعة أرض مسطحة جافة بها اشجار كثيفة وكروم .

وقال الزنجى : ادخل . . ثم تقدم خطوات قليلة يا مسر جورج وستجد الثعابين المائية . . فقد سبق لى أن رايتها . . ولست أعلم هل ستجدها أم لا !

ثم انشئ وكر عائدا من حيث أتى ؛ وسرعان ما اختفى بين الأشجار ، فرحت أتجول هنا وهناك حتى عثرت على بقعة مكشوفة تحيط بها الكروم من كل جانب . وهناك وجدت رجلا نائما ! وكان هذا الرجل هو صديقى القديم « جيم » !!

أيقظته . . وكنت أتوقع أن تكون رؤيته لى مفاجأة عظيمة له ، ولكنه لم يدهش ! لقد كان مسرورا ، وكان يوشك أن يبكى من فرط الفرح ! وقال لى انه كان يبحث عنى فى تلك الليلة ، وكان يسمع صياحى كل مرة ، ولكنه لم يرد على لأنه كان يخشى ان.

يقبض أحد عليه ويعيده الى حياة العبودية !

ثم قال :

— لقد أصبت في تلك الليلة اصابة خفيفة ولم أستطع السباحة بسرعة ، ولهذا تأخرت عنك طويلا في النهاية . . . ولقد ظننت اننى سأتمكن من اللحاق بك ، ولكنى ما كدت أرى ذلك المنزل حتى أبطأت في سيرى ، ولم ألبث أن سمعت أصحابه يتحدثون اليك ، ولكنى لم أستطع سماع حديثكما لبعدى والخوف من الاقتراب من الكلاب . وعندما هدا كل شيء أدركت أنك دخلت المنزل ، فمضيت الى الغاب حتى يطلع النهار . وفي ساعة مبكرة من الصباح ، أقبل بعض الزنوج في طريقهم الى الحقول فاخذونى وأرونى هذا المكان الذى لا تستطيع الكلاب أن تقتفى أثرى فيه بسبب الماء ، وكانوا يجيئوننى بالطعام كل ليلة وينقلون لى أنباءك .

فقلت له :

— ولماذا لم تطلب من خادمى « جاك » أن يجىء بى الى هنا قبل ذلك ؟

— لم تكن هناك فائدة من ازعاجك يا « هاك » . . . وعلى أية حال ، فاننا بخير الآن . . . اننى أبتاع الآن الآنية والأوعية والضرورات كلما سنحت لى فرصة ، كما اننى أصلح العائمة في الليل عند ما

— أية عائمة يا جيم ؟

— عائمتنا القديمة .

— هل تعنى أن عائمتنا القديمة لم تتحطم تماما ؟

— كلا ، انها لم تتحطم تماما ، وان كان قد أصابها تلف كبير . . . ولكننا فقدنا معظم متاعنا ، فلو أننا لم نغطس الى هذا العمق الكبير تحت الماء ولم يكن الظلام دامسا في تلك الليلة ولم تكن فزعين مذعورين ، لأمكننا انقاذ العائمة بما فيها !

فقلت له :

— وكيف استطعت الحصول على العائمة ثانية يا جيم ؟ .. هل

لحقت بها ؟

— كيف يمكن اللحاق بها وأنا في الغاب ؟ .. لقد عثر بعض
الزئوج عليها مصطدمة بشجرة عند المنحنى القريب من هنا
فأخفوها في خليج بين أشجار الصفصاف . وكان الزئوج يكترون
من الحديث عنها وعن عساه يصبح صاحبها ، فقلت لهم أن أحدا
منهم لن يصبح صاحبها لأنها ليست ملكا لأحد منهم وإنما هي
ملك لك ولى . وحذرتهم من سرقة أى شىء أو اخفاء أى شىء ،
يلكه شاب أبيض ! ثم أعطيت كل واحد منهم عشرة سنتات ،
ففرحوا بذلك وودوا لو جاءت عدة عائمت أخرى ليصبحوا من
الأثرياء ! .. ان هؤلاء الزئوج يعاملوننى خير معاملة ، فكلما طلبت
منهم أن يفعلوا شيئا من أجلى ، بادروا الى تلبية طلبى بلا ابطاء ..
ان جاك زنجى طيب ، فضلا عن انه ذكى !

— نعم ، انه كذلك ، ولكنه لم يقل لى اطلاقا انك هنا ؛ وإنما
طلب منى أن آتى الى هنا ليرينى كثيرا من الثعابين المائية .. فاذا
حدث شىء ، استطاع أن يفلت بجلده من النتائج ويقول — بحق —
انه لم يرنا معا !

* * *

لن أطيل الحديث عن اليوم التالى ، ولعله من الأفضل أن اوجز
فى سرد حوادثه .. لقد استيقظت عند الفجر تقريبا ، وهممت
بالنوم ثانية عند ما لاحظت أن المنزل كان هادئا بشكل غير
مألوف .. لقد خيل الى أنه لا يوجد به مخلوق ، ولم يكن ذلك أمرا
عاديا . ولم ألبث أن لاحظت ان « بالك » غير موجود ، فنهضت
من الفراش وأنا شديد العجب ، وهبطت الى الطابق الأسفل فلم

اجد أحدا .. كان كل شيء هادئا وكأنما تحول المنزل الى مقبرة .
وكان الهدوء مستتباً في الخارج أيضا ، فأخذت أتساءل عن معنى
ذلك . وعندما وصلت الى كومة الأخشاب بالغاب التقيت بخادمي
« جاك » فسألته :

— ما معنى هذا ؟-

فأجاب : ألا تعلم ما حدث يا سيد جورج ؟

— كلا .. لا أعلم شيئا .

— لقد هربت الأنسة « صوفيا » .. هربت أثناء الليل وان
كان أحد لا يعلم متى هربت .. لقد هربت لتتزوج من ذلك
الشاب « هارفي شبردسون » .. هكذا سمعته يقولون ! وعندما
اكتشفت الأسرة الأمر منذ حوالي نصف ساعة وربما ، أكثر قليلا ،
لم تضع وقتا .. بادر الجميع بركوب جيادهم والتسلح ببنادقهم
بسرعة لم يسبق لى ان رأيت لها مثيلا ، أما النسوة ، فقد ذهبن
للاستنجاد بالأقارب ، وأما الكهل « سول » والشبان فقد
حملوا بنادقهم وركبوا جيادهم وانطلقوا الى النهر للحاق بالشاب
وقتله قبل أن يعبر النهر بالأنسة « صوفيا » .. أكبر ظنى اننا
سنشاهد وقتا عصيبا يا سيدى !

— لقد انصرف باك بغير أن يوقظنى !

— اعتقد ذلك .. لم يريدوا اقحامك في الأمر .. لقد حشا
السيد « باك » بندقيته بالرصاص ، وقال انه اما أن يقتل أحد
أفراد أسرة « شبردسون » أو ينفجر غيظا .. وبالنظر الى أن
صداما مروعا سيقع بين الأسرتين ، فمن الأرجح أن تتحقق
أمنيته ! .

وانطلقت نحو النهر بأقصى سرعة مستطاعة ؛ ولم ألبث أن
سمعت صوت طلقات نارية بعيدة . وعندما وصلت الى مخزن
الكتل الخشبية والمرقا الخشبى الذى ترسو القوارب التجارية

عنده ، أخذت ازحف بين الأشجار والأعشاب حتى عثرت على مكان ملائم . ثم تسلقت إحدى الأشجار العالية ، ورحت أراقب ما يحدث ! . . كان هناك أربعة أو خمسة رجال يتواثبون بجيادهم في المنطقة المكشوفة أمام مخزن الخشب وهم يسبون ويتصايحون ويحاولون الظفر بعلامين يحتميان بالمرفاً الخشبي الذي ترسو القوارب التجارية عنده بغير أن يجرؤوا على الخروج من ورائه . وكان الرجال يطلقون النار على الغلامين كلما حاول أحدهما الخروج من مكمته . وكان الغلامان يجلسان القرفصاء ظهراً الى ظهر خلف كومة من الخشب حتى يستطيعا رؤية جانبى الطريق !

وبعد قليل ، كف الرجال عن التواثب والصياح ، وانطلقوا نحو مخزن الخشب . . وعندئذ نهض أحد الغلامين ، ورفع بندقيته من فوق حافة المرفأ وأطلقها . وفى التوسقط أحد الرجال من فوق جواده . وعندئذ ترجل زملاؤه وجذبوا المصاب وبدأوا يحملونه الى مخزن الأخشاب . وفى تلك اللحظة بدأ الغلامان يركضان بكل قوتهما حتى وصلا الى منتصف المسافة بين المرفأ والشجرة التى كنت أختبئ فوقها . وعندئذ تنبه الرجال فوثبوا فوق ظهور جيادهم . . وظلت المسافة بين الغلامين وهؤلاء الرجال تضيق ، ولكن الغلامين استطاعا أن يصلا فى النهاية الى كومة الأخشاب وتسللوا خلفها ، وبذلك أصبحا بأمن من انتقام الرجال ، وكان « باك » أحد هذين الغلامين . أما الغلام الآخر ، فكان شاباً نحيف القامة فى حوالى التاسعة عشرة من عمره . .

وتلكأ الرجال قليلاً ، ثم لكزوا جيادهم واندفعوا مبتعدين . وما أن غابوا عن الأنظار حتى ناديت على « باك » وأنبأته بذلك . ولم يستطع « باك » أن يدرك صوتى المنطلق من فوق الشجرة فى بادئ الأمر . وبدت عليه أمارات الدهشة ، ثم طلب منى أن أراقب المنطقة جيداً وأن أنبهه اذا عاد الرجال مرة ثانية ، وقال

انهم لا شك يدبرون خطة شيطانية وأن غيبتهم لن تطول . .
ولكم تمنيت لو كان في استطاعتى أن أهبط من فوق الشجرة
ولكنى لم أستطع . وبدأ « باك » يبكى ويقول انه وابن عمه جو
(وكان هذا هو الشاب الآخر) لم ينتهيا من مهمتهما في هذا
اليوم . وقال ان أباه وأخويه قتلوا كما قتل اثنان أو ثلاثة من
الأعداء . وقال ان أفراد أسرة « شبردسون » يتربصون له !
ثم قال « باك » انه كان يجدر بأبيه وأخويه أن ينتظروا وصول
أقاربهم ، لأن أسرة شبردسون كانت أقوى منهم كثيرا . وسألته
عما آل اليه مصير « هارفى » الصغير والآنسة « صوفيا » ، فأجاب
بانهما عبرا النهر وأصبحا آمنين . ولقد سررت لذلك ، رغم أن
« باك » كان حزينا وكسيف البال لأنه لم يوفق الى قتل « هارفى »
قبل ان يعبر النهر !

وفجأة ، دوى صوت الرصاص المنهمر من كل مكان . .
فالرجال قد داروا دورة كبيرة في الغاب وجاءوا بجيادهم من
خلف الغلامين ، ووثب الغلامان واندفعا الى النهر ، فأصيب كل
منهما . وبينما كانا يسبحان مع التيار ، ركض الرجال الى
النشاطىء وهم يطلقون الرصاص عليهما ويصيحون « اقتلوهما ،
اقتلوهما » . وهنا دار رأسى وكدت أسقط من فوق الشجرة .
ولكم تمنيت لو اننى لم آت الى النشاطىء في تلك الليلة لأرى مثل
هذا المنظر الرهيب . ان هذا المنظر ما زال يتمثل أمام عيني كثيرا
بالنهار ، ويتراءى لى فى أحلامى . .

وبقيت فوق الشجرة الى أن بدأ الليل يرخى سدوله ، فقد
تملكنى خوف عظيم . وكنت أسمع صوت طلقات البنادق بعيدا
في الغاب ، كما رأيت جماعات صغيرة من الرجال تمر مرتين أمام
مخزن الأخشاب وقد أعدت بنادقها للاستعمال فأدركت أن
المشاكل لم تنته بعد . كان قلبى ينفطر حزنا . . وقررت ألا

أقرب من المنزل مرة أخرى ، لأننى اعتبرت نفسى مسئولا الى حد ما عما حدث ؛ فقد رجحت أن المعنى الذى كانت قصاصة الورق تحمله هو أن تقابل الأنسة « صوفيا » صديقها « هارفى » حوالى الساعة الثانية والنصف لتهرب معه . وحكمت بأنه كان من الواجب على أن أبلغ أباهما بأمر قصاصة الورق هذه وبما بدا من تصرفات ابنته . ولو أننى فعلت ذلك لكان من المحتمل أن يشدد أبوها الرقابة عليها فلا تهرب ، ولما وقعت هذه المذبحة . وعندما هبطت من فوق الشجرة لم أحاول العودة الى المنزل ، وإنما أخذت أضرب فى الغابة حتى بلغت المستنقع . ولم أجد « جيم » فى جزيرته ، فأسرعت مهرولا الى الخليج ، وأخذت أشق طريقى بين أغصان أشجار الصفصاف وأنا أشد ما أكون لهفة على الوصول الى العائمة والرحيل فورا عن هذه المدينة المخيفة ، ولكنى لم أجد أثرا للعائمة ، وانتابنى فزع شديد ، واستعصى على التنفس دقيقة ، ثم أطلقت صيحة ثاقبة ، وعندئذ سمعت صوتا يبعد عنى حوالى ٢٥ قدما يقول :

— أحسنت يا غلام .. أهذا أنت يا حبيبى ؟ لا نحدث أية ضوضاء .

كان ذلك الصوت صوت جيم ، وشعرت حينذاك بأننى لم أسمع صوتا أجمل ولا أعذب منه من قبل . وأسرعت أركض فوق الشاطئ حتى بلغت مكان العائمة ، فوثبت فوقها ، وعندئذ جذبنى « جيم » واحتضننى اعرابا عن سروره لرؤيتى ثم قال : — فليباركك الله يا غلام . لقد كدت أعتقد أنك قتلت .. كان « جاك » هنا وقال انه يعتقد أنك قتلت بالرصاص لأنك لم تعد للمنزل ؛ ومن ثم أعددت العائمة للرحيل ، وكنت سأرحل بها بمجرد أن يعود « جاك » ويؤكد لى أنك قتلت .. يا الهى ، كم أنا مسرور بعودتك يا عزيزى .

فقلت : لن يعثروا على يا « جيم » . . وسيعتقدون اننى قتلت
وأن جشتى غاصت فى النهر ، فهناك ما سوف يجعلهم يرجحون
ذلك ، فلا تضع لحظة من الوقت يا « جيم » . . هيا اطلق العائمة
الى عرض النهر بأقصى سرعة تستطيعها .

ولم أشعر بالارتياح الا عندما أصبحت العائمة فى قلب نهر
المسيبى وعلى مبعده ميل من ميدان المذبحة الرهيبة . وعندئذ
أضأنا مصباحنا وعلقناه بعد أن رجحنا أننا أصبحنا أحرارا
آمنين . ولم أكن قد تناولت طعاما منذ اليوم السابق ، فأعد لى
« جيم » وجبة من الخبز والزبد واللحم والكرنب وبعض الخضروات .
ولم يكن فى الدنيا ما هو أشهى من تلك الوجبة فى ذلك الوقت
العصيب . وبينما كنت أتناول عشاءى ، أخذنا نتحدث وقضينا
وقتا طيبا . . كنت أشعر بأعظم السرور لأننى استطعت الافلات
من الشار . . كذلك كان جيم سعيدا لفراره . . وأخيرا أدركنا أن
« العائمة » خير من جميع المنازل . . فالمنازل كلها ، على ما يبدو ،
مقيدة للحرية خانقة لها ، على حين أن العائمة ليست كذلك .
ففيها يشعر الانسان بأنه حر ومرتاح !

الفصل التاسع عشر

الرسو أثناء النهار - نظرية فلكية -
(الكلاب قادته) - دوق أوف
برديد جووثر - المتاعب الملوكية .

مضى يومان أو ثلاثة ايام . . ومر الوقت بسرعة حتى لكأنه كان يسبح بنا . وكان النهر عريضا جدا ومخيفا في هذه المنطقة . . كان اتساعه يصل أحيانا الى ميل ونصف ميل . . وكنا نبحر بالليل ونختبئ بالنهار . وكنا كلما انقضى الليل ، نكف عن الملاحظة ونرسو . . وكنا نرسو دائما في الماء الراكد تحت شجرة قنب ، ونقطع أعواد اشجار القطن الصغيرة والصفصاف ونغطى بها العائمة لنخفيها عن الأنظار . . تم تلقى بالشخص في الماء لصيد السمك . . وكنا نستحم في النهر حتى ننتعش وتبرد أجسامنا ، ونمضى الى داخل النهر حتى يصل مأؤه الى ما فوق ركبتينا ، ونظل واقفين حتى نرى مطلع الفجر بينما السكون يسود الكون كله ؛ وكأنا الدنيا كلها نائمة اللهم الا تلك الضفادع الكبيرة التي كان نقيقها يعكر صفو السكون من حين لآخر . وكان أول شيء نراه حينما نتطلع عبر النهر ، هو الغابات المنتشرة على الشاطئ المقابل ، ولم تكن نستطيع أن نميز شيئا غير ذلك ؛ وكنا نرى بعد ذلك منطقة مصفرة في السماء ، يزداد اصفرارها ثم ينتشر ، وبعدئذ

يلمع ماء النهر ، ويزداد لمعانا من بعيد ، فلا يبدو معتما كما كان من قبل ، وانما يتحول الى لون رمادى ؛ وعندئذ كنا نرى نقطا صفراء مظلمة تطفو على سطح الماء من بعيد . . وهى مراكب تجارية أو ما شابهها . . كما كنا نرى خطوطا طويلة سوداء هى العائمات . . وكنا أحيانا نسمع صريرا أو أصواتا مختلطة ، ذلك ان السكون المطبق يوحى للانسان بأنه يسمع أصواتا منطلقة من بعيد . . ثم لا نلبث أن نرى خطا فوق صفحة الماء يجعلنا منظره نعرف أن هناك شجيرة فى النهر يرتطم بها التيار المندفع ؛ كما كنا نرى الضباب وهو يتجدد صاعدا فوق صفحة الماء ؛ ثم يجمر لون السماء كما يجمر لون ماء النهر من ناحية الشرق ! كذلك كنا نرى كتلا من الأخشاب عند حافة الغابات بعيدا على الشاطئ الثانى للنهر حيث توجد مخازن الأخشاب . . وبعدئذ كان يهب نسيم عليل ينعشنا ويحمل إلينا رائحة زكية من الغابات المملوءة بالازهار ، ولكنه لم يكن يحمل رائحة زكية بعض الأحيان ؛ فبعض الناس يتركون الأسماك الميتة وغيرها من القاذورات فى العراء فتتلفن وينقل النسيم رائحتها الكريهة الى الأنوف . . وبعدئذ تشرق الشمس ويتسم كل شىء مع شروقها فتمر بنا الطيور وهى تغرد بأعذب الألحان . .

وكنا بعد ذلك نجذب « الشخص » من الماء ونحمل ما علق به من أسماك ، لنعد وجبة ساخنة ؛ وبعدئذ نجلس فى تكاسل ثم ننام . . وكنا بعد أن نستيقظ ، نتطلع حولنا ، وننقق ساعة من الوقت أو نحوها بغير أن نرى أو نسمع شيئا ! ثم لا نلبث أن نرى عائمة تمر من بعيد وفوقها رجل يقطع الأخشاب ، فالتاس كثيرا ما يفعلون ذلك فوق العائمات ؛ فنرى الفأس وهو يلمع الى أعلى ثم يهوى ، فلا نسمع شيئا ، ثم نرى الفأس وهو يلمع عند ارتفاعه ، وعند ما يصل الى ما فوق حامله نسمع قرقرة تحطيم

الأخشاب!.. فصول تحطم الخشب لا يصل الى الأذن عبر
منحة الماء الا بعد وقت طويل .. وكنا نقضى بقية النهار فى كسل
رخمول ، نتطلع الى العائمت والسفن الشراعية التى تمر بنا ..
وفى ذات مرة مرت بنا عائمة ، وربما كانت مركبا تجاريا ، بالقرب
منا .. وكانت قريبة جدا حتى لقد استطعنا أن نسمع صوت
ركابها وهم يتكلمون ويضحكون ويسبون .. سمعناهم بوضوح
ولكننا لم نستطع أن نرى الركاب انفسهم ، فارتعدنا لأن مرورهم
بالقرب منا كان أشبه بمرور « الأرواح » ! فقال « جيم » انه
يعتقد انها أرواح !

وكنا كلما حل المساء ، نندفع بالعائمة فى النهر .. وعندما نبلغ
قلب النهر تقريبا ، نكف عن توجيهها وندعها تطفو أينما يدفعها
التيار ، ثم ندلى ساقينا فى الماء ونتحدث فى مخلف الموضوعات !
وفى بعض الأحيان كنا نتمتع بالنهر كله وحدنا ، لفترات طويلة
من الزمن ... كنا نملك كل شىء ... الشيطان والجزر فى عرض
النهر ... وكنا نرى كل شىء ... ضوء الشموع التى تلمع من
وراء نافذة أحد الأكواخ ... وشرارة او اثنتين تنبعثان من عائمة
أو سفينة تجارية ... وكنا نسمع كل شىء ... صوت قيثارة
أو أغنية تنبعث من إحدى العائمت ... والحق ان الحياة فوق
العائمة كانت جميلة وحلوة ... فالسما فوقنا نزر كشها النجوم .
وكم كنا نستلقى على ظهورنا ونتأملها ونتساءل عما اذا كانت قد
صنعت أم وجدت ! قال لى جيم يوما انها صُنعت ، ولكنى قلت
انها وجدت ، لأننى اعتقد أن صناعة هذا العدد الكبير من النجوم
يستغرق وقتا طويلا جدا ، فقال جيم انه فى استطاعة القمر أن
يصنعها ... وبدأ لى هذا القول معقولا فلم أعارضه ... فقد
رأيت ضفدعة تضع صفادع كثيرة جدا ! ومن ثم بدا لى أنه فى

المكان القمر أن يضع هذا العدد من النجوم ! وكنا نراقب النجوم
التي تهوى ونراها وهي تندفع الى الأرض في شكل خيط من
الضوء ، فقال جيم إن هذه النجوم فسدت أثناء « فقسها »
فهوت من أعشاشها !!

وكنا نرى - مرة أو اثنتين أثناء الليل - قاربا بخاريا ينساب
في الظلام ، وكان هذا القارب ينقث ، بين آن وآخر ، مئات من
النور من مداخله ، فتتساقط كالطر في النهر في منظر جميل
خلاب ، ثم لا تلبث القوارب أن تطفئ أنوارها وتتوقف محركاتها
فيعود الهدوء الى النهر مرة أخرى ؛ ولكن الأمواج لا تلبث أن تصل
إلينا فتهمز العائمة قليلا ؛ وبعدئذ لانسمع شيئا غير نقيق الضفادع !
فاذا ما جاوز الليل منتصفه ، آوى القوم الذين على الشاطئ
الى فراشهم ، وساد الظلام الشاطئين لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات ،
واخفت الأضواء المنبعثة من قمرات الأكواخ . . . وكانت هذه
الأضواء هي ساعتنا ! وكان أول ضوء يظهر بعد ذلك ، يعنى أن
الصباح في الطريق ، وعندئذ كنا نبحث عن مكان نرسو فيه
ونختبئ بلا إبطاء .

وعند فجر أحد الأيام ، عثرت على قارب ، فعبرت فرعا للنهر
لا يزيد عرضه على مائتى ياردة قاصدا الشاطئ الرئيسى ،
ومضيت في النهر زهاء ميل حتى بلغت منطقة غابات أشجار
السرو لأرى ان كان فى استطاعتى أن أحصل على كمية من الكريز ؛
وبينما كنت أمر بمكان منعزل ، أقبل رجلان يركضان بأسرع
ما يستطيعان ، وخيل الى اننى من الهالكين ؛ فقد كنت اعتقد دائما
اننى و « جيم » مطاردان . . . وهممت بالابتعاد عنهما سريعا ،
ولكنهما كانا شديدى القرب منى ، كما راح أحدهما ينوسل الى
أن أنقذ حياتهما . . . قال انهما لم يرتكبا اثما وانهما يطاردان بلا

سبب . . . ثم قال ان هناك رجالا وكلابا قادمين فى اثرهما ؛
وحاول الوثوب فى القارب ، ولكنى قلت لهما :

— لا تفعل ذلك . . . اننى لا أسمع وقع أقدام الكلاب والجياد
بعد ، ومن ثم فما زال أمامكما متسع من الوقت لتضليل الكلاب
بالدوران حول الغابة والسير فى الممر المنعزل ثم خوض الماء حتى
تصلا الى ؛ فان ذلك خليق بتضليل الكلاب واخفاء اثركما عنها .
وفعلا ذلك ، وسرعان ما أصبحا معى فى القارب ، فانطلقت به
الى حيث أرسينا العائمة . . . وقبل أن تمضى خمس دقائق أو عشر
سمعنا الكلاب والرجال وهم يصيحون من بعيد ويتقدمون نحو
الممر المنعزل ولكننا لم نستطع رؤيتهم ، وخيل إلينا أنهم توقفوا
وراحوا يبحثون عن الهاربين بعض الوقت ، ولكننا لم نلبث أن
ابتعدنا كثيرا عن هذه المنطقة حتى بات من العسير علينا ان نسمع
شيئا من ناحية الشاطئ ، وكنا قد قطعنا ميلا فى تلك الأثناء ،
وخرجنا الى عرض النهر ، فساد الصمت التام ، وعندئذ قصدنا
الى اقرب شجرة قنب فشدنا العائمة اليها وغطيناها بأحطاب
القطن ، وبذلك أصبحنا آمنين .

كان أحد هذين الرجلين فى حوالى السبعين من عمره أو أكثر ،
أصلع الرأس ، أشيب السالفين ، وكان يضع قبعة قديمة مهشمة
فوق رأسه ، ويرتدى قميصا صوفيا أزرق اللون ملطخا بالقاذورات ،
وسروالا أزرق مهلهلا مشدودا الى حمالات مصنوعة فى المنزل ،
لا بل كان مشدودا الى حمالة واحدة ، وكان يحمل على ساعده
« جاكبة » قديمة زرقاء اللون ذات ذيل وأزرار نحاسية ؛ كما كان
يمسك بحقيبة كبيرة منتفخة .

أما الرجل الثانى ، فكان فى حوالى الثلاثين من عمره . . .
وبعد أن فرغنا من تناول طعام الافطار تمددنا فوق ظهورنا وبدانا

نتحدث . وكان اول ما أسفر عنه الحديث مع هذين الرجلين هو
أن أحدهما لا يعرف الآخر !

سأل الرجل الأصلع الرجل الآخر :

— ما الذى أوقعك فى هذه المتاعب ؟

فقال الآخر :

— كنت أبيع مستحضرا لازالة « الطرطير » من الأسنان ...
وكان يزيله فعلا ، ولكنه كان يزيل أيضا لون الأسنان الأبيض !
ولقد اطلت بقائى فى هذا المكان ليلة أكثر مما ينبغى ، وكنب أتهيا
للتسلل والفرار عند ما التقيت بك فى هذا الجانب من المدينة
فاخبرتني أنهم قادمون فى أنرك وتوسلت الى أن اساعدك على
الفرار ، فقلت لك انى أتوقع المتاعب بدورى ، واننى مستعد للفرار
معك ... تلك هى قصتى كلها .

وصمت الشاب تم توجه بالحديث الى الكهل قائلا :

— وأنت ... ما مهنتك أيها الكهل ؟

فقال الكهل :

— طابع بطاقات ... وقد ربحت قليلا من طباعة العقاقير
المسجلة ، كما احرفت التمثيل المسرحى ، واشتغلت بالتنويم
المغناطيسى وعلم الفراسة ، وتدريس الأغانى المدرسية بقصد
التغيير ... وكنت فى بعض الأحيان ألقى محاضرات ... أوه ابنى
ازاول كثيرا من الأعمال — كل شيء تقريبا !!

وانت ماذا كنت تفعل قبل أن تشتغل ببيع مستحضراتك
الطبية ؟ ..

فقال الشاب :

— كنت واعظا ، ولكم كنت سعيدا بهذا العمل ... فقد كنت
ادخل الراحة فى قلوب المصابين بالسرطان والشلل وغيرهم .

وبالإضافة الى الوعظ فأننى عراف أجيد قراءة المستقبل اذا قدم
لى الشخص الذى أقرأ مستقبله بعض الحقائق !!
وصمتنا جميعنا قليلا . وأخيرا تنهد الشاب وقال : والسفاه !
فقال له الكهل الأصلع : علام تتحسر ؟
فأجاب : أتحسر لأننى تدهورت وانحدرت واضطرت الى
مصاحبة رفاق كهؤلاء !!

ثم انخرط فى البكاء وراح يجفف ركنى عينيه بخرقة بالية .
فقال الكهل الأصلع بصفاقة : يا للعنة ، ألا ترى أن هذه الرفقة
صالحة لك ؟

— نعم ، انها تلائمنى . . . فى حالتى الراهنة ، اذ من ذا الذى
دفعنى الى هذه الوحدة وأنا الحسيب النسيب ؟ لقد فعلت هذا
بنفسى ، وأنا الملولم على ذلك . . . اننى لا ألومكم أيها السادة . . .
بل اننى أبعد ما أكون عن ذلك . . . كما اننى لا ألوم أحدا على
الاطلاق . . . اننى أستحق كل ما حاق بى ، فلتنزل الدنيا بى
أسوأ ما عندها ، فان هناك شيئا واحدا مؤكدا ، ذلك هو وجود
قدر لى فى مكان ما ، فلتمض الدنيا فى السبيل الذى اعتادت أن
تمضى فيه ولتجردنى من كل شيء ؛ ولكنها لن تحرمنى من القبر ،
فسيأتى يوم أرقد فيه فى القبر وأنسى كل شيء ، وعندئذ يستريح
قلبى المحطم التعس !!

وراح الرجل يبكى ، فقال له زميله الأصلع :

— لعنة الله على قلبك المحطم التعس . . . لماذا تفضى بذات
قلبك المحطم التعس إلينا ؟ اننا لم نفعل شيئا لك .
— أعلم أنكم لم تفعلوا شيئا ، ولهذا لا ألومكم أيها السادة . . .
أنا الملولم على ما حاق بى من شقاء . . . نعم ، لقد جلبته لنفسى ،
ولهذا فمن العدل أن أعذب ، ولا يحق لى أن أتأوه !
— وما سبب كل هذا الشقاء ؟

— آه ، انكم لن تصدقونى ... لن يصدقنى أحد ... ان
نكبتى هى مولدى !!

— مولدك ؟ هل تعنى انك ...

فقال الشاب بلهجة جذبة : سافضى اليكم بسرى أيها السادة ،
لأننى أثق بكم ... اننى دوق بحكم القانون !

وبرزت عينا « جيم » من محجريهما حين سمع كلمة « دوق » .
وأكبر الظن أن عيني برزتا أيضا
وعندئذ قال الأصلع :

— احقا ؟ هل تعنى ما تقول ؟

— نعم .. ان جدى الأكبر ، وهو أكبر أبناء « دوق بريديجووتر »
هرب الى هذه البلاد فى أواخر القرن الماضى ليستنشق عير الحرية
وتزوج هنا ثم مات ، وترك ابنا ... ولقد مات هذا الابن تاركا
طفلين فى الوقت ذاته تقريبا ... واغتصب الابن الثانى للدوق
اللقب والضياع ، متجاهلا بذلك الدوق الحقيقى وهو الطفل ! وانا
هو سلالة من ذلك الطفل! ... اننى « دوق بريديجووتر » الشرعى!
وها أنتم تروننى بأئسا شريدا ، محروما من ضياعى ، مطاردا ،
محتقرا فى هذا العالم ، مهلهل الثياب ، منهوك القوى ، محطم القلب ،
متدهورا الى درجة تضطرنى الى مرافقة المجرمين الهاربين على
عائمة !! ..

وشعر « جيم » بمثل ما شعرت به ... شعر بكثير من الشفقة
عليه ، وبدلنا قصارى جهدنا لمواساته ، ولكنه قال ألا جدوى من
ذلك لأننا لن نستطيع أن نواسيه كثيرا ؛ وان اهتمامنا به واعترافنا
به ربما كان أفضل من أى شىء آخر ... فوعدناه بذلك ، اذا دلنا
على الطريقة الصحيحة . فقال انه يجدر بنا أن ننحنى له حينما
نتحدث اليه ، وأن نناديه قائلين : « يا صاحب السمو » أو « ياسيدى

اللورد « أو « يا صاحب السعادة » ! وانه يجب على أحدنا أن يقوم على خدمته عند ما يتناول الطعام !

وكان ما طلبه منا أمرا سهلا ، فلبيناه . . . فكلما تناولنا طعام الغداء ، قام « جيم » على خدمته وهو يقول له : « هل تريد قليلا من هذا الطعام أو ذاك يا صاحب السمو ؟ » وهلم جرا . . . وكان ذلك يدخل السرور في قلب الرجل !

أما الكهل ، فانه كان يلوذ بالصمت ولا يتحدث مع أحد . . . وكان يبدو عليه الضيق من تدليلنا للدوق ، حتى لقد خيل إلينا أن خاطرا ما يدور في رأسه . . . وبعد الظهر قال الكهل للشاب :
— اصغ الى يا « بريد جووتر » . . . اننى شديد الأسف من أجلك ، ولكنك لست الشخص الوحيد الذى يعانى من مثل هذه المتاعب . .

— أحقا ؟

— نعم . . . لست الوحيد . . . انك لست الشخص الوحيد الذى حرم من مكانته قسرا .
— وا أسفاه . . .

— أقول انك لست الشخص الوحيد الذى يكتنف مولده سر .
تم انخرط الكهل بدوره فى البكاء .
فقال له « الدوق » :
— كفى ، ماذا تعنى ؟

فقال الكهل والدموع تكاد تنهمر من عينيه : هل أستطيع أن أثق بك ؟

فأخذ الشاب يد الكهل وضغطها ثم أجاب : تستطيع أن تثق بى حتى الموت . . . اكشف عن سرى ؟
فقال الكهل :

— اننى ولى عهد فرنسا السابق (دوفينى) .

فانتفضنا ، « جيم » وأنا ، وقال « الدوق » :

— من ؟

— ولى عهد فرنسا السابق . . . نعم يا صديقى . . . تلك هى الحقيقة التى لا مرأى فيها . . . ان عينيك تتعاليان الآن على « دوفينى » التعس المختفى . . . لويس السابع عشر ، ابن لويس السادس عشر ومارى انطوانيت .

— انت ، وفى هذه السن ؟ لعلك تعنى أنك المرحوم شارلمان ، اذ لا ريب انك فى السنة السبعمائة من عمرك الآن على الأقل !!

— ان المتاعب هى التى فعلت بى ذلك . . . المتاعب هى التى جعلتنى أشيب ، وجلبت لى الصلع قبل الأوان . . . نعم أيها السادة ، انكم ترون امامكم الآن رجلا تعسا ، منفيا ، معذبا ، هو ملك فرنسا الشرعى !!

وانفجر الكهل باكيا ، فاضطربت أنا و « جيم » ، ولم نعرف ماذا نصنع . . . كنا نشعر بأشد الأسف ، كما كنا نشعر فى الوقت ذاته بأعظم السرور لوجود هذا الكهل معنا . ومن ثم بدأنا نعامله بمثل ما عاملنا « الدوق » ، وحاولنا أن نسرى عنه ولكنه قال انه لا جدوى من ذلك ، فلا شئ يريحه غير الموت ، وان كان يشعر بشئ من الارتياح المؤقت حينما يعامله الناس طبقا لما تقضى به حقوقه الشرعية . . . أى حينما يركعون عند ما يخاطبونه ، وينادونه بيا « صاحب الجلالة » ، ويقومون على خدمته أولا عند تناول الطعام ، ولا يجلسون فى حضرته الا اذا أذن لهم بذلك . . . ومن ثم بدأنا نعامله كملك ، ونؤدى له هذا العمل أو ذاك ، ونقف الى أن يأذن لنا بالجلوس . . . ولقد رفع ذلك من روحه المعنوية فتهلل وشعر بالارتياح ، ولكن ذلك ضايق « الدوق » ، الذى يبدو انه شعر بأن الرياح جرت بما لا تشتهى سفينته ! ولكن الملك ظل يعامله بلطف ، وقال ان جد الدوق الأكبر وجميع دوقات

« بريدجووتر » الآخرين كانوا موضع اهتمام أبيه ، فكان يسمح لهم بالاكثار من المجيء الى القصر ... لكن « الدوق » ظل صامتا ولم يقل شيئا الا بعد أن قال « الملك » :

— يبدو أننا لن نبقي معا فترة طويلة على هذه العائلة يا « بريدجووتر » ... فلماذا تحزن ؟ يحسن بك أن تنسى أحزانك حتى تصبح الحياة سهلة هينة ! لست ملوما لأننى لم أولد دوقا كما أنك لست ملوما لأنك لم تولد ملكا ! فما فائدة القلق ؟ استمتع بكل ما تلقىه الحياة فى طريقك ... هذا هو شعارى ... اكبر ظنى ان الأقدار قد أحسنت بالتقائنا هذا ، حيث الحياة سهلة هينة ... هلم اعطنى يدك أيها « الدوق » ودعنا نصبح أصدقاء !

وصافحه « الدوق » ، فسررت أنا و « جيم » أبلغ السرور لذلك ، فقد زال التوتر الذى كان يسود علاقة الرجلين ، اذ كان من أشد بواعث الضيق أن يسود الخصام فريقا من ركاب العائلة، لأن أهم ما يجب أن يتحقق على العائلة هو ارتياح كل شخص والشعور بالعطف على الآخرين وحبهم .

ولم يطل بى الوقت لأقرر أن هذين الكاذبين لم يكونا كما زعما ... ملكا ودوقا ... وإنما هما راعيان وضيعان ... ولكنى لم أقل شيئا ، واحتفظت بهذا الرأى لنفسى ، فقد كان ذلك أفضل تصرف، حتى لأثير الشحناء والمتاعب. فماذا يضيرنى اذا خاطبتهما بالقباب الملوك والدوقات ما داما يريدان ذلك ، وما دام ذلك هو السبيل الوحيد للمحافظة على سلام الأسرة ! كذلك لم تكن هناك أية فائدة ترجى من اطلاع « جيم » على الحقيقة المرة ... ولذلك لم أقل له شيئا . ولئن كان هناك شيء تعلمته من أبى ، فهو أن أفضل طريقة لمسيرة هذا الطراز من الناس ، هو أن أدعهم يمضون فى سبيلهم !! ...

الفصل العشرون

((هالك)) يشرح - اعداد حملة - عقد اجتماع
في المعسكر - التسورد الخبيث - قرصان
في اجتماع المعسكر - الدوق يشتمل
بالطباعة - مطلوب القبض على ((جيم)) *

امطرنا الرجلان بوابل من الأسئلة . . . كانا يريدان أن يعرفا
لماذا نغطى العائمة بهذه الطريقة ، ولماذا نختفى بالنهار بدلا من
الاستمرار في رحلتنا ، وهل كان ((جيم)) زنجيا هاربا ؟
فقلت : يا الهى . . . وهل يذهب زنجى هارب الى الجنوب ؟
فاجابا بأن ذلك مستحيل . . . ولما كان من الضروري ، أن أشرح
الموقف كله ، فقد قلت :

- كانت أسرتى تقيم في مقاطعة « بايك » بولاية « ميسورى »
حيث ولدت . وقد مات أفرادها جميعا الا أنا وأبى وأخى « ايك »
. . . وقرر أبى أن يصفى أعماله ويرحل ليقيم مع عمى « بن »
الذى يملك منزلا صغيرا على النهر ، على مبعدة أربعة وأربعين ميلا
جنوب « اورليانز » . وكان أبى فقيرا جدا وغارقا فى الديون ،
ومن ثم فانه حينما صفى موقفه لم يتبق له سوى ستة عشر
دولارا وهذا الزنجى « جيم » . ولم يكن هذا القدر من المال كافيا

لسد نفقات رحلة نهريّة طولها ألف وأربعمائة ميل . كذلك لم تكن هناك وسيلة أخرى للقيام بهذه الرحلة والخاصة ، أنه عندما فاض النهر ، حالف الحظ الحسن أبى ذات يوم ، فعثر على هذه العائمة . فقررنا أن نستخدمها في رحلتنا النهريّة الى « اورليانز » ولكن الحظ الحسن لم يلازم أبى طويلا ، إذ سرعان ما اصطدم قارب بخارى بالعائمة ذات ليلة فسقطنا جميعا في البحر ورحنا نسبح على غير هدى واستطعنا أنا و « جيم » أن ننجو سالمين ، ولكن أبى غرق ، كما غرق أخى « ايك » الذى كان في الرابعة من عمره . وصادفتنا متاعب جمّة في اليومين التاليين ، لأن الناس كانوا يجيئون إلينا دائما بقواربهم طمعا في أخذ « جيم » منى قائلين انهم يعتقدون انه زنجى هارب ولذلك فاننا لا نبحر بالنهار الآن ، وانما نبحر بالليل حتى لا يضايقنا أحد .

فقال « الدوق » : دعونى أفكر حتى أعثر على طريقة تمكنا من الابحار نهارا اذا أردنا ذلك سأفكر في الأمر من جميع نواحيه سأعثر على طريقة للتغلب على جميع العقبات وعلى أية حال ، من الخير لنا ألا نبحر نهارا اليوم ، حتى لا يمر بهذه المدينة التى تلوح لنا أثناء النهار ، فقد لا يكون المرور بها في صالحنا .

وعند ما اقترب الليل ، وأخذ الظلام ينشر سراقه على الكون ، بدا أن المطر يتحفز للانهمار ، بينما كان ضوء البرق يلمع حولنا وأخذت أوراق الأشجار تهتز ولقد كان من السهل التكهّن بذلك فلاذ « الدوق » و « الملك » بالكوخ الهندى بحجة فحص الفراش ! وكان فراشى عبارة عن كومة من القش ، ولكنه كان أفضل من فراش « جيم » الذى كان مصنوعا من سيقان القمح الجافة التى تتخذ منها العناكب مأوى لها . تتسلل منه الى النائم فتؤذيه ! وكانت أعواد القمح الجافة تتكسر تحت النائم ، فينطلق منها صوت أشبه بالصوت الذى ينبعث عند ما يسير

المرء فوق أوراق الخريف الجافة المتينة ، وهو صوت يوقظ النائم من نومه . . . وبعد أن فحص « الدوق » الفراش قال انه سينام على سريري ، ولكن « الملك » لم يوافق على ذلك قائلا :

— في رأيي أن فارق الرتب بيننا لا يجيز أن أنام أنا على فراش من سيقان القمح ، فثم عليه أنت يا صاحب السمو « الدوق » ! وتملكني الخوف أنا و « جيم » ، خنسية أن ينشب الخلاف بينهما مرة أخرى ؛ ولهذا سررنا غاية السرور حينما قال « الدوق » :

— ان سوء حظي يلازمي دائما ويضعني في الحضيض تحت تقل وطأة الاضطهاد ! . . لقد حطم سوء الحظ كبريائي ، فاستسلمت ، هاأنذا استسلم على « طول الخط » لأن ذلك هو نصيبي . انني وحيد في العالم . . . ولست بحاجة الى عزاء لأنني قادر على احتمال العذاب !

وابحرنا عند ما هدا الطقس وساد الظلام . . . وطلب « الملك » منا أن نلزم قلب النهر ، بقدر طاقتنا ، وألا نوقد المصباح قبل أن نبتعد كثيرا عن المدينة . . . وبعد قليل ، رأينا مجموعة صغيرة من الأضواء تنبعث من المدينة ، فمررنا بها على بعد ميل ونصف ميل . . . وعند ما ابتعدنا عنها ثلاثة أرباع الميل ، أشعلنا مصباحنا وعلقناه في مكانه . وحوالي الساعة العاشرة بدأ المطر يتساقط ، واشتد الرعد والبرق . . . وعندئذ طلب « الملك » منا أن نظل ساهرين للمراقبة ريثما تتحسن الحالة الجوية . تم انسل هو و « الدوق » الى الكوخ الهندى ليناما . . . وعلى الرغم من أن نوبة المراقبة حتى منتصف الليل لم تكن من نصيبي ، فأنني لم انم . . . فقد كانت العاصفة هوجاء . . . كان زفيف الريح مخيفا ، وكان البرق يلمع بين الحين والحين ، فيضيء ذوائب الأشجار في دائرة قطرها نصف ميل ، بينما كانت الجزر تتراعى لى كالحة بين قطرات المطر المنهمر . . . كذلك كانت الأشجار تتمايل تحت شدة

وطأة الريح ، ثم لا يلبث قصف الرعد أن يدوى بعنف ، ويزداد انهمار المطر ، ثم يلمع البرق مرة أخرى . . . وهكذا دواليك . . . وكادت الأمواج العاتية تكتسحني من فوق العائمة ، ولكنى لم أعبأ بذلك .

ثم حلت نوبة المراقبة التالية . . . وكانت من نصيبي . ولكننى كنت أشعر بنعاس شديد فى تلك الأثناء ، فقال « جيم » انه سيؤدى نصفها الأول بالنيابة عنى ، فتسللت الى الكوخ ، لأستريح ، ولكننى لم أجد لى مكانا ؛ فقد كان « الملك » و « الدوق » يملآن المكان كله ؛ فرقدت خارج الكوخ غير عابىء بالمطر ، لأن الطقس كان دافئا ، ولأن الأمواج لم تكن ترتفع فوق مستوى العائمة فى تلك الأثناء ، ولكن الأمواج لم تلبث أن ثارت نانية حوالى الساعة النانية ، فحاول « جيم » ايقاظى ، ولكنه لم يلبث أن كف عن المحاولة بعد أن اعتقد أن الأمواج لم تكن من الشدة بحيث تبلغ مكانى . . . ولقد كان مخطئا فى ذلك ، اذ سرعان ما ارتفع الموج فجأة وغمر سطح العائمة واكتسحني من فوقها . وكاد جيم ينفجر من فرط الضحك حينما اكتسحني الموج ! . . . فقد كان « جيم » رجلا مرحا بسيطا !

وتوليت المراقبة بعد ذلك . . . ونام « جيم » وراح يغط فى نومه ، ثم لم تلبث العاصفة أن هدأت تماما . . . وعند ما ظهر أول شعاع من ضوء النهار ، أيقظت « جيم » وأرسينا العائمة فى أصلح مكان صادفنا ثم لانا بمخبا يخفيننا عن أعين الرقباء . . .

وبعد الافطار ، أخرج « الملك » مجموعة قديمة من ورق اللعب وراح يلعب مع « الدوق » . وحينما انتابهما الاعياء ، وفرغا من اللعب ، أخرج « الدوق » من حقيبته المتفخة مجموعة من الاعلانات المطبوعة وراح يقرأ محتوياتها بصوت مرتفع . . . وكانت هذه الاعلانات تحتوى على مايلى : يلقي الدكتور ارماند الباريسى المشهور

محاضرة فى علم الفراسة فى المكان « الفلانى » فى يوم « كذا » . . .
وسعر الدخول ثمانية سنتات . . . وسيقدم لمن يشاء تقريراً
مفصلاً عن نفسه مقابل خمسة وعشرين سنتاً . . . وقال «الدوق»
انه هو هذا الدكتور !! . . . ثم قرأ اعلاناً آخر وصف نفسه فيه
بأنه « الممثل الدرامى العالمى جاريك من لندن » ! ثم قرأ اعلانات
أخرى أطلق فيها على نفسه أسماء أخرى ، وزعم فيها انه قادر
على أن يأتى بالمعجزات !

ثم قال : « ولكن التمثيل المسرحى هو أحب الأعمال الى قلبى . .
هل سبق لك أن سعدت الى خشبة المسرح يا صاحب الجلالة ؟ »
فأجاب « الملك » : لا !

— اذن ستصعد اليها قبل أن تنقضى ثلاثة أيام أيها العظيم
الهاوى . . . سوف نستأجر صالة فى أول مدينة كبيرة نصل اليها
ونمثل منظر مبارزة بالسيف من مسرحية ريتشارد الثالث ، ومنظر
الشرفة من مسرحية روميو وجوليت . . . فما رأيك فى ذلك ؟

— اننى مستعد لأداء أى شىء يدر على نقودا ، ولكنى لا أعرف
شيئاً عن التمثيل المسرحى ، ولم أشاهده كثيراً ، فقد كنت صغيراً
جداً عند ما كان أبى يقيم الحفلات التمثيلية فى القصر ، فهل تعتقد
أنك تستطيع أن تعلمنى التمثيل ؟
— ان ذلك سهل ميسور .

— حسناً . . . اننى شديد اللفتة على تعلم شىء جديد . ان
التمثيل عمل غير تجارى !!

ومضى « الدوق » يحدثه عن « روميو » و « جوليت » ، وقال
انه اعتاد أن يمثل دور « روميو » ، ومن ثم فعلى « الملك » أن يمثل
دور « جوليت » ! . . .

فقال الملك : لكن « جوليت » فتاة صغيرة . . . وأنا أصلع
وسالفاى الأشيبان لا يصلحان لدور فتاة صغيرة !

— لا تقلق بالك . . . ان هؤلاء القرويين لن يفتنوا الى ذلك . .
وأهم ما في الأمر أنك سترتدى ثوبا نسائيا وفي هذا ما يكفى ! . . .
ستقف « جوليت » في شرفة لتستمتع بالقمر قبل أن تأوى الى
فراشها وهى مرتدية قميص نومها ، وتضع قبعتها الليلية فوق
رأسها . . . ها هى ملابس أدوار جميع المسرحيات ! . . .
وأخرج عدة أبواب مصنوعة من القماش الأبيض قال انها
« العدة الحربية » التى كان « ريتشارد الثالث » والشاب الآخر
يستعملانها فى القرون الوسطى ! تم أخرج أيضا قميص نوم وقبعة
ليلية من القماش ذاته ! وأعرب « الملك » عن ارتياحه ، فأخرج
« الدوق » كتابه وقرأ منه الأدوار بطريقة تمثيلية مذهشة وهو
يشب وبمثل فى الوقت ذاته ، ليبين كيف يجب أن تؤدى هذه الأدوار .
ثم أعطى الكتاب « للملك » وطلب اليه أن يستظهر دوره جيدا .
وكانت هناك مدينة صغيرة على مبعدة ثلاثة أميال من منحى
النهر . وبعد أن تناولنا طعام الغداء قال « الدوق » انه عثر على
وسيلة تمكننا من الرحيل نهارا دون أن يتعرض « جيم » للخطر .
تم أضاف أنه سيذهب الى تلك المدينة ويرتب كل شيء ؛ فقال
« الملك » انه سيذهب معه ليرى ان كان يستطيع أن يفعل شيئا !
ولما كنا بحاجة الى كمية من البن فقد قال « جيم » انه بحسن بى
أن أذهب معهما فى القارب لأشتري بنا .
وعند ما وصلنا الى المدينة ، لم يكن أحد من أهلها قد استيقظ
بعد . وكانت الشوارع خالية هادئة تماما ، كما هى الحال عادة فى
أيام الأحاد . وعثرنا على زنجى مريد يستمتع بأشعة الشمس
الدافئة فى ساحة خلفية . . . وقال هذا الزنجى ان جميع الناس
ما عدا العجزة والأطفال والمرضى قد ذهبوا لحضور « اجتماع
المعسكر » الذى يعقد فى الغابة الخلفية على بعد ميل من المدينة .
فطلب « الملك » من الزنجى أن يرشده الى مكان هذا المعسكر !

أما « الدوق » فقد قال انه يريد البحث عن دار طباعة .
وسرعان ما عنرنا على دار طباعة فوق حانوت نجار . وكان
الطابعون والنجارون قد ذهبوا جميعا الى الاجتماع بغير أن يفلقوا
أبواب حوانيتهم وكان دار الطباعة هذا مكانا قدرا تنانرت
قصاصات الورق في أرجائه وتلطخت جدرانه بحبر الطباعة ،
وعلقت فوق جدرانه اعلانات تحمل صور جياذ وزنوج هاريين ! .
وفرح « الدوق » فرحا شديدا بعثوره على دار الطباعة وبقي
هناك ! أما أنا و « الملك » ، فقد اتخذنا طريقنا الى « اجتماع
المعسكر » !

ووصلنا الى مكان الاجتماع بعد نصف ساعة ، ونحن نسيل
عرقا ! فقد كان القيظ شديدا في ذلك اليوم ، وكان يوم الاجتماع
حوالى ألف نسمة جاءوا من منطقة قطرها عشرون ميلا . وكانت
الغابة مملوءة بمئات من المركبات والبقر . وكان البقر يرعى البرسيم
الملقى فوق الحشائش ويحرك ذبوله لطرد الذباب . وكانت هناك
حظائر مشيدة فوق أعمدة ، ومسقفة بفروع من الأشجار . . .
وكان الباعة يبيعون عصير الليمون والحلوى والكعك !

وكان الوعاظ منتشرين في كل مكان بين الناس . أما النسوة
فكن يرتدين قبعات شمس . وكان بعضهن يرتدين الفراء . . .
أما الصغيرات منهن فكن يرتدين أثوابا من القماش الأبيض ، بينما
كان بعض الشبان حفاة الأقدام . أما الأطفال فكان بعضهم عراة
تقريبا ، لا يرتدون غير قميص من الكتان ! وكانت بعض النسوة
الطاعنات في السن منصرفات الى أشغال الإبرة ، بينما كانت
الشابات تتفاخرن بجمالهن وشبابهن !

وفي أول حظيرة بلغناها ، كان الواعظ يردد احدى الترانيم ،
فقرا سطرين أنشدهما جميع الحاضرين . وكان الانشاد رائعا
ومثيرا . ثم قرأ الواعظ سطرين آخرين ردهما الحاضرون بعده ،

وهلم جراً . . . وكان الحاضرون يزدادون حماسة كلما فراوا سطوراً جديدة من « الترنيمة » فارتفع صوتهم أكثر فأكثر ، حتى لقد بلغ صوت بعضهم مرتبة الصياح في النهاية . وبعد ذلك بدأ الواعظ يلقي عظته . وكانت نبراته حادة قوية ، وأخذ يتنقل من جانب المنبر الى الجانب الآخر ، ثم لم يلبث أن وقف في منتصفه ومال الى الأمام وهو يحرك يديه وجسمه ! وكان يرفع الإنجيل بين حين وآخر ويفتحه ثم يحركه في هذا الاتجاه أو ذاك مردداً بعض الآيات . وكان الناس يصيحون « المجد لله : آمين » — وهكذا استمر الوعظ وراح الحاضرون يتأوهون ويصيحون قائلين : آمين . . . آمين ! ثم قرأ الواعظ موعظة الجبل . . . فراح الجميع يبكون ويتأوهون ويرتلون !

وفجأة تقدم « الملك » نحو الواعظ وطلب اليه أن يسمح له بالتحدث الى الجمهور فسمح له ! . . .

قال « الملك » للحاضرين انه كان قرصانا ، وانه احترف القرصنة في المحيط الهندي لمدة ثلاثين عاماً ، وان كثيراً من رجاله ماتوا في الربيع الماضي عقب اشتراكهم في معركة حامية ، فعاد الى الوطن ليجمع رجالاً جدد ، وأن اللصوص سطوا عليه وسرقوا كل أمواله . . . !!

ثم قال انه سعيد بذلك ، فالمحنة التي حلت به جعلته يتذوق طعم السعادة لأول مرة في حياته . ثم قال انه — رغم فقره وافلاسه — سيعود بلا ابطاء الى المحيط الهندي ويقضى ما بقى من حياته في هدابة القراصنة الى الطريق السوى ، وانه رغم ما قد يستغرقه وصوله الى هناك من وقت طويل بسبب افتقاره الى المال ، سوف يصل في النهاية ليهدى القراصنة ! ثم قال انه كلما استطاع أن يقنع قرصانا بالتوبة سيقول له « لا تشكرنى ، ولا تنسب الى أى فضل ، لأن الفضل كله راجع الى هؤلاء القوم

الأعزاء الذين التقيت بهم في اجتماع المعسكر ببوكفيل ، هؤلاء
الإخوة المحسنين للجنس البشرى كله . . . وهذا الواعظ أيضا
الذي يعتبر أصدق صديق ظفر به قرصان .
ثم انفجر « الملك » باكيا ، فانفجر الجميع باكين أيضا . وعندئذ
صاح أحد الحاضرين « اجمعوا له نقودا . . اجمعوا له نقودا . . »
وعلى الفور تاهب ستة رجال ليتولوا جمع النقود ، ولكن شخصا
صاح « دعوه ير بقبعته على الجميع » ، فردد الجميع هذا القول
كما رددته الواعظ أيضا .

وبدأ « الملك » يسير بين صفوف الحاضرين وهو يحمل قبعته
في إحدى يديه ، ويجفف عينيه بيده الأخرى ، والكل يباركونه
ويتمدحونه ، وينسكرون لما يديه من عطف على القراصنة
المساكين . وكانت الفتيات الجميلات تتقدمن إليه والدموع
تنسال من عيونهن ليطلبن إليه أن يسمح لهن بتقبيله حتى
يتذكرنه ، فكان يسمح لهن بذلك ، بل لقد احتضن بعضهن وقبلهن
خمس أو ست مرات !! ودعاه المجتمعون إلى البقاء معهم
أسبوعا . وكان كل واحد منهم يطلب منه أن يقيم بمنزله قائلين
أن ذلك يعتبر شرفا عظيما ، ولكنه اعتذر قائلا أنه لما كان هذا
آخر يوم في اجتماع المعسكر فإنه لا يستطيع البقاء ، كما أنه أشد
ما يكون لهفه على العودة إلى المحيط الهندي لهداية القراصنة !!
وعند ما عدنا إلى العائمة ، وبدأ « الملك » يحصى التبرعات ،
نبين له أنه جمع سبعة وثمانين دولارا وخمسة وسبعين سنتا !
وكان « الدوق » يعتقد حتى تلك اللحظة أنه حقق عملا عظيما
بعثوره على دار العليانة . . ولكنه لم يلبث أن أدرك أنه لم يحقق
شيئا عظيما . حينما علم بما فعله « الملك » ! كان « الدوق » قد
طبع لوحيتين صغيرتين باعهما بأربعة دولارات ! كذلك أتفق على
نسر إعلانات قيمتها عشرة دولارات حصل على أربعة دولارات

منها . وكان قد حصل على قيمة ثلاثة اشتراكات في الصحيفة التي تصدرها دار الطباعة ؛ وجمع في مقابل ذلك دولارا ونصف دولار ، مع أن قيمة الاشتراك الحقيقية دولاران !! . . وهكذا جمع تسعة دولارات ونصف دولار ، فظن أنه أصاب حظا حسنا في ذلك اليوم ! . . ولكنه احتقر نفسه حينما علم أن « الملك » جمع سبعة وثمانين دولارا وخمسة وسبعين سنتا !! .

ثم أطلعنا « الدوق » على صورة طبعها ! . . وكانت الصورة تمثل زنجيا هاربا وهو يحمل حزمة من الحطب فوق كتفه ، وقد كتبت تحنها عبارة تقول « مكافأة ٢٠٠ دولار لمن يعثر عليه » . . وكان الوصف المسجل تحتها ينطبق تماما على « جيم » . فقد جاء في هذا الوصف ان الزنجى هارب من مزارع « سانت جاك » التي تبعد أربعين ميلا جنوب نيوأورليانز ، وأنه هرب خلال الشتاء الماضي ، ومن المحتمل انه ذهب شمالا . . وسيحصل من يستطيع العثور عليه على المكافأة والنفقات ! !

وقال « الدوق » : والآن ، يمكننا أن نبحر نهارا اذا أردنا . . وكلما رأينا أحدا مقبلا نحونا شددنا وثاق « جيم » ووضعناه داخل الكوخ الهندى ، ثم نعرض الاعلان على كل شخص قادم ونقول له اننا قبضنا على « جيم » فى النهر ، ولما كنا فقراء لا نستطيع السفر بقارب بخارى ، فقد اشترينا هذه العائمة بالتقسيط من بعض الأصدقاء ، واننا ذاهبون لتسليم الزنجى الهارب والحصول على المكافأة ! !

وقلنا لأنفسنا ان الدوق نابغة ، وانه لم يعد هناك ما نخشاه من الابحار فى وضح النهار ؛ وقدردنا أننا نستطيع ان نقطع ، فى تلك الليلة ، أميالا تكفى لابعادنا عن الضجة التى سوف تحدث فى المدينة الصغيرة نتيجة لما فعله « الدوق » فى المطبعة ، فنصبح بمنجاة من كل مطاردة ، وبعدئذ يمكننا أن نمضى فى رحلتنا أن شئنا .

ولذنا بالهدوء والسكينة ، ثم تسللنا من مخبأنا فى الساعة
العاشرة تقريبا وركبنا العائمة دون ان نشعل المصباح . . وظللنا
كذلك الى أن أصبحنا خارج نطاق المدينة .
وعند ما نادانى « جيم » الساعة الرابعة صباحا لاتولى
المراقبة ، قال :
- هل تظن اننا سنلتقى بملوك آخرين أثناء هذه الرحلة
با « هاك » ؟
فقلت : لا . . . لا اظن ذلك .
فقال : هذا حسن اذن . اننى لا ابالى بوجود ملك او اثنين
معنا . . ولكننى لا أطيق أكثر من ذلك !!
وحاول « جيم » أن يجعل « الملك » يتكلم بالفرنسية حنى
يعرف ما هي ، ولكن « الملك » قال انه قضى وقتا طويلا فى هذه
البلاد ونسى اللغة الفرنسية !! .

الفصل الحادي العشرون

تدريب على المبارزة بالسيف - مناجاة
« هملت » - التسكع في المدينة - مدينة
خاملة - « بوجز » الصبوح - صوت « بوجز » .

كانت الشمس قد أشرقت منذ فترة ، ولكننا مضينا في
رحلتنا بغير أن نرسو . . وبعد قليل خرج « الملك » و « الدوق »
من داخل العائمة . وبعد أن فرغنا من تناول الافطار ، اتخذ
« الملك » مجلسه في ركن العائمة وخلع حذاءه ، ولف نهاية سرواله ،
ثم وضع قدميه في الماء لينتفش . وأشعل غليونه ، وبدأ يستذكر
دوره في مسرحية « روميو وجولييت » عن ظهر قلب . وعند ما
ألم به الماما كافيا بدأ يؤديه مع « الدوق » ! وكان « الدوق »
مضطرا الى تدريب « الملك » على أداء الدور كما ينبغي مرة بعد
أخرى . فكان يشرح له كيف ينطق بكل عبارة ، وكيف يتنهد ،
ويضع يده فوق قلبه . . وبعد قليل قال « الدوق » ان « الملك »
يؤدي دوره بطريقة لا بأس بها تم قال محدثا « الملك » : يجب أن
تتجنب النطق باسم « روميو » بتلك الطريقة التي تشبه خوار
التور . . يجب أن تنطقه بصوت رقيق ، عليل ، واه ، هكذا -

ر - و - م - ي - و . . فان « جوليت » فتاة صغيرة ساذجة حلوة أقرب ما تكون الى الطفولة ! ولهذا ، فانها لاتخور كالثور . . وفي اليوم التالى ، أحضر « الدوق » زوجا من السيوف الطويلة كان قد صنعهما من خشب البلوط ! وراح « الدوق » يؤدى دور ريتشارد الثالث . وكم كان منظر الرجلين رائعا وهما يتبارزان فوق العائمة ! ولكن « الملك » تعثر وسقط فى اليم ، فانتشله « الدوق » !

وبعد الفداء ، قال « الدوق » : . . يجب ان نجعل من مسرحياتنا عرضا من الطراز الأول . . ومن ثم اعتقد انه ينبغى لنا ان نضيف الى ادوارنا « رتوشا » نرد بها على النظارة كلما طلبوا الينا ان نعيد ادوارنا !! فقال « الملك » : وكيف ؟

فقال « الدوق » : كلما طلب الينا النظارة ان نعيد دورا ، سارد عليهم بالنفخ فى مزمار « البحارة » ! أما أنت . . دعنى أفكر . . . آه . . . تستطيع أن تؤدى دور « مناجاة هاملت » ! - مناجاة هاملت ؟ ما هى ؟

- مناجاة هاملت هى أشهر دور فى مسرحية شكسبير . . آه ، انها مناجاة رائعة تحرك مشاعر النظارة . . انها ليست موجودة فى كتابى هذا ، لأننى لا أملك الا جزءا واحدا من المسرحية . . ولكنى أعتقد اننى أستطيع ان أسترجعها من الذاكرة ! . دعنى أحاول !

ثم راح « الدوق » يقطع العائمة جيئة وذهابا وهو مستغرق فى التفكير حيناً ، عاقدا ما بين حاجبيه حيناً آخر ؛ ثم يرفع حاجبيه ويضغط جبهته بيده ويترنح الى الوراء ويطلق نوعا من الانين ، ثم يتنهد وتسيل دمعة من عينيه . . لقد كان منظره يدعو للاعجاب . وبعد قليل ، استطاع أن يتذكر المناجاة ، فطلب

الينا أن نصغى اليه ، ثم وقف أنبل وقفة ومد احدى ساقيه الى
الأمام وبسط يديه الى أعلى ، وننى رأسه الى الخلف ثم تطلع الى
السماء ، ثم انفجر يعوى طوال القاء المناجاة ! وكان يدور حول
نفسه وقد نفخ صدره . . والحق اننى لم أر تمثيلا مثل هذا من
قبل !

ولقد أعجب « الملك » بهذه المناجاة ، وسرعان ما أجاد القاءها ،
فبدا كما كان يعرفها منذ مولده ! وكان ، كلما فرغ من أداء
دوره ، بلوح بيديه فى الهواء ، وببكى ويتراجع الى الوراء بنسكل
يسترعى الاعجاب !

وعند ما أتاحت لنا أول فرصة ، بادر « الدوق » بطبع بعض
الاعلانات ، ثم مضى يومان أو ثلاثة كانت العائمة أثناءها من أكثر
أماكن العالم تفجرا بالنشاط ! فقد كان « الدوق » و « الملك »
منهمكين فى المبارزة بالسيف والاستعداد للتمثيل ! وذات صباح ،
رأينا مدينة صغيرة عند منحنى كبير للنهر ، فرسونا على مبعدة
ثلاثة أرباع الميل منها فى مدخل فجوة كانت أشجار السرو تغلفها
فتجعلها أشبه بالنفق . وركبنا جميعا - ما عدا جيم - القارب
وذهبنا الى هذه المدينة لنرى ان كنا نستطيع اقامة حفلاتنا
المسرحية فيها .

وبلغناها فى فرصة مواتية ! فقد كان القوم يستعدون لاقامة
« سيرك » بعد ظهر ذلك اليوم ، وبدأ أهل القرى يتدفقون على المدينة
وهم يركبون جميع أنواع المركبات القديمة ويمتطون صهوة جيادهم .
وكان « السيرك » قد قرر مغادرة المدينة قبل حلول الظلام ، فانتهز
« الدوق » الفرصة واستأجر فناء حوله سياج . . ثم ألصقنا
اعلاناتنا على هذا السياج ! وكانت هذه الاعلانات تقول :

« أحياء مسرحيات شكسبير »

« عرض مدهش »

((ليلة واحدة فقط))

((أعظم ممثلى الدراما شهرة فى العالم))

((دافيد جاريك الصغير ، من مسرح درورى لين بلندن))

((و))

((آدموند كين الأكبر من مسرح رويال هايماركت ، هوانيشابيل))

((بادينج لين ، بيكادلى ، لندن ، ومسارح أوروبا الملكية))

((فى مشهد رائع لحدى مسرحيات شكسبير - عنوانه))

((منظر الشرفة))

((فى مسرحية))

((روميو وجولييت))

((روميو مستر جاريك))

((جولييت مستر كين))

((تعاونهما مجموعة كاملة من ممثلى الفرقة))

((مبارزة بالسيف على المسرح))

((من مسرحية ريتشارد الثالث))

((ريتشارد الثالث مستر جاريك))

((ريتشموند مستر كين))

كذلك

(وبأذن خاص تقدم الفرقة)

مناجاة هاملت الخالدة

يؤديها الممثل المشهور كين

((أداما . ٣٠٠ ليلة متوالية فى باريس))

((تعرض ليلة واحدة فقط))

((بسبب ارتباطات الفرقة بالعمل فى أوروبا))

((الدخول ٢٥ سنتا ، والأطفال والخدم ١٠ سنتات))

ثم أخذنا ننسكع في المدينة . . كانت حوانيتها ومنازلها أبنية قديمة لم تتناولها يد الطلاء . وكانت جميعها مرفوعة فوق الأرض ثلاثة أو أربعة أقدام حتى لا يصل إليها ماء النهر عندما بفيض . وكان حول كل منزل حديقة صغيرة لا ترى فيها إلا الأعشاب السامة وعباد الشمس وأشجار الدردار فضلا عن الأحذية البالية والزجاجات المحطمة ، والخرق والصفائح التي لم نعد ذات نفع . أما « الأسوار » فكانت مصنوعة من أنواع مختلفة من الخشب تثبت بها المسامير في مواضع مختلفة وتميل في كل جزء منها . ولم يكن للأبواب غير « مفصلة » واحدة مصنوعة من الجلد . وكان بعض هذه « الأسوار » قد عرف الطلاء في أحد الأيام ، فقد قال « الدوق » انه يعتقد ان هذا الطلاء تم في عهد « كولبس » ! وكنا نرى في معظم هذه الحدائق خنازير كان الناس يسوقونها الى الخارج . . . وكانت جميع الحوانيت مركزة في شارع واحد ، ولها جميعا مظلات أمامية . وكان القرويون يشدون جيادهم الى أعمدة هذه المظلات ، كما كانت هناك صناديق سلع فارغة تجمع حولها المتسكعون طوال النهار ، يفنشونها حيناً ، ويمزقونها بمداهم حيناً آخر ، وهم يلوكون الطباق بين أسنانهم ويتشاءبون ويتمطون بكسل ، وقد ارتدى معظمهم قبعات من القش أصفر اللون ! وكانوا ينادون بعضهم البعض بأسماء « الدلع » مثل « بيل » و « ياك » و « هانك » و « جو » و « اندى » ! وكانوا يتحدثون بكسل ويكثرون من ألفاظ السباب في أحاديثهم ! وكان كثير منهم يستندون الى أعمدة مظلات الحوانيت وقد وضعوا أياديهم في جيوب سراويلهم . فلا يخرجونها منها الا حينما يريدون وضع مزيد من الطباق في أفواههم أو حك جلدتهم ! أما الحديث الذي كان يدور بينهم طوال الوقت فكان كما يلي :

— اعطنى مضغة من الطباق يا « هانك » .

— لا أستطع ، فأننى لا أملك الا « مضفة واحدة » . . . اطلب من « بيل » .

وربما يعطى « بيل » السائل ما يريد ، وربما يكذب ويقول انه لا يملك شيئاً من الطباقي ! . ولم يكن بعض هؤلاء المتسكعين يملكون سناً واحداً ولا « مضفة » طباقي واحدة اللهم الا عن طريق الاقتراض ! فتراهم يقولون لزملائهم بودى لو أعطيتنى مضفة با « جاك » ، فقد أعطيت « بن تومسون » آخر مضفة معى ! وفى معظم الأحيان يكون هذا القول كاذباً ، ولكنه لا ينطلى الا على الغرباء ! ولكن « جاك » ليس غريباً . ومن ثم تراه يقول :

— هل اعطيته مضفة ؟ أعد الى المضفات التى سبق ان اقترضتها منى با « ليف باكنر » ، وسوف أقرضك طناً أو اثنين من الطباقي فيما بعد !

— حسناً ، ألم أرد اليك بعضها ؟

— نعم ، حوالى ست مضفات . . . فقد اقترضت منى طباقياً فآخرًا ولكنك أعدت لى طباقياً رديئاً !
نم يمضى الحديث بينهم على هذا المنوال !

وكانت جميع شوارع المدينة ودروبها مملوءة بوحل أسود كالقار ، وقد يبلغ عمقه قدما فى بعض الأماكن ، وبوصتين أو ثلاث بوصات فى جميع الأماكن ! وكانت الخنازير تتسكع فى كل مكان ، فكنت ترى « خنزيرة » ومجموعة من الخنازير الصغيرة مقبلة بكسل فى الطريق ثم لا تلبث أن تتمرغ فى الوحل أحيانا ، فيضطر الناس الى الدوران حولها . وقد تتمطى « الخنزيرة » وتغلق عينيها وتحرك أذنيها بينما ترضع الخنازير الصغيرة وقد بدت عليها علامات السعادة كما لو كانت قد حصلت على ثمن عملها !! . . . ثم كنا نسمع متسكعا يصيح قائلا : « هيا يا غلام ، اضرب هذه الخنزيرة » وعندئذ تبادر الخنزيرة بالهرب وهى تطلق صوتا كئيبا ، بينما

يتوائب كلب أو اثنان على كل أذن من أذنها ، ويحاول أكثر من
عشرين كلبا آخر اللحاق بها . وعندئذ ينهض المتسكعون جميعا
لمراقبة هروب الخنزيرة فيضحكون وقد استخفهم الطرب وبدأت
عليهم علامات الارتياح لهذه الضوضاء ! ثم يعودون الى تسلمهم
واسترخائهم في انتظار معركة تنشب بين الكلاب ، فليس هناك
ما يمكن أن يوقظ هؤلاء المتسكعين ويجعلهم سعداء دواما مثل
معركة تنشب بين الكلاب ! اللهم الا اذا وضع أحدهم سائل
« التربنتين » فوق كلب ضال ، فيحترق جسمه ؛ أو حاول لسع
ذيله فيركض بجنون . . . أما عند الشاطئ ، فقد كانت بعض
المنازل قائمة داخل النهر ذاته ؛ وقد انحنت ومالت وأوشكت على
السقوط فيه ، فهجرها الناس ، بينما تأكل الشاطئ تحت بعض
هذه البيوت وأصبحت شبه معلقة في الفضاء ، ومع ذلك ظل
الناس مقيمين فيها رغم ما يتهددهم من خطر ! فقد تنهدم هذه
المنازل في أى وقت !

وكلما اقترب وقت الظهيرة ، ازدادت حركة المركبات والجياد
في الشارع ؛ وازداد صخب الناس القادمين من الريف الى
المدينة ! فهؤلاء القرويون يأتون الى المدينة حاملين معهم طعاما
يأكلونه في المركبات أو على صهوات الجياد في الشارع . وكثيرا ما
كانت تدور بين الناس معارك ومشاجرات بين الحين والحين ! واننى
لأتذكر اننى سمعت في ذلك اليوم شخصا يصيح :

— ها قد أقبل « بوجز » العجوز قادمنا من الريف . ها هو قد
جاء أيها الفتيان ليحصل على جرعة الشهرية من الخمر !

وارتسم السرور على وجوه الشبان المتسكعين جميعا ، فأيقنت
انهم اعتادوا الاستخفاف ببوجز العجوز .
وقال أحدهم :

— شد ما أعجب من الذى سيكون ضحية خمر « بوجز »
هذه المرة :

وأقبل « بوجز » يتهاذى فوق صهوة جواده وهو يسعل ويصيح
قائلا :

— أفسحوا الطريق فاننى مقبل ، والويل لمن يعرضنى .
كان الرجل ثملا ، وكان يترنح فوق جواده . . . كان فى حوالى
الخمسسين من عمره ، ذا وجه شديد الاحمرار . وراح الجميع
بصرخون فى وجهه ويضحكون منه ، ويشتمونه فيشتمهم بدوره
مهذبا اياهم بأنه سينكل بهم بعد أن يفرغ من مهمته ! . . . فقد
جاء — كما قال — ليقتل « الكولونيل شربيرن » !
ورآنى « بوجز » ، فأقبل نحوى وقال : من أين جئت يا بنى ؟
هل تهيأت للموت ؟

نم انصرف عنى وقد ركبى الفزع ، فقال أحد الرجال :
— لا تخف منه ، فانه ليس جادا فى تهديده . . . انه يفعل ذلك
كلما لعبت الخمر برأسه . . . انه أحرق كهل فى المدينة كلها — ولكنه
لا يؤذى احدا سواك اكان ثملا أم غير ثمل !
ومر « بوجز » بأكبر حانوت فى المدينة ، فمال برأسه الى الأمام
حتى يستطيع الرؤية من أسفل ستار المظلة ثم صاح :
— تعال هنا يا « شربيرن » . . . تعال وواجه الرجل الذى
احتلت عليه . . . انك الكلب الذى جئت من أجل قتله ! . . .
سوف أنكل بك !

ومضى « بوجز » يسب « شربيرن » بكل كلمة بذيئة استطاع
تذكرها ، فازدحم الشارع بالناس الذين كانوا يسمعون ويضحكون
تم يمشون لشأنهم . وبعد قليل ، خرج من الحانوت رجل بادى
الكبرياء يرتدى أجمل وأفخم ثياب رأيتها فى هذه المدينة ، فتراجع
الناس ، وقال الرجل مخاطبا « بوجز » ببطء وبصوت هادى .

— لقد ضقت ذرعا بصخبك ، ولكنى سأحتملك حتى الساعة الواحدة فقط . . . فتذكر ذلك . . . لأنك اذا أهنتنى بعد هذا الموعد فستندم على ذلك .

ثم دار على عقبه واختفى داخل الحانوت ، فبدت علامات الجد على وجوه الناس ؛ وانطلق « بوجز » مبتعدا وهو يسب « شربين » ويلعنه بأعلى صوته حتى بلغ نهاية الشارع ، ولكنه سرعان ما عاد مرة أخرى ووقف أمام الحانوت وهو يشتم . . . وتجمع بعض الناس حوله وحاولوا أن يرغموه على الصمت ولكنه رفض ، فقالوا له ان الساعة ستبلغ الواحدة بعد خمس عشرة دقيقة ، ولهذا يجب عليه أن يعود الى منزله بلا إبطاء . ولكن « بوجز » لم يستمع اليهم . وراح يسب ويشتم بأعلى صوته ، ثم ألقى بقبعته فى الوحل وترك جواده يطأها بحوافره . وسرعان ما مضى الى نهاية الشارع وهو يرغى ويزبد ، وشعره الأشيب يتطاير فى الهواء . ولقد حاول الناس ارغامه على أن يترجل من فوق جواده ليقودوه الى مكان يبقى فيه ريشما يفيق من الخمر ولكنهم أخفقوا ؛ فقد مضى « بوجز » فى شتائه . وفى تلك اللحظة ، قال أحد الواقفين :

— اذهبوا الى ابنته . . . اسرعوا بالذهاب الى ابنته . فهو يستمع اليها أحيانا . . . وليس هناك من يستطيع اقناعه غيرها . وانطلق أحدهم الى منزل الابنة ! وبعد خمس أو عشر دقائق ، عاد « بوجز » مرة أخرى ، ولكنه لم يكن ممتطيا صهوة جواده هذه المرة . . . وأخذ يترنح فى الطريق وهو مقبل نحوى عارى الرأس وقد تأبط ذراعيه صديقان وهما يحثانه على السير . وكان الرجل هادئا بآدى القلق ، ولكنه لم يكن يقاوم مرافقيه ، وإنما كان يسير معهما . وقال أحد الرجال :

— بوجز !

وتطلعت لأرى المتكلم ، فاذا به « الكولونيل شربيرن » .. كان يقف فى عرض الطريق وقد حمل فى يده اليمنى مسدسا موجهها نحو السماء . وفى تلك اللحظة ، أقبلت فتاة صغيرة وهى تركض ومعها رجلان . واستدار « بوجز » ومرافقاه ليروا من الذى ناداه . وعند ما رأوا المسدس وثب الرجلان ، فوجه « شربيرن » فوهة المسدس ببطء وتبان نحو « بوجز » ... ورفع بوجز يديه وهو يقول :

« أوآه ... يا الهى ... لا تطلق النار » ! ثم انطلقت الرصاصة الأولى فنرنح « بوجز » الى الوراء ! وانطلقت رصاصة ثانية ، فسقط « بوجز » الى الوراء فوق الأرض ككتلة من الصخر وقد انتشر ذراعاه . وهنا أطلقت الفتاة الصغيرة صرخة ناقبة ، واندفعت فى جنون ، ثم ألقت بنفسها على أبيها وهى تبكى ونصيح « أوآه ، لقد قتله ، قتله » ، وتجمع الناس ، وقد انسأبت أعناقهم ، لرؤية هذا المنظر المؤلم !

وألقي الكولونيل « شربيرن » بمسدسه على الأرض ، واستدار على عقبه ، وسار مبتعدا .

ونقل بعض الحاضرين « بوجز » الى صيدلية صغيرة ، تجمهر الناس حولها . وكان عدد الناس يتضاعف ، حتى لقد خيل لى أن المدينة على بكرة أبيها اجتمعت فى الشارع . ورحت أبحث عن مكان أرى منه ما يحدث ، فتسلقت إحدى النوافذ القريبة من الصيدلية فرأيت الناس يمددون « بوجز » على الأرض ، ويضعون أنجيلا كبيرا تحت رأسه ، ويفتحون أنجيلا آخر وضموه فوق صدره بعد أن فكوا أزرار قميصه ، فرأيت موضع إحدى الرصاصتين ! ... وشهق « بوجز » أكثر من عشر مرات ، فكان صدره يرتفع بالإنجيل وهو يشهق ، ثم يهبط وهو يزفر ، ثم

همدت حركته دليلا على موته ، وعندئذ جذب الناس ابنته بعيداً عنه وهى تصرخ وتناول . . . كانت فى السادسة عشرة من عمرها تقريبا ، موفورة الجمال ، بادية اللطف ، ولكنها كانت مصفرة الوجه مذعورة .

وبعد قليل . كان أهل المدينة كلهم يتدافعون ويتزاحمون محاولين الوصول الى النافذة التى كنت أجلس فوقها ليلقوا نظرة على « بوجز » . . . ولكن الجالسين على قاعدة النافذة لم يمكنوهم من ذلك ، فصاح البعض « لقد شاهدتم ما فيه الكفاية يا هؤلاء ، وليس من الصواب أو العدل أن تبقوا فى أماكنكم بعد ذلك . . . دعوا غيركم يشاهد ما يحدث . . . ان للآخرين حقوقا مثلكم ! »

وحدث هرج ومرج ، فهبطت من فوق النافذة ، بعد أن توقعت كثيرا من المتاعب . . . وكانت الشوارع مزدحمة ، وكان حديث الناس لا ينقطع . . . فقد كان لكل واحد منهم رأى فى الحادث ! وكان كل واحد يروى حقيقة ما حدث لمن لم يره . وكانت هناك جماعات ضخمة من الناس تلتف حول الرواة ، بينما أخذ رجل نحيف طويل القامة ذو شعر طويل ، ويضع بين شفيه غليوناً ضخماً ، يحدد بعصاه المكان الذى كان « بوجز » و « شربير » يقفان فيه . وكان الناس يتبعونه أينما ذهب ويراقبون ما يفعله ويهزون رءوسهم كما لو كانوا يفهمون ما يفعل ، ثم ينحنون الى الأمام ليراقبوه وهو يحدد الأماكن على الأرض بعصاه ، ثم يتطلعون الى المكان الذى وقف « شربير » فيه . وقطب الرجل حاجبيه وجذب قبعته الى أسفل فوق عينيه وقال « بوجز » ! . . . ثم أنزل عصاه حتى أصبحت فى مستوى أفقى وصاح « يانج » (صوت انطلاق المسدس) وترنح قليلا ، وهتف مرة أخرى « يانج » وأتى بحركة تشير الى سقوط « بوجز » على ظهره .

ولقد قال لى الذين رأوا المأساة ان الرجل أجاد ممثيل الحادث حتى
لقد بدا تمثيله صورة طبق الأصل لما حدث ! ثم استبد الانفعال
بأحد الناس فقال انه يجب أن يشنق « شربين » . وسرعان
ما ردد الجميع قوله ، وبدأوا يتفرقون وهم يصيحون بجنون
وينتزعون « حبال الفسيل » التى تصادفهم فى الطريق ليشنقوا
« شربين » بها ! . .

الفصل الثانی والعشرون

((شربيرن)) - مشاهدة السيرك - سكير
في الحلقة - المأساة المشيرة -

أخذ الناس يندفقون كالسيل في طريقهم الى منزل « شربيرن » وهم يصيحون كالمجانين . وكان منظرهم مخيفا . وتجمعهم الدماء أمام منزل « شربيرن » ، فامتلات الساحة بهم . . . وراحوا يصخبون ويضجون . وكانت الساحة صغيرة لا يزيد طولها على ٢٠ قدما . ثم صاح صائح « حطموا السياج . . حطموا السياج » ، فامتدت مئات الأيدي الى السياج ، وحطمته تحطيمًا وبدأ الصف الأول من الجمهور يتقدم كال موج . وفي تلك اللحظة ، ظهر « شربيرن » فوق سطح منزله وتقدم حتى واجه الجمهور الصاخب وهو يحمل بندقية ذات « ماسورتين » في يده . ووقف الرجل هادئا لا يتحدث ، فكف الناس عن الصخب والضحجيج .

ولم يتكلم « شربيرن » وانما لزم مكانه وراح يتحدث في الجماهير . وبدأ السكون يحدث أثره البغيض في النفوس ؛ وراح « شربيرن » ينظر الى الواقفين ، وكلما التقت عيناه بعيني واحد منهم ارتبك الناس ! ثم انفجر « شربيرن » ضاحكا ! ولم تكن ضحكته رقيقة !

ثم قال ببطء وبلهجة ساخرة :

— ان فكرة قيامكم بشنق أحد الناس فكرة طريفة حقا ؛ وان مجرد التفكير في انكم تملكون من السجاعة ما يدفعكم الى قتل رجل مثلى لاكثر طرافة ! اتحسبون انفسكم قادرين على ايدائي ؟ ... يا الهى ... ان اى رجل يسقط في ايدى ألف رجل منكم ، لا بد ان يشعر بانه آمن ما لم تتسالموا اليه من خلف ... اترانى لا أعرفكم ؟ اننى أعرفكم حق المعرفة ، لقد ولدت ونشأت في الجنوب وعشت في الشمال ، ولهذا اعلم كل شئ عن اخلاق الناس هنا وهناك . ان الرجل العادى هنا جبان ! .. أما في الشمال فانهم قوم ينصفون بالجرأة التى لا حد لها ؛ ولذلك فالويل لمن يتجدهم . لقد استطاع رجل من الجنوب أن يتحدى بمفرده مسرحا مملوءا بالناس في وضوح النهار وأن يجردهم من كل ما معهم . . ان صحفكم تقول انكم قوم شجعان حتى توحى اليكم بانكم أشجع من أى قوم آخرين . . والواقع انكم شجعان ، ولكنكم لستم أشجع من الآخرين . لماذا لا يحكم محلفوكم بشنق أى متهم ؟ .. لماذا ؟ .. لأنهم يخشون ان يغتالهم أصدقاء المتهم في الظلام ومن الخلف ، وهذا هو ما يحدث فعلا . . ولهذا يصدرون أحكامهم بالبراءة دائما . وعند ذلك يجمع رجل واحد مائة رجل جبان ويذهبون وهم مقنعون ليغتالوا ليلا المتهم الذى برىء . وان الغلطة التى ارتكبتموها الآن هى انكم لم تحضروا معكم رجلا ! والغلطة الثانية ، هى انكم لم تجيئوا في الظلام وانتم مقنعون ، وانما أحضرتكم معكم شبه رجل ، هو « باك هاركنس » ؛ ولو أنه لم يتول قيادتكم ، لما اقدمتم على مواجهة ! .. اننى أعلم أنكم لم تكونوا راغبين في المجيء ، لأن الرجل العادى لا يحب التعرض للمتاعب والخطر ، وانتم لا تحبون المتاعب والخطر . . ولكن عندما يصيح « نصف رجل » مثل « باك هاركنس » قائلا : « اشنقوه » .

« اشنقوه » ، فانكم تخشون التخاذل . تخسون أن يكشف عن حقيقتكم ، عن جبنكم وضعفكم .. ولهذا تندفعون فى الصياح وتعلقون بأذيال « نصف الرجل » هذا ، وتجيئون الى هنا وأنتم تهددون وتقسمون ، بأغظ الايمان أن تأتوا أمرا جلالا .. ان الدهماء تستحق الرثاء فعلا ! .. عودوا الى منازلكم وابحثوا عن جحور تختفون فيها ! .. واذا كان لابد من شنق أحد ، فدعوا ذلك يحدث فى هدأة الليل كما اعتاد أهل الجنوب ! .. ولكن ذلك لن يحدث الا اذا تولى قيادتكم رجل .. هيا ابحثوا عن رجل .. والآن عودوا من حيث أتيتم وخذوا معكم « نصف الرجل » الذى جاء بكم الى هنا !

تم علق « شربيرن » بندقيته على كتفه الأيسر ، فتراجع الجمهور الى الوراء فجأة ، ثم تفرق أيدي سبا ، وانصرف « باك هاركنس » فى أثرهم وهو يشعر بالمذلة .. وكان فى استطاعتي أن أبقى لو شئت ، ولكنى لم أشأ ذلك !!
وذهبت الى « السيرك » ، وتسكعت عند المؤخرة ريثما يبتعد الحارس . تم تسللت من تحت حافة الخيمة ! .. وكانت معى القطعة الذهبية ذات العشرين دولارا وبعض قطع النقود الأخرى التى أعطانى اياها الرجلان اللذان استنجدت بهما ذات يوم فى عرض البحر ! وقررت ألا أنفق هذا المال الذى سأحتاج اليه فيما بعد !.

كان « السيرك » رائعا حقا . وكان أروع منظر رأيته فى حياتى ، هو منظر اللاعبين وهم يدخلون الى الحلقة راكبين جيادا ، زوجا فزوجا ، رجالا ونساء ، جنبا الى جنب والرجال فى سراويلهم وقمصانهم بلا جوارب ولا مهاميز ، وقد وضعوا أياديهم فوق أفخاذهم فى سهولة وراحة . وكان عددهم لا يقل عن عشرين شخصا . أما النساء فكن آية فى الجمال حتى لقد كن أشبه

بمجموعة من الملكات الحقيقيات اللائى يرتدين ثيابا مرصعة بالماس لا تقل قيمتها عن ملايين الدولارات . . كان منظرا خلابا لم أر له مثيلا كما قلت ، تم لم يلبث كل منهم أن وقف فوق جواده وأخذ يدور به حول الحلقة فى لطف رائع . فالرجال منهم طوال تتدفق الحيوية والنشاط من وجوههم حتى ليخيل اليك وهم منتصبون فوق الجياد بقاماتهم الفارعة أن رءوسهم تكاد تصل الى سقف الخيمة . أما النساء ، فكن أشبه بحوريات الجنة ، كلما نظايرت أذيال ثيابهن الهفافة الناعمة حول أعجازهن .

وزادت سرعة الجياد أكثر فأكثر ، وبدأ الجميع يرقصون ؛ فكانوا يمدون ساقا واحدة فى الهواء ثم يعيدونها الى مكانها ليمدوا الساق الثانية ، والجياد تتمايل وتتهادى فى منظر رائع . أما بطل الحلقة ، فقد أخذ يدور ويدور فى وسط الحلقة وهو « يقرقع » بسوطه فى الهواء ويصيح « شى شى » ونكات « المهرج » تلاحقه ، وشيئا فشيئا أخذت أيديهم جميعا تترك أعنة الجياد ، ووضعت السيدات أيديهن فوق أعجازهن ، ثم عقد الرجال أذرعهم فوق صدورهم ، بينما انطلقت الجياد بسرعة خيفة . وبعد قليل ، أخذوا ينزلقون من فوق جيادهم واحدا فى اثر واحد ، وواحدة فى اثر واحدة حتى ملأوا أرجاء الحلقة ، وانحنوا للنظارة فى حركة رشيقة رائعة ، ثم انسحبوا وسط عاصفة من التصفيق والصياح !!

وتلت ذلك ألعاب مدهشة ، كانت تتخللها نكات « المهرج » حتى كاد النظارة يستلقون على ظهورهم من فرط الضحك . ولم يكن « بطل » الحلقة بقادر على الرد على « المهرج » لأن النكات كانت تنطلق من فم « المهرج » متلاحقة متتابعة . والحق اننى لم استطيع أن أفهم كيف استطاع هذا « المهرج » أن يعثر على مثل هذه النكات الكثيرة المفاجئة . وفجأة حاول رجل مخمور أن ينزل الى

الحلقة . . قال في بادئ الأمر انه يريد أن يركب جوادا ، لأنه يجيد الركوب خيرا من أى فارس فى « السيرك » . وحاول الجمهور أن يقنعه بالبقاء خارج الحلقة ولكنه رفض الامتثال للنصيحة . وعلى الفور توقف العرض ، وأخذ الجمهور يصيح بالرجل ساخرا منه ، ولكن ذلك زاده جنونا وعنادا ، فراح يقاوم كل معارضيه ، فأثار ذلك كثيرا من الناس ، فصاح بعضهم : « اضربوه . . اقدفوا به الى الخارج » ، وبدأت امرأة أو اثنتان تصرخان ، وعندئذ تدخل بطل الحلقة قائلا انه كان يأمل ألا تحدث مثل هذه الضجة ، ولكن اذا استطاع هذا الرجل أن يتعهد بألا يثير مزيدا من المتاعب ، فانه سيدعه يركب أحد الجياد ان كان يظن حقا انه يستطيع البقاء فوق صهوته . . وهنا ضج الجميع ضاحكين ! وامتطى الرجل صهوة أحد الجياد ، فراح الجواد يشب أماما ووراء محاولا اللقاء راكبه من على ظهره ، بينما أمسك اثنان من رجال « السيرك » بعنانه محاولين منعه من التمدد فى جموحه . أما الراكب ، فقد تشبث بعنق الجواد ، وكانت ساقاه تطيران فى الهواء ، كلما وثب الجواد . وكان المنظر مثيرا للضحك حقا ، فضج الحاضرون بالضحك حتى اغرورقت أعينهم بالدموع ، وأخيرا ، ورغم ما بذله رجال « السيرك » من جهود لكبح جماح الجواد ، استطاع الجواد أن يفلت منهم ، وراح ينهب الأرض نهبا حول الحلقة بينما « الفارس » الممتطى صهوته نائم فوق عنقه وقد تدلت إحدى ساقيه الى الأرض من جانب والأخرى من الجانب الآخر ، فحبس الجميع أنفاسهم . أما أنا ، فقد تملكنى الخوف على الرجل خشية أن تدق عنقه ، ولكن شد ما كانت دهشتنا عندما رأينا الرجل يستوى فوق السرج ثم يشب واقفا ، ويلقى بعنان الجواد من يده ، وينتصب كالمارد ، بينما الجواد منطلق فى الحلقة بسرعة جنونية . وظل الرجل فى موقفه هذا ، وكأنه لا يشعر بأى

خطر يتهددده ، ثم لم يلبث أن بدأ يخلع ثيابه قطعة قطعة ، ملقيا بها في الهواء ، وقد بلغ عددها سبع عشرة قطعة ، ولم يترك سوى سروال وقميص أنيقين جميلين . ثم أخذ « يفرقع » بالسوط في الهواء حتى يزيد الجواد من جموحه . وأخيرا وثب من فوق الجواد وانحنى للنظارة ثم انسحب الى غرفة ارتداء الثياب ، فدوت عاصفة من التصفيق .

تم كشف « بطل » الحلقة عن الخدعة . . فقال ان هذا الرجل أحد اللاعبين وانه كان يتظاهر بأنه مخمور حتى يستأثر بمشاعر المنفرجين . والحق اننى شعرت بالغيظ لأن الرجل خدعنى بمزاحه ! ولو اننى كنت « بطل » الحلقة لما وافقت على مثل هذا المزاح ولو اعطيت ألف دولار ! . . .
وعلى أية حال ، فقد أعجبني « السيرك » أيما اعجاب ! . .



وفي تلك الليلة ، أقمنا استعراضنا المسرحى ، ولكن عدد النظارة لم يكن يتجاوز اثنى عشر شخصا ، وبذلك لم نحصل على دخل يفوق النفقات . وكان النظارة يضحكون طوال الوقت ، فأنار ذلك نائرة « الدوق » . ولقد انصرف النظارة جميعا ما عدا غلاما كان مستغرقا فى النوم ، قبل انتهاء العرض ، وقال « الدوق » ان أهالى مدينة « اركانسو » تلك قوم فارغوا العقول لم يرتقوا بعد الى مستوى شيكسبير ، وان كل ما يريدونه هو الكوميديا الرخيصة - وربما ما هو أدنى من الكوميديا الرخيصة ! ثم قال انه يستطيع أن يرفه عنهم ويسليهم بالأسلوب الذى يحبونه ، وقرر أن يقدم لهم ما يستولى على مشاعرهم ، وفى اليوم التالى ، وضع « الدوق » فى شئنى انحاء المدينة اعلانات تقول :

على مسرح المدينة
ولمدة ثلاث ليال فقط
أشهر ممثلى التراجيدى فى العالم
« دافيد جاريك » الصغير

و

« ادموند كين » الكبير
من مسارح لندن والقارة الأوربية
فى تراجيديتهما المثيرة
« زرافة الملك »

الدخول ٥٠ سنتا
ممنوع دخول السيدات والأطفال

وقال الدوق لنا : اذا لم يجعل السطر الأخير جميع السكان
يأتون الى المسرح ، فاننى اكون بذلك أجهل رجل فى مدينة
« اركانسو » !!

الفصل الثالث والعشرون

خدعة - مقارنات ملكية - « جيم »
يصاب بالحنين إلى الوطن !..

قضى « الدوق » و « الملك » النهار كله وهما يعملان بلا كلل في أعداد المسرح والستار وصف من الشموع لتكون بمثابة أنوار خلفية للمسرح . ولقد امتلأ المسرح بالرجال في تلك الليلة ، حتى لم يعد هناك موطىء لقدم . وفي الموعد المحدد ، اعتلى « الدوق » خشبة المسرح ووقف امام الستار ، وألقى خطابا امتدح فيه هذه التراجيديا فقال : انها أكثر التراجيديات اثارة . . ثم انتقل الى الحديث عن موضوعها ، وعن « ادموند كين الكبير » الذى سيلعب الدور الرئيسى في التراجيديا . وعند ما أثار اهتمام الحاضرين جميعا رفع الستار ، وعلى الفور ، ظهر « الملك » على خشبة المسرح وهو يحبو على أربع وقد تجرد من الثياب وطلّى جسمه كله بحلقات متوازية وخطوط متقاطعة مختلفة الألوان ! وكان منظره رائعا كقوس قزح . كان مضحكا للغاية ، وكان النظارة ينفجرون ضحكا بين الحين والحين . وعند ما فرغ « الملك » من أداء دوره المضحك ، صفق النظارة تصفيقا حادا متواصلا

وطالبوا بعودة « الملك » ، فاضطر الى العودة وأداء دوره ثانية .
تم أرغمه النظارة على أداء الدور للمرة الثالثة . ولا عجب . فقد
كان منظر هذا الكهل الغبي خليقا بأن يضحك الحيوان ، ناهيك
عن الانسان !

وعندئذ ، أنزل « الدوق » الستار وانحنى للجمهور قائلا ان
هذه التراجيديا الكبرى ستمثل ليلتين أخريين فقط لارتباط الفرقة
بمواعيد في لندن حيث بيعت جميع المقاعد سلفا . ثم أضاف انه
إذا كان قد نجح في ادخال السرور في قلوبهم فسيكون من دواعي
سروره أن يذكر الحاضرون ذلك لأصدقائهم ليحثوهم على مشاهدة
التراجيديا !!

وصاح عشرون شخصا :

— ماذا تقول ؟ هل انتهى التمثيل ؟ أهذا كل شيء ؟
فأجاب « الدوق » بالإيجاب . وعندئذ صاح الجميع « هذا
خداع » . واستولى عليهم الجنون وهموا بالانقضاض على المسرح
والممثلين لولا أن عملاقا ضخما وثب فوق مقعده وصاح :
— مهلا لحظة .. استمعوا الى أبها السادة .

فانصت الجميع اليه ...

قال الرجل :

— لقد خدعنا حقاً .. خدعنا خداعاً عظيماً ، ولكن يجب
ألا نصبح أضحوكة للجميع ، وألا نظل موضع السخرية طيلة
حياتنا .. ان ما يجدر بنا أن نعمله هو أن ننصرف من هنا
بهدوء ، وأن نمتدح هذا العرض حتى نخدع المواطنين الآخرين
الذين لم يشاهدوا هذه المهزلة ، وبذلك نصبح جميعا متساوين ..
أليس هذا شيئا معقولا ؟

وهنا صاح الجميع : « هذا عظيم .. هذا عظيم » .

فمضى الرجل يقول : اذن ... فليحذر كل منكم أن يتحدث

عن الخدعة التي تعرضنا لها .. عودوا الى منازلكم وحثوا الجميع على الحضور ومشاهدة هذه التراجيديا .

وفي اليوم التالي ، أصبح حديث « التراجيديا » على كل لسان ! .. الجميع يتدحونها ويسهبون في الثناء عليها .. وعندما حل موعد العرض ، امتلأ المسرح بالنظارة الساكنين الذين خدعوا كما خدع زملاؤهم من قبل . وعند ما عدنا - الملك والدوق وأنا - الى العائمة ، تناولنا طعام العشاء . وعند منتصف الليل ، طلب « الملك » و « الدوق » من « جيم » أن ينقل العائمة الى مكان يبعد ميلين جنوب القرية وأن يرسو بها في مخبأ أمين .

وفي الليلة الثالثة ، امتلأ المسرح مرة أخرى . ولم يكن النظاره القادمون جددا هذه المرة ، وانما كانوا أولئك الذين شهدوا العرض في الليلتين السابقتين . وكنت أقف مع « الدوق » عند الباب ، فلاحظت أن جيوب كل شخص يدخل قاعة المسرح كانت منتفخة وأنه كان يخفى شيئا تحت سترته . ولاحظت أيضا أن روائح غير سارة بدأت تفوح في المكان كرائحة البيض الفاسد ، والكرب المتعفن ، فأدركت أن في الأمر شيئا ، وعند ما امتلأ المسرح ولم يعد هناك مكان لقادم جديد ، أعطى « الدوق » ربع دولار لأحد الاشخاص وطلب اليه مراقبة الباب ، ثم تظاهر بالذهاب الى باب المسرح الخلفى ، وأنا أسير في اثره . ثم استدار الى منعطف مظلم جانبي وقال لى : انطلق سريعا ورائى الى العائمة متجنبيا المنازل .. هيا اسرع كما لو كانت الشياطين تطاردك .

ورحنا نجرى بسرعة . ووصلنا الى العائمة في وقت واحد . : وفي أقل من ثانيتين كانت العائمة تنزلق فوق صفحة الماء منطلقة الى الجنوب وهى معتمدة هادئة . ولقد خيل الى اننا تركنا « الملك » التعس تحت رحمة الجماهير الصاخبة الحائقة ، ولكن شديما كانت دهشتى حينما رأيته يزحف خارجا من العائمة وهو يقول :

ـ حسنا ، ما الذى انتهى اليه الموقف هذه المرة أيها «الدوق» ؟
لقد كان «الملك» أذكى منا جميعا . . لم يذهب الى المدينة
على الاطلاق فى تلك الليلة ! . .

ولم نشعل المصباح الا بعد أن أصبحنا على مبعدة عشرة أميال
من المدينة . . ثم تناولنا طعام العشاء ، وانفجر «الملك» و «الدوق»
يضحكان وهما يتذاكران خدعتهما للجمهور . .
قال الدوق :

ـ يا لهم من أغبياء مغفلين . . كنت أعلم أن نظارة الليلة الأولى
سيعدون غيرهم يقعون فى «الفخ» . . وكنت أعرف أيضا ما أعدوه
لنا هذه الليلة للثأر منا . . كم أتمنى أن أعرف كيف تلقوا الصدمة !
وهكذا استطاع هذان المحتالان أن يجمعا اربعمائة وستة وخمسين
دولارا فى ثلاث ليال . . والحق اننى لم يسبق لى أن شاهدت كومة
من النقود كتلك الكومة التى رأيتها أمامهما فى تلك الليلة ! . .

وبعد قليل ، استسلم الاثنان للنوم . .

فقال جيم :

ـ ألا يدهشك مسلك الملوك يا «هاك» ؟

فقلت : كلا . . ان مسلكهم لا يدهشنى !

ـ لماذا يا «هاك» ؟

ـ لأن تلك هى طبيعتهم بمولدهم . وأكبر ظنى انهم جميعا
متشابهون .

ـ لكن هذين الملسكين اللذين يقيمان معنا محتالان عريقان
فيما أرى .

ـ هذا حق . . ان جميع الملوك محتالون .

ـ أحقا ؟

ـ لو انك قرأت عنهم مرة لعرفت الحقيقة . . انظر الى هنرى
الثامن ، وشارل الثانى ، ولويس الرابع عشر ، ولويس الخامس عشر ،

وجيمس التانى ، وادوارالتانى، وريتشارد الثالث، وأربعين آخرين من الملوك المحدثين عدا ملوك السكسون الذين اعتادوا أن يعيشوا الفساد فى كل مكان فى العهود القديمة . . كان ينبغى لك أن ترى هنرى الثامن وهو فى أوج مجده . لقد اعتاد أن يتزوج زوجة جديدة كل يوم ، ثم يأمر بقطع رأسها فى صباح اليوم التالى . وكان يفعل ذلك ببرود شديد ، كما لو كان يطلب من طاهيه أن يعد له طبقا من البيض . . كان يقول : احضروا لى « مل جوين » فيحضرونها له . وفى صباح اليوم التالى يقول لهم « افطعوا رأسها » ، فيقطعونها . وعندئذ يقول « احضروا لى جين شور » فيحضرونها ، وفى صباح اليوم التالى يأمرهم بقطع رأسها ! ثم يقول « احصلوا بروزا مان الجميلة » وتجيى روزا مان الجميلة النداء ، وفى صباح اليوم التالى يأمر الملك بقطع رأسها . وكان الملك يطلب من كل واحدة منهن أن تحكى له حكاية فى كل ليلة . واستمر على ذلك المنوال الى أن جمع ألف حكاية بهذه الطريقة ، فسجلها كلها فى كتاب أطلق عليه اسم « كتاب دومسداى » وهو اسم طريف ينم عن موضوعه . . انك لاتعرف الملوك يا « جيم » ، ولكنى أعرفهم . و « ملكننا » هذا الذى يقيم معنا من أنظف الملوك الذين قرأت عنهم فى التاريخ . . حسنا ، لقد خطر ببال الملك هنرى أن يشير مشكلة فى هذه البلاد ، فكيف يثيرها ؟ هل يلجأ الى انذارها ؟ لا . . لقد أمر فجأة باغراق جميع شحنات الشاى الموجودة فى ميناء « بوسطون » فى البحر . كان هذا أسلوبه . . كان لا يدع لأى انسان فرصة . . بل لقد كان يرتاب فى أبيه دوق ولنجتون . . فماذا فعل ؟ ، هل يتحداه ؟ لا . . لقد أغرقه كما يغرق الانسان قطعة صغيرة ! . . ولنفرض أن الناس تركوا مالا فى أى مكان وكان هو فى هذا المكان ، فماذا تراه كان يفعل ؟ كان يستولى عليه . . ولنفرض انه أبرم عقدا لأداء عمل من الأعمال ودفعت أنت التزامك

المالى ولم تشرف بنفسك على أدائه للعمل المطلوب ، فماذا تظنه
كان يفعل ؟ كان يفعل العكس دائما ، ولنفرض انه فتح فمه ، فماذا
يحدث ؟ اذا لم يبادر باغلاقه ، أطلق أكذوبة فى كل مرة . . كان
هذا هو هنرى الشبيهه بالبقة ، فلو كان يقيم معنا بدلا من ملكينا
هذين ، لفعل بهذه المدينة أسوأ مما فعل هذان الملكان . أنا لا أقول
ان هذين الملكين على خلق عظيم ، لأنهما ليسا كذلك ؛ ولكنهما
فاضلان اذا قورنا بالملك هنرى !! . . الملوك هم الملوك يا «جيم» . .
انهم قوم جشعون بنشأتهم .

- ولكن هل تبدو رائحة هذا الملك كرائحة أمته يا « هاك » ؟
- نعم . . فهم جميعا مصنوعون من عجينة واحدة ! . . ونحن
لا نستطيع أن نغير رائحة الملوك يا « جيم » !
- ان « الدوق » رجل محتمل من بعض النواحي . .
- نعم ، قد يختلف الدوق عن الملك ، ولكنه اختلاف غير كبير . .
فهذا « الدوق » رجل صعب المراس ، ولهذا لا يستطيع أحد أن
يميزه عن « الملك » حينما يكون ثملا ، الا اذا كان بعيد النظر .
- والحق يا « هاك » اننى لم أعد راغبا فى رؤية مزيد منهم . .
وحسبنا « الدوق » و « الملك » !

- وهذا هو شعورى أيضا يا « جيم » . . . ولكن ما دام
الاثنان معنا فينبغى أن نتذكر من هما ونوفيهما حقهما . . اننى
أتمنى أحيانا أن أسمع عن بلد ليس فيه ملوك .
قلت ذلك للكهل «جيم» لأننى لم أر ثمة فائدة فى اخبار «جيم»
بأن هذين الرجلين ليسا ملكا ودوقا حقيقيين ، ولأننى لم أجد
فارقا بينهما وبين الملوك الحقيقيين !

ثم استغرقت فى النوم ، فلم يوقظنى عند ما حل موعد قيامى
بالمراقبة بدلا منه . . وكثيرا ما كان يفعل ذلك . وعند ما
استيقظت من نومى مع طلوع النهار ، ألفيته جالسا وقد وضع

راسه بين ركبتيه وهو يتأوه ويئن صامتا ، فلم أبال بذلك أو
التدخل فى الأمر . . فقد كنت أعرف السبب . . كان « جيم »
يفكر فى زوجته وأطفاله ، فقد غلبه الحنين اليهم والى وطنه ؛
وخاصة انه لم يبتعد من قبل عن منزله . وانى لأعتقد انه كان
يعنى بأسرته عناية عظيمة لا تقل عن عناية الجنس الأبيض
بعائلاتهم ! ورغم أن ذلك قد لا يبدو طبيعيا ، فهذا هو الحق ! . .
لقد كان كثير التأوه والانى . وكثيرا ما كنت أسمعه يتأوه فى هدأة
الليل . . كم سمعته يقول : « مسكينة أنت يا اليزابيث . .
مسكين أنت يا جونى الصغير ، انها حياة شاقة . أكبر ظنى اننى
لن أراكم ثانية . . ثانية » . تم يتأوه ويبكى ! . . حقا ، ان
« جيم » زنجى كريم ! . .

وعلى الرغم من أننى كنت أحرص على عدم التدخل فى شئونهم
العائلية ، فاننى تحدثت اليه هذه المرة عن زوجته وأطفاله . .
فلم يلبث أن قال :

— ان ما يجعلنى أشعر بالحزن هذه المرة ، هو أننى سمعت
صوت باب يغلَق بعنف منذ قليل ، فذكرنى ذلك بالمعاملة السيئة
التي عاملت بها ابنتى اليزابيث الصغيرة فى أحد الأيام ! لم تكن
حينذاك قد بلغت الرابعة من عمرها ، وأصيبت بالحمى القرمزية ،
وكانت اصابتها شديدة الوطأة ولكنها شفيت . واتفق ذات يوم
ان كانت تقف أمام المنزل فقلت لها :

— اغلقى الباب .

ولكنها لم تفعل ، وابتسمت لى فجئ جنونى ، فقلت لها مرة
أخرى بصوت مرتفع :

— ألا تسمعينى ؟ اغلقى الباب .

فوقفت جامدة فى مكانها ، والابتسامة على شفتيها ، فازددت
سخطا وغیظا وصحت :

ـ سأجعلك تطيعين ما أقوله لك .

وهويت بيدي فوق رأسها ، فسقطت على الأرض . ثم تركتها ودخلت المنزل وقضيت هناك عشر دقائق .. وعندما خرجت ، كان الباب لا يزال مفتوحا والطفلة واقفة وقد خفضت رأسها والدموع تنهمر من عينيها .. وقد زادني ذلك جنونا ؛ وهممت بالانقضاء عليها ، لولا أن الريح هبت في تلك اللحظة فأغلقت الباب خلف الطفلة .. ولكنها لم تتحرك من مكانها ، فأحسست بأن قلبي يكاد يفلت من بين ضلوعي ، وتقدمت نحو الباب وفتحته بلطف وهدوء وأبرزت رأسي من خلفه ، فاذا بالطفلة لا تزال واقفة في مكانها ؛ وعندئذ صحت فيها صيحة مدوية مفاجئة ، ولكنها لم تتحرك .. أو اه يا هاك .. لقد انفجرت باكيا ، وحملت الطفلة بين ذراعي وقلت لها : أيتها الطفلة المسكينة ، فليغفر الله العظيم لجيم المسكين ما أتاه من اثم عظيم ، لأن جيم لن يغتفر لنفسه هذا الاثم طالما بقى على قيد الحياة » .. يا ألهي يا « هاك » .. لقد كانت الطفلة التعسة بكماء صماء .. ومع ذلك عاملتها بكل خشونة . !

الفصل الرابع والعشرون

(جيم) في ثياب ملكية - استنقلوا باخرة -
الحصول على المعاولات - حزن أسرة *

عندما دنا ليل اليوم التالى ، رسونا عند شجرة قنب صغيرة
فى منطقة تحف بها قرية على كل جانب من جانبى النهر ، وبدأ
« الدوق » و « الملك » يرسمان خطة للعمل فى هاتين القريتين ؛
فقال جيم للدوق انه يأمل ألا يستغرق تنفيذ هذه الخطط أكثر
من ساعات قليلة لأنه بدأ يشعر بالضيق لاضطراره الى البقاء
طوال النهار مشدود الوثاق ، فقد كنا مضطرين الى شد وثاقه
كلما تركناه وحيدا خشية أن يمر به أحد ويجده طليقا غير مشدود
الوثاق فيظنه زنجيا هاربا . .

لقد كان هذان المحتالان يضعان خطط مغامرة جديدة تدر
عليهما مالا كثيرا ، ولكنهما رأيا أن فى ذلك مجازفة كبيرة لاحتمال
وصول نبا مغامرتهم السابقة الى القرية فى هذا الوقت . ولم
يستطيعا رسم خطة مناسبة . . وأخيرا قال « الدوق » انه سيفكر
ساعة أو اثنتين لعله يستطيع أن يرسم خطة للاحتيال على قرية
« اركانسو » ، بينما قال « الملك » انه سيذهب الى القرية الثانية
بلا خطة معينة تاركا للأقدار تحديد نوع المغامرة التى تعود عليه

بالريح . واكبر ظنى انه لم يترك هذا الأمر للأقدار ، وانما تركه للشيطان . . وكنا قد ابتعنا كمية كبيرة من ملابس التمشيل من اول مكان صادفنا ، فارتدى « الملك » ثيابه وطلب منى أن ارتدى ثيابى ، ففعلت . وكان ثوب « الملك » أسود اللون ، فأكسبه مهابة ووقارا . والواقع اننى لم أكن أدرك من قبل أن الثياب تستطيع أن تغير من منظر الانسان الى هذا الحد . وقبل أن يرتدى « الملك » هذه الثياب كان يبدو شخصا عاديا ، بل ربما بدا أقل من الشخص العادى ؛ أما الآن ، فانه يبدو مهيب الطلعة عظيما . وأسرع « جيم » ينظف القارب ؛ وأعددت مجدافى للعمل ؛ وكان ثمة قارب بخارى راسيا عند الشاطئ على مبعدة ثلاثة أميال شمالى المدينة . . وكان هذا القارب قد وصل منذ ثلاث ساعات لشحن حمولة .

قال « الملك » : حيث انى ارتدى هذه الثياب ، أرى انه يحسن بى أن أصل الى القرية من ناحية الجنوب كما لو كنت قادما من « سانت لويس » أو « سنسناتى » أو غيرهما من المدن الكبرى . . انطلق الى القارب التجارى يا « هاكبرى » . . وسنعود الى القرية فيما بعد .

ولم أتردد فى الامتثال لأمره . . فقد كنت شديد اللهفة على ركوب قارب بخارى . . وبلغت الشاطئ عند نقطة تبعد نصف ميل شمال القرية ثم أخذت أتجول به فى الماء الهادى ؛ وسرعان ما التقينا بقروى ساذج جالس فوق كتلة من الخشب ، وهو يجفف العرق الذى انسال فوق وجهه . . فقد كان القيظ شديدا فى ذلك اليوم . . وكانت بجوار هذا القروى حقيبتان كبيرتان من القماش .

قال « الملك » : وجه القارب الى الشاطئ .
ففعلت .

وعندئذ سأل « الملك » القروى : الى اين انت ذاهب ايها الشاب ؟

— الى الباخرة ؛ لاننى فى طريقى الى « اورليانز » .
فقال « الملك » : اذن تعال معنا وسيساعدك خادمى فى نقل الحقيبتين . . هيا يا ادولفوس ، ساعد السيد . . قال ذلك وهو يعنينى بالطبع !

وعاونت الشاب ، واتخذنا مجلسنا فى القارب ، وأعرب الشاب للملك عن عميق شكره لما قدمناه له من عون قائلًا أن نقل هذه الأمتعة فى مثل هذا الطقس يعتبر عملاً شاقاً . . ثم سأل « الملك » عن المكان الذى سيذهب اليه ، فأجاب « الملك » انه جاء من الجنوب ونزل الى البر عند القرية الأخرى هذا الصباح ، وانه ذاهب الآن شمالاً ليزور صديقاً قديماً يقيم على بعد عدة أميال الى الشمال . . فقال الشاب :

— عند ما وقع بصرى عليك قلت لنفسى « من المؤكد أنه مستر ويلكس ، ولكنه وصل بعد فوات الأوان مع الأسف » . . ثم عدت أقول لنفسى « لا . . أظن انه ليس مستر ويلكس والا لما ركب قارباً صغيراً . . لا شك انك لست هو . . أليس كذلك » ؟
— لست مستر « ويلكس » . . ان اسمى بولدجيت — السكندر بولدجيت — القس السكندر بولدجيت من خدم الله الفقراء ، ولكن مهما يكن من أمر ، فاننى سأشعر بعظيم الأسف اذا كان تأخر مستر « ويلكس » عن الحضور سيؤدى الى نتائج غير مستحبة ، وهو ما لا أرجوه !

— حسناً ، انه لم يخسر شيئاً ! . . فسيحصل على ما يخصه ما فى ذلك ريب . . ولكن فاتته رؤية أخيه « بيتير » وهو على فراش الموت . . مسكين ! ان اخاه كان على استعداد للتنازل عن كل ما يملك فى مقابل رؤيته قبل موته ! ولقد قضى الأسابيع الثلاثة

الأخيرة من حياته وهو لا يتحدث الا عن رغبته في رؤية أخيه الذى لم يره منذ أن كانا غلامين صغيرين .. كذلك لم ير المسكين أخاه وليم الأصم الأبكم على الإطلاق ! ان عمر وليم لا يتجاوز الخامسة والثلاثين . ولقد كان « بيتر » و « جورج » الوحيديين اللذين جاءا الى هنا .. وكان « جورج » هو الأخ المتزوج ، ومات هو وزوجته في العام الماضى .. وبهذا أصبح « هارفى » و « وليم » الوحيديين الباقيين على قيد الحياة .. ولكنهما لم يصلا الى هنا في الوقت المناسب .

— هل بعث أحد في طلبهما ؟

— نعم ... منذ شهر أو اثنين ، أى عند ما سقط « بيتر » مريضا ! لقد كان « بيتر » يشعر بدنو أجله هذه المرة ... كان طاعنا في السن ، وكانت بنات « جورج » صغيرات لا يصلحن لرعايته ، اللهم الا « مارى جان » ذات الشعر الاحمر ... لهذا شعر « بيتر » بالوحدة بعد موت « جورج » و « زوجته » ، ويئس من الحياة ... وكان يتلهف على رؤية « هارفى » و « وليم » أشد اللهفة ... مسكين ، انه لم يكتب وصية ... ولكنه ترك رسالة لهارفى أنبأه فيها بالمكان الذى أخفى فيه نقوده ، وكيف انه يرغب في أن تقسم بقية أملاكه بحيث تحصل بنات « جورج » على نصيبهن بالكامل ، لأن « جورج » لم يترك لهن شيئا بعد موته .. وكانت هذه الرسالة هى كل ما استطاع الجميع أن يقنعوه بكتابته .

— لماذا لم يحضر « هارفى » ؟ وأين يقيم ؟

— انه يقيم في انجلترا — في شيفلد — حيث يعمل وأعظا ، ولكنه لم يأت الى هذه البلاد أبدا لأنه لا يملك من الوقت ما يتيح له ذلك ... ومن المحتمل أن تكون الرسالة قد ضلت طريقها اليه !

— هذا أمر يؤسف له ... نعم ... انه لمن المؤسف حقا ان

الأخ لم يعيش حتى يرى أخويه . . . يا له من مسكين . . . هل قلت انك ذاهب الى « أورليانز » ؟

— نعم ، ولكن ذلك ليس سوى جزء من رحلتى . . . فسوف استقل الباخرة يوم الأربعاء القادم فى طريقى الى « ريوديجانيرو » حيث يقيم عمى .

فقال « الملك » : انها رحلة طويلة ولكنها ممتعة . . . ليتنى كنت ذاهبا هناك مثلك . . . هل « مارى جان » هى كبرى البنات ؟ وما عمر الباقيات ؟

— ان « مارى جان » فى التاسعة عشرة . . . و « سوزان » فى الخامسة عشرة . . . و « جوانا » فى حوالى الرابعة عشرة . . . و « جوانا » هى التى تقوم بأعمال المنزل !

— يا للمسكينات . . . من نكد الدنيا أن يتركن وحيدات فى عالم بارد كهذا .

— هذا حق . . . ولكن من حسن الحظ ان أصدقاء « بيتر » كثيرون ، وسيعملون بلا شك على حماية الفتيات ورعايتهن . . . فهناك « هوبسون » الواعظ ، و « دنكن لوت هوفى » ، و « بن راکر » ، و « ابشرشكلفورد » ، و « ليفى بل » المحامى ، و « الدكتور روبنسون » وزوجاتهم ، والأرملة « باركلى » . . . انهم كثيرون . وكان « بيتر » يحبهم . . . وكثيرا ما كان يكتب عنهم فى خطاباتاته التى كان يرسلها الى أخويه . . . ولا شك ان « هارفى » يعلم من هم الأصدقاء الذين ينبغى له أن يبحث عنهم عند ما يجىء الى هنا .

ومضى « الملك » يستدرج الشاب حتى عرف كل ماكان يريد أن يعرفه . . . كذلك استطاع أن يعرف كل ما يمكن معرفته عن المدينة وعن أسرة « ويلكس » ، وأعمال « بيتر » ، فعرف انه كان

صاحب حديقة ، بينما كان « جورج » نجارا ، كما عرف ان
« هارفى » كان قسيسا وهلم جرا
ثم قال : ما الذى يجعلك تقطع كل هذه المسافة لتستقل هذه
الباخرة ؟

— لأنها باخرة كبيرة داهية الى أورليانز . . . وقد خشيت ألا
تتوقف هنا ، فعندما يكون منسوب الماء منخفضا لا تتوقف
البواخر هنا . . . صحيح ان باخرة « سنسناتى » تقف هنا ،
ولكن الباخرة التى أريد أن استقلها ليست باخرة « سنسناتى »
. . . انها باخرة « سانت لويس » !

— هل كانت حالة « بيترويلكس » المالية حسنة ؟
— نعم . . حسنة جدا . . انه يملك منازل ومزارع . واعتقد
انه ترك ثلاثة آلاف جنيهه مخبأة فى مكان ما .
— ومتى مات ؟

— ليلة أمس .
— اذن ، فالأرجح أن تشيع جنازته غدا .
— نعم . حوالى الظهر .
— حقا . . . ان الأمر محزن للغاية ، ولكن هذا مصيرنا جميعا
وان تفاوتت المواعيد . . . ولهذا يجب علينا أن نستعد دائما
للاقاة الموت .
— نعم يا سيدى ، هذا أفضل شئ . . . وكثيرا ما سمعت أمى
تقول ذلك .

وعندما وصلنا الى الباخرة ، كانت تتأهب للرحيل فاستقلها
الشاب القروى . . ثم بدأت الباخرة رحلتها الطويلة ! . . وعندما

اختفت عن الأنظار ، طلب منى « الملك » ان أمضى بالقارب ميلاً آخر . . . وأن أرسو فى مكان منعزل . . . تم نزل الى الشاطئ، وقال :

— والآن ، أسرع بالعودة لاحتضار « الدوق » الى هنا . . . ولا تنس أن تحضر الحقائق الجديدة معك . . . واذا كان « الدوق » قد نزل الى الشاطئ الثانى ، فاذهب فى أثره وأحضره ، وقل له اننى أريد حضوره بسرعة . . . هيا اذهب !

وأدركت ما يعتزم « الملك » أن يفعل ، ولكنى لم أقل شيئاً بالطبع . . . وعند ما عدت مع « الدوق » ، أخفينا القارب ، ثم جلس الرجلان على كتلة من الخشب ، وراح « الملك » يفضى الى « الدوق » بكل ما عرفه من القروى الساذج بدقة مدهشة ، وبدأ « الملك » يحاول أن يتحدث كما يتحدث الانجليز المهذبون ؛ وأعتقد أنه أجاد تمثيل دوره !

ثم قال للدوق : هل تستطيع أن تدعى الصمم والبكم يا « بريد جيووتر » ؟ . . .

فقال الدوق ، انه قام بتمثيل كثير من أدوار الصمم والبكم حتى أجادها . ثم جلس الاثنان فى انتظار قارب بخارى كبير ! . . . وبعد الظهر ، مر قاربان بخاريان صغيران ، لا ينم منظرهما عن قدومهما من مكان بعيد . . . وأخيراً أقبل قارب كبير فاستوقفاه وصعدنا الى ظهره . . . كان القارب قادماً من « سنسناتى » . . . وعند ما علم أصحابه بأن رحلتنا لا تزيد على أربعة أو خمسة أميال جن جنونهم وأنهالوا علينا سباً وشتماً قائلين انهم لن ينزلونا على البر ، ولكن « الملك » ظل رابط الجأش . . . وأخيراً قال :

— اذا كان فى استطاعتنا أن ندفع لكم ريالاً عن كل ميل ، فلماذا لا تنقلونا ؟

وهدأت نائرة أصحاب القارب البخارى، وقبلوا الوضع ، وعندما

نزلنا عند القرية ، أقبل نحونا حوالى عشرين شخصا ، فقال لهم الملك :

— هل يستطيع أحدكم أن يخبرنا أين يقيم مستر « بيتر ويلكس » ؟

وتبادل الرجال النظرات ، ثم أومأوا بروءسهم وكأنهم يقولون « ألم تكن نتوقع ذلك ؟ » . ثم قال أحدهم بلهجة رقيقة :

— انى آسف يا سيدى . . . ان خير ما نستطيع أن نقوله هو ان نخبرك أين كان يقيم حتى مساء أمس ! . .

وتظاهر « الملك » بأنه يوشك أن ينهار ، فقد ترنح وسقط فوق محدثه ، ووضع ذقنه فوق ظهره ، ثم انخرط فى البكاء وهو يقول :

— انتهى . . ، انتهى . . ، مات أخونا المسكين . . . مات ولن نراه بعد اليوم . . . أوه . . . يا له من أمر محزن . . .

ثم استدار على عقبه وهو يتمتم بكلام غير مفهوم ويأبى بإشارات من يديه لأخيه ، فألقى هذا بالحقيبة على الأرض وانخرط فى البكاء . . . والحق اننى لم أر محتالين يجيدان تمثيل دورهما كما أجاده هذان المحتالان !

وتجمع الرجال حولهما وهم يبكون أشد العطف عليهما ، ويعربون عن أسفهما ، ثم حطوا حقيبتيهما . . . وأخذنا نرتقى التل ، والمحتالان يستند كل منهما على الآخر ، بينما راح الرجال يحدثون « الملك » بكل ما حدث لأخيه فى لحظاته الأخيرة . . . وكان « الملك » يترجم كل ما يقولونه للدوق بالإشارات ! وكان الحزن الذى أبداه هذان المحتالان عنيفا أليما مؤثرا . . . والحق اننى شعرت بالحجل من الجنس البشرى كله فى تلك اللحظة !

الفصل الخامس والعشرون

هل هما الاخوان؟ - انشاد ((ترنيمة)) -
نستطيع الاستغناء عن النقود - عدالة تامة
- ترانيم جنائزية - استغلال سيبيء *

انتشرت الأنباء في المدينة كلها بعد دقيقتين . . . وسرعان ما
تقاطر الناس من كل فج وصوب . . . وسرعان ما ألفينا أنفسنا
وسط جمهرة كبيرة . . . وكان وقع أقدام الناس أشبه بصوت
زحف عسكري ! وامتلات نوافذ المنازل وأبوابها بالنساء والفتيات
. . . . وفي كل لحظة ، كان أحد الأشخاص يطل من فوق السياج
ويتسائل :

- هل هم هؤلاء ؟

فيجيبه آخر أثناء سيره مع جماعة من الرجال ؛ نعم . . .
انهم هم .

وعند ما وصلنا الى المنزل ، كان الشارع الذي أمامه قد اكتظ
بالناس ، وكانت الفتيات الثلاث واقفات على « عتبة » الباب . . .
كانت « ماري جان » ذات شعر أحمر ، ولكن ذلك لم يؤثر في جمالها
الطاغى . وكان وجهها شديد التألق بينما التمعت عيناها ببريق

يدل على سرورها لوصول عميها ، وبسط « الملك » ذراعيه ، فألقت « ماري جان » بنفسها في أحضانه ، بينما وثبت الفتاة الأخرى نحو « الدوق » . . . وهكذا عانق المحتالان الدعيان الفتاتين . . . وكان الجميع ، رجالا ونساء ، يبكون من الفرح لاجتماع شمل الأسرة من جديد ! !

ثم انتحى « الملك » بالدوق جانبا ؛ ولقد رأيته وهو يفعل ذلك . . . ثم تلفت حوله ليرى التابوت الممدد فوق مقعدين في ركن الغرفة ، ووضع كل من الرجلين ذراعه فوق كتف الآخر ، بينما وضعا يديهما الآخرين فوق عينيهما ، ثم تقدما ببطء وحزن نحو التابوت ! وتراجع الجميع ليفسحوا لهما الطريق ، وكفوا عن الكلام والضوضاء ، بينما خلع جميع الرجال قبعاتهم وخفضوا رؤوسهم ، حتى لقد كنت تستطيع أن تسمع صوت الدبوس اذا سقط على الأرض ! . . . وعند ما وصلا الى موضع التابوت ، انحنيا وتطلعا داخله ثم انفجرا باكيين بصوت كان يمكن أن يسمعه سكان « أورليانز » ! ثم وضع كل منهما ذراعه حول عنق الآخر ، وذقنه فوق كتف الآخر ، وبقيتا على هذه الحال ثلاث دقائق ، وربما أربع . والحق اننى لم أر رجلين أبديا مظاهر الحزن العميق مثلما أبداها هذان المحتالان . . . وكان الجميع يشاطرونهما حزنهما العميق . ثم تقدم أحدهما نحو أحد جانبي التابوت ، بينما تقدم الثانى نحو الجانب الآخر ، ثم ركعا وألصقا جبهتيهما فى التابوت ، وهما يتظاهران بالصلاة فى صمت . وما كاد الحاضرون يرون ذلك ، حتى انفجروا باكيين بصوت مرتفع . . . وبكت الفتيات التعمسات ، فاتجهت نحوهن النساء وأخذن يقبلهن فى عطف ، ثم وضعن أيديهن فوق رؤوسهن وتطلعن الى السماء والدموع تنحدر من عيونهن . . . والحق اننى لم أر منظرا مثيرا للحق كهذا المنظر !

وبعد قليل ، نهض « الملك » واقفا ، وتقدم الى الأمام قليلا ،

وراح يتكلم وهو يتظاهر بالحزن قائلا أنه لن يكابد وأخيه المسكين محنة كمحنة فقد أخيهما ، وخاصة انهما لم يتمكنوا من رؤيته حيا بعد أن قطعوا رحلة طولها أربعة آلاف ميل ! ثم قال انه لما يهون من الفجعة ، ذلك العطف العظيم من المعزين . . . ولهذا فانه يشكرهم من قلبه ومن قلب أخيه ، لأنهما لا يستطيعان شكرهم بالفهم لأن الكلمات تعجز عن التعبير عما يخالجهما من شعور . . . واستمر « الملك » في هذا الحديث الممل ثم أطلق العنان لدموعه !! وما كاد « الملك » يفرغ من حديثه حتى بدأ أحد الحاضرين بانشاد ترنيمة حزينة ، فاشتراك الجميع معه في ابتهاال وضراعة ، فكدت أشعر بأننى فى كنيسة ! . . . ولا عجب ، فان للترانيم وقعا جميلا فى النفس . . . والحق أننى لم يسبق لى أن أحسست براحة كذلك التى شعرت بها فى هذه اللحظة ، فقد كان أداء الترنيمة ينبعث عن شعور واخلاص .

ثم بدأ فك « الملك » يرتعش ثانية ، وقال انه ليسره ويسر بنات أخيه أن يتناول عدد قليل من أصدقاء الأسرة الأخصاء الطعام معهم هذا المساء ، وان يساعدوا فى دفن رفاة الميت . ثم استطرد قائلا انه لو كان فى استطاعة أخيه المسكين المسجى هناك أن يتكلم لما تردد فى أن يذكر أسماء أصدقائه الذين كان يذكرهم دائما فى رسائله ، ومن بينهم : الكاهن « مستر هوبسون » ، والشماس « لوت هوفى » ، ومستر « بن راكر » ، و « أبتر شاكلفورد » ، و « ليفى بيل » المحامى ، والدكتور « روبنسون » ، وزوجاتهم والأرملة « بارنلى » !!

وكان الكاهن « هوبسون » والدكتور « روبنسون » متغيبين فى الطرف الآخر من المدينة . أما المحامى « بيل » ، فقد كان متغيبا فى « لويسفيل » لبعض شأنه ، ولكن الباقين كانوا موجودين ، فتقدموا جميعا وصافحوا « الملك » وشكروه وتحذثوا إليه ثم

صافحوا « الدوق » ولم يقولوا له شيئا ، وان كانوا قد ابتسموا له وهم يحنون رءوسهم اعرابا عن العطف ، بينما راح « الدوق » يشير بيديه ويقول « جو - جو - جو - جو - جو - جو - » كما يفعل طفل لا يستطيع النطق !

ومضى « الملك » فى حديثه الصاخب ، واستطاع أن يذكر أسماء معظم سكان المدينة ، بل لقد استطاع أن يذكر بعض الأحداث الصغيرة التى وقعت فى المدينة ، وخادمة ما وقع منها لأسرة « جورج » أولبيتر . . . وكان يدعى أن « بيتر » كتب له عن هذه الأحداث ، ولكن ادعاءه هذا كان أكذوبة ضخمة ؛ فهو لم يكن يعرف شيئا عن هذه الأحداث - التى سمع بها لأول مرة - من القروى الساذج الذى نقلناه بقرارنا الى البخرة ! . . .

وبادرت « مارى جان » باحضار الرسالة التى تركها أبوها ، فقرأها « الملك » بصوت مرتفع وهو يبكى ! . . . وكانت الرسالة توصى باعطاء المنزل والآلاف الثلاثة من الدولارات للفتيات ؛ وباعطاء المديونة (وكانت ناجحة) وبعض المنازل والأراضي (وقيمتها سبعة آلاف دولار) وثلاثة آلاف دولار لهارفى ووليم . . . كذلك ذكر « الميت » فى رسالته أن أخفى الستة الآلاف دولار ! . . . وبعد فترة قصيرة ، قال « الملك » انه سيذهب لاجتماع النقود ووضع الأمور فى نصابها على رؤوس الأشهاد احتراماً لوصية « بيتر » المسكين ! وطلب منى أن أحضر شمعة ، ثم أغلقنا باب « البدروم » - الذى توجد به النقود - خلفنا ، وعند ما عشر المحتالان على الحقيبة فتحها ، وألقيا بما تحويه من نقود ذهبية على الأرض ! ولقد رأيت عينى « الملك » تلتصقان ببريق عجيب . . . ثم قال للدوق :

- أوه . . . انها ليست مزيفة . . . أوه . . . يا الهى . . . ان هذه الصفقة تفوق كل ما عداها . . . أليس كذلك ؟

ووافق « الدوق » على هذا رأى ، وأخذ الاثنان يقلبان النقود

ويتركها تتساقط من بين أصابعهما على الأرض ، فتحدث
رنيانا خلافاً . . . ثم قال « الملك » . . . :

— لا فائدة من الكلام ! لا شك في أن القيام بدور أخوة رجل
ميت وممثلي ورتته يلائمني ويلائمك . . ان ما صادفناه من حظ
سعيد مرجعه الى الاعتماد على القدر ؛ فتلك هى خير وسيلة
للحياة . . لقد جربت جميع الوسائل الأخرى ، فلم أجد خيراً
من الاعتماد على القدر !

يا لهما من محتالين شريرين ! . . لقد كان حرياً بهما أن يحترما
جلال الموقف . . ولكنهما أبيا إلا أن يعدا النقود قطعة قطعة . .
ولقد اكتشفا أن هناك عجزاً قدره أربعمائة وخمسة عشر دولاراً !
قال « الملك » : لعنة الله عليه . . لشدة ما أعجب ماذا فعل
بهذه الدولارات المفقودة ! !

وبدا القلق على الرجلين ، وراحا ينقبان في مختلف أرجاء الغرفة
بحثاً عن الدولارات المفقودة ، وأخيراً قال الدوق :

— حسناً ، لقد كان الرجل مريضاً . . ومن الجائز أنه أخطأ في
ذكر رقم المبلغ ! . . أكبر ظنى أن تلك هى الحقيقة ! ولعل خير
ما نفعله هو أن ندع الأمور تجرى فى أعنتها ، فإنا نستطيع
الاستغناء عن هذا المبلغ .
فقال « الدوق » :

— نعم . . نستطيع الاستغناء عنه . . اننى لا أبالى . . ولكن
يجب علينا أن ننقل النقود الى الطابق العلوى ونعدها أمام الموجودين
جميعاً حتى تنتفى كل ريبة ! ولكن ما دام « الميت » قد قال انها
ستة آلاف دولار ، فان . . .

ثم قال الدوق : مهلاً لحظة . . دعنا نكمل المبلغ . .
وأخذ يخرج المبلغ الناقص من جيبه ، فقال الملك :

ـ يا لها من فكرة رائعة أيها « الدوق » .. الحق انك تتمتع
بذكاء لا يبارى ..

وأخذ « الملك » يعد النقود ثم حشاها داخل الحقيبة حتى اكتمل
المبلغ ستة آلاف دولار !!

وقال « الدوق » : عندي فكرة أخرى .. دعنا نصعد الى
الطابق العلوى ونعد هذه النقود ونعطى الفتيات نصيبهن منها ..
ـ فكرة رائعة أيها « الدوق » .. دعنى احتضنك من أجلك ..
انها أروع فكرة طافت فى رأس رجل .. الحق انك أذكى رجل
عرفته فى حياتى .. اوه ؛ تلك هى صفات الزعامة ولا شك ...
ان هذا العمل خليك بأن يقضى على كل ريبة .

وعند ما صعدنا الى الطابق العلوى ، التف الجميع حول المنضدة ،
وبدأ « الملك » يعد النقود ، حتى اكتمل عددها ستة آلاف دولار !
فراح الجميع يتطلعون اليها بعيون جائعة ، ويلعقون شفاههم ،
تم لم ألبث أن رأيت « الملك » يتحفز لالقاء خطاب آخر قال فيه :
« أيها الأصدقاء .. لقد أسدى أخى المسكين المسجى هناك
صنيعا عظيما يدل على السخاء بالنسبة لمن خلفهم يقاسون لوعة
الأحزان .. أسدى صنيعا عظيما لهؤلاء الفتيات البريئات اللائى
أحبهن وآواهن بعد أن حرمن من عطف الأب والأم .. نعم اننا ،
نحن الذين عرفناه جيذا ، نعرف انه كان يود أن يمتد سخاؤه
معهن أكثر من ذلك لولا خوفه من ايلام أخويه العزيزين « وليم »
وأنا .. أليس كذلك ؟ اننى لا أرتاب مطلقا فى ذلك .. حسنا
اذن .. هل هناك أخوان يستطيعان الاعتراض على وصية أخيهما
فى مثل هذا الوقت ؟ ثم ، هل يمكن لعمين أن يسرقا .. نعم يسرقا
مثل هؤلاء الفتيات البريئات اللائى أحبهن عمهن الميت مثل هذا
الحب العميق ؟ اننى لأعرف أخى على حقيقته .. ولكن .. يجدر
بى أن أسأله على كل حال ..

وتحول « الملك » الى « الدوق » ، وأخذ يشير اليه بيديه ،
بينما كان « الدوق » يتأمل به بغباء ، ولكنه سرعان ما أتى بإشارة
تدل على أنه فهم مرمى أخيه ، ووثب نحو أخيه وهو يردد
« جو - جو - جو » بكل قوة دلالة على فُزط سروره ، واحتضنه
بقوة زهاء ربع ساعة . . . وعندئذ قال الملك : « كنت أعرف ذلك ،
وأعتقد أن ما أبداه أخى كفيل باقناع أى شخص بحقيقة شعوره
. . . هيا يا « مارى جان » ويا « سوزان » ويا « جوانا » . .
خذوا هذه النقود . . خذوها كلها فهي هدية من عمكما المسجى
هناك . . وأغلب الظن أنه يشعر بالسُرور الآن رغم أنه جنة
هامدة » .

واحتضنت « مارى جان » الملك ، بينما احنضنت اختاها
« الدوق » ، واستمر منظر العناق والقبل بشكل لم أر له مثيلا ،
بينما تجمع الحاضرون حولهم ، والدموع تنحدر من عيونهم ،
وراحوا يصافحون المحتالين بحرارة قائلين :
- يا لكما من رجلين طيبى القلب !

ثم بدأ الجميع يتحدثون عن الرجل الميت ، ويعددون مناقبه ،
ومدى حزنهم عليه . وقبل أن يمضى وقت طويل ، رأيت عملاقا
عريض الوجه يشق طريقه حتى وصل الى الصف الأول ، ووقف
يصغى وينظر دون أن يتكلم أو يقول له أحد شيئا ، لأن الملك كان
يتكلم ، ولأن الجميع كانوا يصفون اليه . . كان الملك يقول فى
حديث كان قد بدأ :

« . . . انهم أصدقاء الميت المقربون . . ولهذا السبب دعوناهم
الليلة لانشاد « الترانيم » . . فانا نريد من الجميع أن يشتركوا
فى الجنتازة . . الجميع ، لأن الميت كان يحترم الجميع ، ويجب
الجميع ، ولهذا يجب أن تكون جنازته عامة » .
واستمر « الملك » فى حديثه هذا وكأنما كان يسره أن يستمع

الى نفسه . . وكان لا يفتأ يردد بعض الترانيم الجنائزية ، حتى ضاق « الدوق » ذرعا بذلك ! وأخرج « الدوق » ورقة كتب عليها « الطقوس الجنائزية ، أيها الأحمق الكبير » ، وطوى الورقة ، وراح يردد كلمته المألوفة « جو - جو » ، ثم ناول الورقة للملك من فوق رؤوس الموجودين . وبعد أن قرأ الملك الورقة وضعها في جيبه وقال :

— مسكين يا وليامز ! ان قوة سمعه حادة رغم عاهته . . انه يطلب منى أن أدعو كل شخص للاشتراك في الجنازة ، ويريد منى أن أرحب بالجميع . . مسكين ، انه لا يدرى إن هذا هو ما أقوله الآن ! . . .

ومرة أخرى استأنف « الملك » حديثه الذى كانت تتخلله كلمة الترانيم الجنائزية بين الحين والحين ، متلما كان يفعل من قبل . . وعند ما ردد كلمة « الترانيم » لثالث مرة قال :

— اننى أقول : « ترانيم » لا لأنها الكلمة الشائعة ، فهى ليست كذلك ، وإنما الكلمة الشائعة هى كلمة « طقوس » . . ولكن « ترانيم » هى الكلمة الصحيحة ، فان كلمة « طقوس » لم تعد تستعمل فى انجلترا الآن . . لقد اختفت . . ونحن فى انجلترا نقول « ترانيم » لأنها أفضل ، فهى كلمة مستمدة من أصل نصفه يونانى ، ونصفه الآخر عبرى . . ومعناها « خارجى أو عام » . . ومعنى ذلك أن الترانيم الجنائزية تستدعى اقامة جنازة ، مكسوفة . . . أو عامة !!

وفى تلك اللحظة ، ضحك الرجل ذو الوجه العريض فى وجه الملك . . فصعق الجميع وقال كل واحد منهم :

— ما هذا يا دكتور ؟ . . ألا تعرفه يا « روبنسون » . . انه « هارفى ويلكس » .

وابتسم « الملك » بلهفة ، وأبعد المنديل عن عينيه وقال :

— هل انت الدكتور الصديق الحميم لأخى المسكين ؟ اننى ...
فقال الدكتور : ابعد يدك عنى .. انك تتحدث كرجل انجليزى
.. اليس كذلك ؟ انك تقلد الرجل الانجليزى اسوأ تقليد .. هل
انت شقيق بيتر ويلكس ؟ انك دعى محتال !

وصمت الجميع ، وكان على رؤوسهم الطير ، ثم تجمعوا حول
الدكتور ، وحاولوا تهدئته ، كما حاولوا أن يشرحوا له الموقف
ويخبروه كيف أن « هارفى » أثبت شخصيته بأكثر من اربعين
دليلا ، وانه كان يعرف كل شخص باسمه .. وراحوا يتوسلون
اليه ويمعنون فى النوسل ألا يسىء الى شعور « هارفى » والفتيات
المسكينات ، ولكن بدون جدوى ، فقد راح الدكتور يرغى ويزبد
قائلا : « ان أى شخص يدعى أنه انجليزى ولا يستطيع أن يقلد
اللهجة الانجليزية خيرا مما يقلدها هذا الرجل ، لهو دعى كاذب » .
والتفت الفتيات المسكينات حول « الملك » وهن يبكين ، وفجأة
التفت الدكتور اليهن وقال :

— لقد كنت صديقا لأبيكن ... وانا صديق لكن ...
اناشدكن كصديق ، وصديق مخلص يريد حمايتكن وابعاد الضرر
والتعاب عنكن ، أن تولين ظهوركن لهذا الوغد .. وألا تتعاملن
معه ، فانه محتال جاهل رغم ما يدعيه من المام سخيف باللغتين
اليونانية والعبرية ! .. انه أجهل دعى رأيته .. لقد جاء الى هنا
وهو مزود بعدد من الأسماء والحقائق التى التقطها من مكان ما ،
فجعلكن تتوهمن انه عالم بالحقائق ، وساعدتموه على التفرير
بكن .. اصغى الى يا مارى جان ويلكس ، انك تعلمين اننى
صديقك ، وصديقك غير الأنانى أيضا ، فأرجوك أن تطردى هذا
الوغد الشرير .. أتوسل اليك أن تفعلى ذلك .. فهل أنت فاعلته ؟
فشدت « مارى جان » قامتها ! .. والحق انها كانت جميلة
جدا ، ثم قالت :

— اليك جوابى .

ثم رفعت حقيبة النقود ووضعتها بين يدى « الملك » قائلة :
— خذ هذه الآلاف الستة من الدولارات واستثمرها نيابة عنى
وعن أختى فى أى مشروع تشاء ، ولا تعطنا ايصالا عنها !!
ثم أحاطت عنق « الملك » بذراعها من جانب ، بينما أحاطته
« سوزان » وأختها الأخرى بذراعيهما من الجانب الآخر . وعندئذ
صفق الحاضرون ، وأخذوا يدقون الأرض بأقدامهم ، محدثين
عاصفة من الضوضاء ، بينما رفع « الملك » رأسه وهو يبتسم
بكبرياء !

وأخيرا قال الدكتور : حسنا .. اننى أنفض يدى من هذا
الموضوع ، ولكنى أحذركم جميعا من انه سيأتى وقت تشعرون
فيه بالأسف كلما طافت برءوسكم ذكرى هذا اليوم !!
ثم انصرف .

فقال « الملك » ساخرا : حسنا يا دكتور .. سنحاول ان
نجعلهم يرسلون فى طلبك !!
وضحك الجميع .. وقالوا انها « نكتة » مدهشة وفى الصميم !!

الفصل السادس والعشرون

الملك المزيف - كهنسة الملك -
الصفح - الاختباء في الغرفة -
(هاك) يستولى على النقود .

عند ما انصرف الجميع ، سأل « الملك » « ماري جان » عما اذا كانت بالمنزل غرفا اضافية ، فقالت ان بالمنزل غرفة اضافية واحدة تصلح للعم « وليام » ، وانها ستتنازل عن غرفتها للعم « هارفي » - الملك ! - لأن هذه الغرفة أكبر قليلا من الغرفة الاضافية . وقالت انها ستنام على فراش صغير في غرفة اختيها . . . ثم قالت ان هناك غرفة فوق سطح المنزل بها فراش من القش ، فقال « الملك » : اذن تخصص هذه الغرفة « لخدمتي » . . وكان يعنيني أنا طبعاً ! !

وتقدمتنا « ماري جان » ، فقادت المحتالين الى غرفتيهما . . وكانت الغرفتان بسيطتي الأثاث ولكنهما كانتا أنيقتين ' . . . وكانت الغرفتين بسيطتي الأثاث ولكنهما كانتا أنيقتين ! . . . اذا كان وجودها يضايق عمها « هارفي » ، ولكن « الملك » قال انه لا ضرورة لذلك ! ! . . كانت في الحجرة بضعة معاطف على الجدار

خلف ستارة من القماش الأبيض . . . وحقيبة عتيقة موضوعة في أحد الأركان . . . وعلبة قينارة في الركن الآخر . . . بينما انتشرت أشياء أخرى في شتى أنحاء الغرفة كما هى الحال دائما في غرف الفتيات ! وأعرب « الملك » عن إعجابه بالغرفة ومحتوياتها ، وقال انه لا يريد نقل أى شيء من مكانه فيها ! أما غرفة « الدوق » ، فقد كانت صغيرة ولطيفة . . . كذلك كانت غرفتى فوق السطح لا بأس بها !

وفى تلك الليلة ، أقيمت وليمة عشاء كبرى حضرها جمع كبير من الرجال والنساء . ووقفت خلف مقعدى « الملك » و « الدوق » لأقوم على خدمتهما ، بينما تولى الزنوج خدمة الباقين . وكانت « مارى جان » تجلس عند رأس المائدة ، وبجوارها « سوزان » . وقالت « مارى » أثناء الطعام انها تأسف لأن « الخبز » ردىء . والطعام المحفوظ سيىء ، ولحم الدجاج نىء ! قالت ذلك وهى تعلم أن الحاضرين جميعا كانوا يعلمون ان كل شيء على المائدة ممتاز فى نوعه ، فقالوا لها « ان الطعام شهى جدا . . . كيف تصنعين هذا الخبز اللذيذ ؟ . . . ومن أين اشتريت هذا النوع اللذيذ من « المخلل » ؟ » . ومضوا بشون عليها ويمطرونها بعبارات المجاملة التى يوجهها المدعوون الى مضيفتهم فى أمثال هذه الولايم !

وعند ما فرغ الجميع من تناول الطعام ، ذهبت الى المطبخ وتناولت عشاءى مع الأخت الصغرى ذات الشفة نامية الشعر ، بينما كانت الأختان الأخريان تساعدان الزنوج على تنظيف المائدة . وراحت الفتاة ذات الشفة نامية الشعر تستدرجنى للحديث عن انجلترا ، فشعرت بأن أمرى يوشك أن ينكشف !

قالت : هل رأيت « الملك » ؟

— أى ملك ؟ هنرى الرابع ؟ نعم رأيته . . . انه يتردد على كنيسةنا .

وتذكرت بعد ذلك أن « هنرى الرابع » مات منذ أعوام كثيرة ،
ولكنى لم أشأ أن أنراجع !
قالت الفتاة :

- ماذا ؟ هل يذهب الملك الى كنيستكم بانتظام ؟
- نعم . . . بانتظام . . . ان مقعده على يمين المذبح .
- كنت أظن انه يقيم فى لندن ؟
- هذا حق . . . والا فأين تظنينه يقيم ؟
- ولكنكم تقيمون فى « شيفلد » . . . أليس كذلك ؟
- وأدركت اننى « تورطت » ، فأسرعت أتظاهر بأن قطعة من عظم
الدجاج قد تسربت الى حلقى ، ورحت أسعل كسبا للوقت ، ريشما
أفكر فى مخرج من هذا المأزق .
- ثم قلت : أعنى أنه يذهب الى كنيستنا بانتظام كلما جاء الى
« شيفلد » . وهذا أمر لا يحدث الا فى الصيف عند ما يجىء الى
« شيفلد » للاستمتاع بالحمامات البحرية .
- ماهذا الذى تقوله ؟ . . ان « شيفلد » ليست على البحر .
- ومن قال انها على البحر ؟
- أنت .
- أنا لم أقل ذلك .
- بل قلت .
- لا . . لم أقله .
- نعم . . . قلت .
- لم أقل شيئاً من هذا القبيل .
- اذن . . ماذا قلت ؟
- قلت ، انه يستمتع بالحمامات البحرية . . هذا ما قلته !
- وكيف يمكنه ان يستمتع بحمامات بحرية فى مكان لبس به
بحر ؟ . . .

- هل سبق لك أن رأيت « ماء الكونجرس » ؟
- نعم ...
- هل يتحتم عليك الذهاب الى الكونجرس للحصول على مائه ؟
- لا ... بالطبع .
- وبالمثل ليس الملك « وليام الرابع » مضطرا للذهاب الى البحر ليأخذ حمامات بحر !!
- اذن كيف يحصل عليها ؟
- يحصل عليها بالطريقة التى يحصل الناس بها على « ماء الكونجرس » ... فى براميل !! ... ولما كان قصر الملك فى « شيفلد » لا يخلو من مواقد كثيرة ، على حين لا توجد مواقد بالقرب من البحر ، فان الملك يذهب الى « شيفلد » حيث يستمتع بحمامات الماء الدافئ ! ...
- آه ... فهمت . كان ينبغي أن تقول ذلك من بادىء الأمر حتى لا نضيع وقتا كثيرا .
- وعند ما قالت الفتاة ذلك ، أدركت اننى نجوت ، وشعرت بالراحة والسرور .
- ثم قالت الفتاة :
- هل تتردد على الكنيسة بانتظام ؟
- نعم ، بانتظام . .
- وأين تجلس ؟
- فى صالة الكنيسة ،
- أية صالة بالكنيسة ؟
- صالتنا . . . صالة عمك « هارفى » .
- صالته . . . ولماذا تخصص له صالة ؟
- ليجلس فيها .

— ليجلس فيها ؟ ! .. لقد كنت أظن أنه يؤدي شعائره الدينية في الهيكل !

وأسقط في يدي ، فقد نسيت أنه واعظ ... وأدركت أنني وقعت في « ورطة » جديدة ، فرحت أفكر سريعا ، ثم قلت :

— وهل تظنين أنه لا يوجد غير واعظ واحد بالكنيسة هناك ؟
— ولماذا يحتاجون الى أكثر من واعظ واحد ؟

— ماذا تقولين ؟ ... واعظ واحد أمام الملك ؟ ! ... الحق أنني لم أر فتاة ساذجة متلك ... ان عدد الوعاظ هناك سبعة عشر !

— سبعة عشر ؟ يا الهى ... أنني لا أصدق ما تقول ! .. ان الاستماع الى عظات سبعة عشر واعظا يستغرق أسبوعا !!

— هذا سخف ... انهم لا يلقون عظاتهم في يوم واحد ...
وانما يتكلم واحد منهم فقط !

— وماذا يفعل الباقيون اذن ؟

— لا شيء ... انهم يحضرون الصلاة ، ويتسكعون هنا وهناك .
... ليس لهم عمل خاص !

— اذن ، لماذا يحتفظون بهم ؟

— ان هذا هو النظام المتبع ! .. ألا تعرفين ذلك ؟

— أنني لا أريد أن أعرف .

ثم قالت : قل لى ... كيف يعاملون الخدم في انجلترا ؟ ...
هل يعاملونهم خيرا مما نعامل الزنوج ؟

— لا ... فالخدام هناك لا قيمة له !! ... انهم يعاملون الخدم كما يعاملون الكلاب !

— ألا يمنحونهم عطلات أسبوعية كما نفعل نحن هنا في مناسبات عيد الميلاد ورأس السنة الجديدة واليوم الرابع من يوليو ؟

— أوه ... اصغى الى ... ان سؤالك هذا يدل على أنك لم تزورى انجلترا أبدا ! ... أنني يا « جوانا » لم أحصل على عطلة

منذ عام ... لم أذهب يوما للسيرك أو المسرح أو استعراضات
الزئوج أو أى مكان آخر من الأماكن !

— ولا الكنيسة ؟

— ولا الكنيسة ...

— ألا تذهب للكنيسة ؟

وعندئذ أدركت أننى « تورطت » مرة أخرى ! ... فقد نسيت
اننى خادم « الواعظ » الكهل ! ... ولكننى سرعان ما شرحت لها
كيف يختلف خادم خصوصى مثلى عن الخادم العادى ... فالأول
مضطر للذهاب الى الكنيسة سواء أراد ذلك أم لم يرد ، وهو
مضطر الى الجلوس مع الأسرة التى يخدمها ، بحكم القانون !

ولكن يبدو اننى فشلت فى اقناعها ... فقد قالت :

— أيها الخادم الأمين ... ألم تسرف فى الكذب على :

— كلا ...

— ألم تنطق ولو بكذوبة واحدة ؟

— كلا ، مطلقا ... لم ينطق لسانى بأية أكاذوبة !

— اذن ضع يدك فوق هذا الكتاب ... واقسم على ذلك !

— وأدركت أن الكتاب لم يكن الا معجما لغويا ، فوضعت يدي

فوقه وقلت اننى لم أكذب ؛ فارتاحت نفسها بعض الشيء ثم
قالت :

— سأصدق بعض ما قلت ولو اننى لا أصدق البعض الآخر .

وفجأة انطلق صوت يقول :

— ما الذى لا تصدقينه يا « جوانا » ؟

كانت المتكلمة « مارى جان » ، فقد دخلت الغرفة فى تلك اللحظة ،
وسوزان فى اثرها ... ثم قالت مارى : « أليس من الأدب فى شيء
أن تحدثيه على هذا النحو وأنت تعلمين انه غريب بعيد عن
أسرته ... هل يعجبك أن يعاملك أحد على هذا النحو ؟

فقالت « جوانا » :

— تلك هى طريقتك دائماً يا « ماري » . . تهرعين دائماً لمساعدة من يصيبه أذى ! . . . ولكنى لم أصبه بأذى ! . . . لقد كان يذكر لى معلومات خيالية فقلت له اننى لا أهضمها . . . وهذا هو كل ما فلتسه له . وأكبر ظنى انه يستطيع احتمال قول هين يسير كهذا . . . أليس كذلك ؟

فقالت ماري :

— لا يعنينى أن يكون القول هينا أو صارماً . . . فكل ما يعنينى هو انه غريب فى منزلنا ، ولهذا ، لم يكن من اللائق ان تقولى له ما يسيئه . . . لو اننى كنت فى مكانه لشعرت بالحجل . . . ولهذا يجدر بك الا تقولى لأى شخص ما يجعله يشعر بالحجل .

— لقد قال لى يا « ماري » . . .

— ليس لما قاله أية أهمية . . . ليس هذا بيت القصيد . . . انما المهم هو أن تعامله بعطف ، فلا تقولى له أشياء تذكره بأنه ليس فى بلده بين أهله وعشيرته .

وعندئذ شعرت بتأنيب الضمير لاننى سمحت للمحتالين الشريرين بأن يجردا مثل هذه الفتاة الطيبة من مالها .

وأقبلت « سوزان » وهى تكاد ترقص فى منى بيتها ، فقلت لنفسى : « هاهى فتاة أخرى سمحت للمحتالين بسرقة نقودها » . وتدخلت « ماري جان » فى الحديث مرة أخرى بطريقتها الرقيقة الجذابة . . . وعند ما فرغت من ذكر ما فى جعبتها ، لم تدع لذات الشفقة المغطاة بالشعر ماتقوله ، فصاحت بها « ماري » و « سوزان » :

— اطلبى منه الصفح يا « جوانا » !

فطلبت « جوانا » منى الصفح بطريقة نبيلة ، وبصوت أطربنى حتى لقد تمنيت لو كان فى استطاعتى ان أقول لها ألف أكذوبة لكى أسمع صوتها الحنون مرة أخرى !!

وبدأت الفتيات الثلاث تحاولن اشعارى بأننى بين أهلى وعشيرتى، حتى لقد شعرت بأننى وضيع ونذل ، فقررت ان أفعل شيئا من أجلهن ... قررت أن أبذل كل ما وسعنى من جهد لمساعدتهن على استرداد المال المسروق ...

ثم انصرفت لآوى الى فراشى ... وعند ما اختليت بنفسى ، رحت أفكر فى الموقف مليا ، وأخذت أتساءل : هل أقابل ذلك الطبيب الذى ارتاب فى أمر هذين المحتالين ، وأفضح أمرهما ؟ . ثم عدلت عن هذا الرأى خشية أن يعترف الطبيب بأننى أفضيت له بالسر ، فينتقم منى « الملك » و « الدوق » ! ثم تساءلت :

هل أخبر « مارى جان » بالحقيقة سرا ؟ ... ومرة أخرى عدلت عن ذلك خشية ان تفضح قسما وجهها البريئة حقيقة ما حدث ، فيهرب المحتالان خلسة حاملين معهما المال ! كذلك خشيت ان تطلب الفتاة النجدة ، فأصبح متهما مثل هذين المحتالين ! وأخيرا أدركت انه لا توجد سوى طريقة واحدة هى أن « أسرق » النقود من المحتالين بطريقة لا تثير الريبة ، ثم أرد هذه النقود للفتيات المسكينات ! ..

ولما كنت أعلم ان المحتالين لم ينتهيا بعد من تمثيل دورهما وانهما لن يبادرا بالفرار قبل ان يستنزفا كل ما يستطيعان استنزافه من الأسرة والمدينة كلها ، أيقنت أنه لا تزال أمامى فسحة من الوقت للتفكير والعمل فى هدوء ...

ورسمت الخطة ... قررت أن « أسرق النقود وأخفيها فى مكان أمين ... وبعد أن نرحل ، أبعث الى « مارى جان » برسالة اذكر لها فيها المكان الذى أخفيت النقود فيه . ولكنى قررت فى الوقت ذاته ، أن أسرق النقود فى تلك الليلة بالذات ، خشية أن يبادر المحتالان بالفرار بعد أن كاد الطبيب يفضحهما . وقررت أن أذهب الى غرفتيهما وأفتشهما ، وكانت ردهة الطابق العلوى مظلمة ،

ولكنى استطعت العثور على غرفة « الدوق » ، فأخذت أتخسس أرجاءها بيدي ، رجحت أن « الملك » لم يسمح لأحد غيره بحراسة تلك النقود ، فذهبت الى غرفته ، وبدأت أتخسس أرجاءها بيدي؛ وسرعان ما تبين لى أننى لن أستطيع ان أفعل شيئاً بدون شمعة ، ولم يكن فى استطاعتى أن أفعل ذلك بالطبع ، فأيقنت أن سببى الوحيد هو أن أختبئ فى الغرفة وأسترق السمع لما يقوله الرجلان . وفى تلك اللحظة ، سمعت وقع أقدامهما تقترب من الغرفة ، فأسرعت أحاول الاختباء تحت « السرير » ، وتقدمت نحو شيء اعتقدت انه « السرير » فاذا بى بجوار « الستارة » التى تغطى معاطف مارى جان ، فاخبتأت خلفها بين المعاطف وجمدت فى مكانى كالتمثال .

ودخل الرجلان الغرفة ، ثم أغلقا الباب خلفهما . وكان أول مافعله « الدوق » هو ان ركع فوق ركبتيه وتطلع تحت « السرير » ... وعندئذ أحسست بالسرير لأننى لم أعر على السرير عند ما كنت أبحث عنه ، مع انه كان من الطبيعى أن أحاول الاختباء تحته ...

وجلس الرجلان ؛ ثم قال الملك :

— حسنا ، ماذا هناك ؟ أوجز ، لأنه من الأفضل أن نكون هناك ونرحل قبل طلوع النهار ، فهذا خير لنا من أن نبقى هنا ونتيح لهم فرصة الكشف عن حقيقتنا .

— الواقع أننى أشعر بقلق شديد بعد الزوبعة العاصفة التى أثارها الطبيب ... أريد أن أعرف خططك ، فان فكرة ، أظن انها معقولة ، تطوف بذهنى .

— فيم تفكر يا « دوق » ؟

— من الأفضل أن نبادر بالرحيل قبل الساعة الثالثة صباحا ، على أن نبحر مباشرة مكتفين بالغنيمة التى حصلنا عليها ، وخاصة

اننا حصلنا عليها بسهولة . . . فهذه الغنيمة قد هبطت علينا من السماء كما يقول المثل ؛ مع أننا كنا نعتزم سرقتها في بادئ الأمر . . . اننى أفضل الرحيل بلا ابطاء .

وشعرت بقلبي يغوص بين جنبى . لقد أصبح الموقف مختلفا عما كان عليه قبل ساعة أو اثنتين . . . ولهذا شعرت بخيبة أمل مريرة . . .

تم قال « الملك » :

— ماذا تقول؟ أنرحل قبل أن نبيع باقى الأملاك؟ انرحل كجماعة من الحمقى ونترك ممتلكات قيمتها ثمانية أو تسعة آلاف دولار؟ . . . انها كلها أملاك قابلة للبيع !

وتذمر « الدوق » وقال ان حقيبة الذهب تكفى ، وانه لا يريد أكثر من ذلك ، كما انه لا يريد أن يسرق كل شىء من ثلاث فتيات يتيمات !!

فقال « الملك » : كيف تقول ذلك ؟ اننا لم نسرق منهن شيئا غير النقود . أما الأملاك ، فان الذين يشترونها لن يلبثوا أن يتبينوا اننا لا نملكها . . . وسيعلمون ذلك بعد رحيلنا بفترة قصيرة ، ومن ثم لن يكون البيع قانونيا ، وعندئذ تصبح الأملاك ملكا للدولة . أما الفتيات اليتيمات فسيسترجعن منزلهن ، وفى هذا الكفاية بالنسبة لهن ! انهن جميلات وصغيرات ، وفى استطاعتهن أن يلتحقن بأى عمل يعشن منه . انهن لن يتعذبن . . . فكر فى الأمر مليا ، فهناك آلاف وآلاف ليسسوا فى موقف حسن كهذا . . . هون عليك يا صديقى فليس هناك ما يدعو الى تدميرهن .

وهكذا استطاع « الملك » التأثير على « الدوق » حتى اقنعه بوجهة نظره . ولكن « الدوق » قال انه يعتقد — مع ذلك — ان البقاء فى المدينة أمر محفوف بالمخاطر وخاصة بعد أن ارتاب « الطبيب » فيهما ، ولكن « الملك » قال :

لـ لعنة الله على هذا الطبيب . . . ماذا يهمنا منه ؟ ألم ننجح في ضم جميع الحمقى في هذه المدينة الى جانبنا ؟ أليس هؤلاء هم غالبية أهل المدينة ؟

وهكذا تهيأ الاثنان للنزول الى الطابق الأرضي ثانية ، فقال « الدوق » : لا أظن أننا وضعنا النقود في مكان آمن .

وشعرت بالفبطة . . . فقد خيل لي أنهما لن يلبتا أن يذكرنا اسم المكان الذي وضعنا النقود فيه . قال « الملك » : ولماذا ؟

لـ لأن « ماري جان » سوف ترتدى ثياب الحداد في هذه الغرفة ، وعندئذ سوف تأمر الزنجرى الذى يرتب الغرفة بوضع النقود في مكان آخر . . . وأنت تعلم انه ما من زنجرى يعثر على نقود الا و « يقترض » بعضها !

فقال « الملك » : يبدو لى ان عبقريتك بدأت تظهر من جديد !! وراح يتحسس وراء الستار على مبعدة قدمين أو ثلاثة من مكاني ، فالتصقت بالجدار ، وحبست أنفاسى وتولتني رعشة قوية ، وبدأت أتساءل عما سيفعله الرجلان بى اذا اكتشفا وجودى ! وأخذت أفكر فيما أقوله لهما اذا ضبطانى ، ولكن « الملك » عثر على الحقيبة قبل أن يفتح الله على بفكرة سديدة ، ولهذا لم يشك أحد في وجودى . . . ونقل الاثنان الحقيبة ووضعها في قلب كومة القش أسفل حشية السرير ، وقالوا ان لا خطر عليها هناك لأن الزنجرى يرتب السرير دون أن يرفع الحشية اللهم الا مرة أو اثنتين كل عام ، ومن ثم فلا خوف على الحقيبة .

أما أنا ، فكنت أخالفهما في هذا الرأى ؛ اذ ما أن هبطا نصف الدرج حتى كنت قد استوليت على الحقيبة بمحتوياتها ، وأسهرت بالصعود الى غرفتى ، وأخفيت الحقيبة فيها ريثما تتاح لى فرصة لاختفائها في مكان آخر . . . فقد قررت نقلها الى مكان آخر خارج

المنزل ، حتى لا يعثر عليها هذان المحتالان اللذان سوف يُغلبان
المنزل كله رأساً على عقب حينما يتبين لهما ضياع الحقيبة ! ثم آوينا
الى الفراش ، ولكنى لم أستطع النوم ، لأننى كنت شديد اللهفة
على الانتهاء مما أقدمت عليه . وبعد قليل سمعت « الملك »
و « الدوق » يصعدان الدرج مرة أخرى ، فهبطت من فوق الفراش
وانبطحت على الأرض ورحت أنصت إليهما ، ولكنهما لم يقولوا
شيئاً !

وظللت منبطحة على الأرض فترة طويلة جداً بعدها كل صوت
فى المنزل ، فهبطت الدرج حاملاً الحقيبة المحشوة بالنقود الذهبية !

الفصل السابع والعشرون

الجنائزة - حفار القبور - ارضاء
الفضول - بيع سريع وأرباح ضئيلة !

زحفت الى بابى غرفتيهما وأصخت السمع ، فاذا بشخيرهما يرتفع من الداخل . ومضيت أسير فوق أطراف أصابعى ، ونزلت الى الطابق الأرضى فبلغته بسلام . . . وكان السكون تاما ، واختلست النظر من شق فى باب غرفة المائدة ، فرأيت الرجال الذين يراقبون الجثة وقد استغرقوا فى نوم عميق وهم جلوس فوق المقاعد . وكان باب الغرفة المطل على غرفة الجلوس التى كانت الجثة بها مفتوحا . وكانت هناك شمعة مضاءة فى كل من الغرفتين فمررت بهما . وكان باب غرفة الجلوس مفتوحا ولم أجد بها أحدا غير جثة « بيتر » ، فمررت بها أيضا . ولكن باب المنزل الخارجى كان مغلقا ولم يكن المفتاح موجودا فى القفل ، وفى تلك اللحظة سمعت وقع أقدام تهبط الدرج خلفى ، فركضت فى غرفة الجلوس وألقيت نظرة سريعة حولى ، ولم أجد مكانا يصلح لاختفاء الحقيبة فيه غير التابوت . وكان غطاء التابوت مرفوعا قليلا من المقدمة لافهار وجه الميت ، وقد وضعت فوقه قطعة مبللة من القماش ؛ فأدخلت حقيبة النقود من تحت غطاء التابوت ودفعتها الى المكان

الذى عقدت عنده ذراعا الميت . . . وعندئذ سرت فى جسمى رعدة قوية . . . فغادرت الغرفة على الفور واختفيت خلف الباب . كان القادم هو « مارى جان » ! وتقدمت الفناء من التابوت بهدوء شديد ، وركعت أمامه ، ثم تطلعت اليه ، ورفعت منديلها الى عينيها ، وبدأت تبكى . وانتهرت هذه الفرصة فتسللت من مخبأى . وبينما كنت أعبر غرفة المائدة ، تراءى لى ان استونق من ان أحدا من مراقبى الجثة لم يرنى ، فتطلعت من خلال الشق ، فاذا بكل شىء على ما يرام ، فقد كان الجميع نياما .

وتسللت الى غرفتى ، وآويت الى فراشى وأنا أشد ما أكون ضيقا بسبب التحول العجيب الذى طرأ على الموقف بعد المشاعب التى كابدها والمخاطر التى تعرضت لها . . . وقلت لنفسى انه اذا بقيت الحقيبة حيث هى ، فلا بأس ، ففى استطاعتى أن أبعث برسالة الى « مارى جان » بعد أن تقطع مائة أو مائتى ميل فى النهر ، فتبادر باخراج الحقيبة وتحصل على النقود ! ثم قلت لنفسى ان هذا لن يحدث ؛ فسوف ينكشف سر الحقيبة أثناء تثبيت غطاء الصندوق توطئة لدق المسامير فيه . وعندئذ يسترد « الملك » الحقيبة ، ويتخذ من ضروب الحيلة ، هذه المرة ، ما يحول دون ضياعها منه ثانية . . . وكنت أتمنى أن أنسل الى الطابق الأسفل نانية لاجراج الحقيبة من التابوت ، ولكنى لم أحاول ذلك . . . وبدأت الدقائق تمر سراعاً والفجر يقترب . . . وخشيت أن يسيقظ الحراس ويضبطونى حاملا ستة آلاف دولار لم يطلب أحد منى حراستها ، فقلت لنفسى : كلا . . . لست أريد أن أتورط فى أمر كهذا !!

وعند ما هبطت الى الطابق الأسفل فى صباح اليوم التالى كانت غرفة الجلوس مغلقة ، وكان المراقبون قد غادروا الحجرة . . . ولم يكن هناك أحد سوى أفراد الأسرة والأرملة « بارتلى » و « الملك »

و « الدوق » . وتاملت وجهى الملك والدوق لأرى ان كانا قد اكتشفا ضياع الحقيبة ، ولكنى لم أستطع ان أتبين جلية الأمر .
وحوالى الظهر ، أقبل حفار القبور ومساعداه ، فوضعا التابوت فوق مقعدين فى منتصف الغرفة ، تم نظما المقاعد فى صفوف واستعارا بعض المقاعد من الجيران فامتلات غرفة الجلوس والردهة بصفوف من المقاعد . ورأيت غطاء التابوت فى الوضع ذاته الذى كان عليه فى الليلة السابقة ، ولكنى لم أحاول النظر داخل التابوت !
وبدا الناس يفدون ، وجلست الفتيات وأترابهن فى الصف الأول عند رأس التابوت . وكانوا جميعا يتطلعون الى وجه الميت ، ويذرف بعضهم دمعة ، ثم يصمتون . . . كان المكان ساكنا يخيم عليه حزن عميق . . . وكانت الفتيات وأترابهن تضعن مناديلهن فوق عيونهن ويخفضن رؤوسهن ثم يبكين ، ولم يكن يسمع سوى صوت احتكاك الأقدام بالأرض وافرغ الأنوف ! . . . فالتاس يفرغون أنوفهم فى الجنازات أكثر مما يفرغونها فى أى مكان آخر باستثناء الكنيسة ! !

وعند ما امتلأ المكان ، دار حفار القبور حول التابوت وهو يرتدى قفازه الأسود ويهيم الحاضرين وكل شئ للحظات الأخيرة . . . كان يؤدي عمله بسرعة وخفة عجيبتين ، فيفسح الطريق لمن حضروا متأخرين ويومئ اليهم برأسه أو يشير اليهم بيديه ليجلسوا . والحق اننى لم ار رجلا يؤدي عمله يمثل هذه السهولة والبساطة ! وكانت الأسرة قد استعارت أرغنا عتيقا . وعندما أعد كل شئ ، جلست شابة أمام الأرغن وراحت تعزف عليه ، فارتفع صوت أشبه بالصرير ؛ واشترك الحاضرون جميعا فى الإنشاد ، فارتفع الضجيج والصخب . . . وعندئذ خيل لى ان « بيتر » الميت هو الشخص الوحيد الذى كان ينعم بالهدوء !
كانت مراسيم الجنازة دلويلة ومملة . وعندما انتهت ، نهض

« الملك » وألقى كلمة من كلماته السخيفة المعتادة . وأخيرا انتهى كل شيء ، وبدأ حفار القبور يدور حول التابوت وهو يحمل « المفك » . وعندئذ أحسست بالعرق يبللنى ورحت أراقب الرجل بلهفة ، فرأيت يثبت الغطاء فى مكانه بالمسامير بسهولة وبسرعة وبدون أن يحرك الجثة من مكانها !..

وهكذا انتهى الأمر ، ولكنى لم أكن متأكدا من أن النقود مازالت فى التابوت وقلت لنفسى : أكبر الظن أن شخصا ما قد سرق الحقيقة خفية . وتساءلت : كيف يمكننى أن أعرف ذلك ؟ هل أكتب لمارى جان أم لا ؟ ولنفرض أنها نبشت التابوت بعد دفن أبيها ولم تعثر على شيء ، فماذا يكون رأيها فى ؟ أليس من المحتمل أن يطاردونى وأن يزجوا بى فى السجن ؟ ومن ثم قررت أن ألوذ بالصمت ، وألا أكتب الى الفتاة .. فقد كان الموقف غامضا ... وخيل لى اننى أخطأت حينما وضعت النقود فى التابوت .. وتمنيت لو اننى تركت الأمور تجرى فى أعنتها !

وواروه التراب ، ثم عدنا الى المنزل ، واستأنفت مراقبة الوجوه .. فقد كنت خائفا وقلقا ، ولم يكن فى وسعنى أن أكف عن مراقبة الناس وخاصة « الملك » و « الدوق » .. ولكن المراقبة لم تسفر عن شيء لأن الوجوه لم تحدثنى بشيء .

وزار « الملك » معظم سكان المدينة فى المساء ، وتلطف فى الحديث مع الجميع ، وتودد اليهم ، ثم قال ان المترددين على كنيسته فى انجلترا يتلهفون الآن على عودته ؛ ومن ثم فانه مضطر الى بيع الأرض التى خلفها أخوه والاسراع بالعودة الى انجلترا . وأعرب « الملك » عن عميق أسفه لاضطراره الى هذه العجلة ، وشاطره الجميع أسفه ، قائلين انهم كانوا يتمنون لو أنه استطاع اطلاقه اقامته بينهم ، وان كانوا يعلمون ان ذلك أمر عسير . وقال « الملك » انه و « وليام » سيأخذان الفتيات الثلاث معهما الى

انجلترا ، فسر الجميع أيما سرور لأن مثل هذا القول كشف عن
رغبة قوية في رعاية الفتيات . وشعرت الفتيات أنفسهن بسرور
طاغ ، حتى لقد بدت عليهن علامات السعادة ، ونسين ما مر بهن
من عسر ومتاعب في حياتهن . ومن ثم طالبن « الملك » بالاسراع
في البيع والرحيل . . . والحق ان ما رأيته من فرحة هؤلاء الفتيات
وسعادتهن جعلنى أشعر بكثير من الحزن والأسف لوقوعهن في
حبائل هذا المحتال الخطير ، ولكنى لم أستطع أن أفعل شيئا !! .
ولم يضع « الملك » وقتا ، فقرر عقد مزاد لبيع المنزل والزواج
وكل شيء على أن يتم البيع بعد يومين وان كان في استطاعة أي
شخص أن يشتري ما يشاء مما سيباع في المزاد قبل عقده .

وهكذا ، ما أن تم تشييع الجنازة ظهر اليوم التالى حتى بدا
الفرح على الفتيات ، وفي هذا اليوم جاء تاجران من تجار الرقيق ،
فباع « الملك » لهما الزوج بسعر معتدل ! وهكذا نقل الابنسان
الزنجيان الى بلد بينما نقلت الأم الى بلد آخر . . . وكان منظر
وداع الفتيات لخدمهن الزوج أليما حقا ، حتى لقد خيل الى أن
قلوبهن تكاد تنفطر من الحزن . . . فقد قالت الفتيات انهن لم يكن
يتصورن أبدا أن يأتى يوم تتفرق فيه الأسرة وتباع فيه زوجاتها
بعيدا عن المدينة . ومنذ ذلك اليوم ، وأنا لا أستطيع أن أنسى
منظر الفتيات المسكينات وقد تشبث بهن الزوج في يأس .
وما كنت لأستطيع أن أتحمل وقع هذا المنظر على نفسى ، وما كنت
لأنزدد في كشف النقاب عن المحتالين ، لولا علمى بأن الاتفاق كان
قد تم على أن يدفع تجار الرقيق ثمن الزوج مؤجلا ، وأنه من
المحقق أن الزوج سوف يعودون الى الأسرة بعد أسبوع أو
اثنين ! ولقد أحدث بيع الزوج ضجة في المدينة ، وأقبل الكثيرون
ليقولوا ان من العار فصل الزنجرين عن أمهما بهذه الطريقة .
وتظاهر المحتالان بأنهما متألمان . . . وراح « الملك » ينفذ خطته

رغم اعتراض « الدوق » الذى كان بادى الاضطراب .
وفى صباح اليوم التالى - المخصص لعقد المزاد - صعد
« الملك » و « الدوق » الى غرفتى وأيقظانى . وما كادت عيناى
تقعان على وجهيهما حتى أدركت ان فى الأمر شيئاً .

قال « الملك » : هل كنت فى غرفتى ليلة أول أمس ؟
فقلت : لا يا صاحب الجلالة .

- وهل كنت بها أمس أو الليلة الماضية ؟
- لا يا صاحب الجلالة .

- أقسم .. واحذر الكذب ؟

- يا صاحب الجلالة ، أقسم على اننى أقول الصدق .. اننى
لم اقترب من غرفتيكما منذ أن رافقتكما الانسة « ماري جان »
اليهما .

فقال « الدوق » : هل رأيت أى شخص آخر يدخلهما ؟
- لا يا صاحب السعادة . لست أذكر اننى رأيت أحداً
يدخلهما .

- فكر جيداً .

فتظاهرت بالتفكير ، وهنا لاحظت لى فكرة ، فقلت :

- رأيت الزنوج يدخلون الغرفتين مرات عديدة .
واجفل الرجلان ، وبدا عليهما أنهما كانا يتوقعان سماع هذا
الكلام منى ، فقال الدوق : ماذا تقول ؟ كلهم ؟
- لا بالطبع .. انهم لم يدخلوهما معا .. ولكنى أذكر اننى
رأيتهم يخرجون معا من الغرفة ذات مرة .

- آه ، ومتى كان ذلك ؟

- يوم تشييع الجنازة .. وكان ذلك فى الصباح ، ولكن ليس
فى ساعة مبكرة .. فقد استيقظت متأخراً فى ذلك اليوم ..
وبينما كنت أهبط الدرج رأيتهم ..

— استمر . . استمر . . ماذا فعلوا ؟ وكيف كانوا يسلكون ؟
— لم يفعلوا شيئا ولم يكن سلوكهم غير عادى ، وانما كانوا
يمشون فوق أطراف اصابعهم مبتعدين ، فأدركت انهم جاءوا
ليرتبوا غرفة جلالتك وينظفوها معتقدين انك استيقظت من
نومك ، ولكن تبين لهم انك ما زلت نائما ، فحرصوا على عدم
ايفاظكم تجنباً للمتاعب .

فصاح « الملك » غاضبا : يا الله ، لقد ضاع كل شيء .
واخذا يتبادلان النظرات فى بلاهة . ثم راحا يحكان رأسيهما
لحظة ، وسرعان ما انفجر « الدوق » ضاحكا وقال :

— حقا ، لقد أجاد الزوج أداء دورهم حينما تظاهروا بالحزن
لاضطرارهم الى ترك المدينة ، حتى لقد صدقت انهم كانوا جد
متألمين . . حقا انه لمن الغباء أن يظن الانسان ان الزوجى محروم
من الذكاء . . ان الطريقة التى اتبعها هؤلاء الزوج فى تحقيق
مآربهم تنطلى على أى انسان ، وفى رأى أن هؤلاء الزوج
يستطيعون أن يجمعوا ثروة كبيرة . . واو كنت أملك رأس المال
ومسرحا لما تمنيت أكثر من أن تكون فرقتى من هؤلاء الزوج . .
ومع ذلك فقد بعناهم بأبخس الأثمان . . ولكن ما زال فى الوقت
متسعا . . أين الكمبيالة ؟

— فى المصرف لتحصيلها .

— شكرا لله .

فقلت فى شيء من الجبن : هل حدث شيء ؟

فالتفت « الملك » الى قائلا :

— ليس هذا من شأنك ، فامسك لسانك . وحذار أن تنسى
هذه النصيحة طيلة اقامتك فى هذه المدينة . . هل فهمت ؟
ثم قال للدوق : علينا أن نتقبل ما حدث ونلوذ بالصمت .

وعند ما هما بهبوط الدرج ، قهقهه « الدوق » ضاحكا مرة أخرى وقال :

— بيع سريع وأرباح ضئيلة ، يا لها من صفقة مدهشة ، نعم !
فزمجر « الملك » قائلا : لقد كنت أنشد ما فيه خيرنا حينما
قررت بيع الزوج بسرعة . . . فاذا لم نربح شيئا فلبس الذنب
ذنبى . . . انه ذنبنا نحن الاثنين !! .
— كان من الممكن أن يبقى الزوج هنا لو انك استمعت الى
نصيحتى .

وتراجع « الملك » الى الورااء نم استدار الى وصب جام غضبه
على ، فأخذ يقرعنى لأننى لم أخبره اننى رأيت الزوج يخرجون
من غرفته على أطراف أصابعهم ! . . . ثم قال انه كان بوسع أى
أحمق ان يدرك قطعاً ان فى الأمر شيئاً غير عادى ! ثم انحنى الى
نفسه باللائمة لأنه لم يسهر فى تلك الليلة . ثم انصرف الرجلان وهما
يرغيان ويزبدان . أما أنا فكنت سعيداً أشد ما تكون السعادة ،
فقد ألقيت عبء المسؤولية كله على الزوج وأنا أعلم ان ذلك لن
يسىء اليهم فى الوقت الحاضر على الأقل !

الفصل الثامن والعشرون

الرحلة الى انجلترا - ((الوغد)) - المسرحية
الملكية - ماري جان تقرر الرحيل - ((هاك))
يودع ماري جان - التهاب الفسدة النكفيسة

وبعد دقائق قليلة ، هبطت الى الطابق الأرضي ؛ وما كدت أصل الى غرفة الفتيات حتى وجدت بابها مفتوحا ، ورأيت «ماري جان» جالسة امام حقيبتها القديمة المفتوحة وهي تضع ثيابها فيها استعدادا للرحيل الى انجلترا . . . ثم توقفت عن العمل ووضعت الثوب الذي كانت قد طوته في حجرها ، وأسندت ذقنها الى يديها ، ثم انخرطت في البكاء . وكان هذا المنظر مؤلما حقا ، فكادت نفسى تنفطر . . . وبعد ان استجمعت رباطة جأشى قلت لها :

- أعلم انك لا تطيقين ان ترى الناس غارقين في المتاعب . . .
وأنا ايضا لا أطيق ذلك . . . فحدثيني عما يؤلمك يا سيدتى . . .

فقالت انها حزينة من أجل الزنوج . . . ثم قالت ان الرحلة الجميلة الى انجلترا قد فقدت روعتها بالنسبة اليها ، وانها لا تعلم كيف يمكن ان تشعر بالسعادة ثانية هناك وهي تعلم ان الزنوجيين الصغيرين لن يريا أمهما ثانية . . . وراحت تبكى ، ثم رفعت يديها في الهواء وقالت :

— أوَاه ، أوَاه لَن يَرى أَحَد مِنهُم الآخَر ثانِيَة .
فَقُلْتُ : بَل سَيَجْتَمِع شَمْلُهُمَا ثانِيَة خِلال أَسْبوعَيْن ، فَأَنَا أَعْلَم
ذَلِكَ . . .

— يَا إِلَهِي ! لَقَدْ زَل لِسَانِي ! وَفَجْأَة أَحَاطَتْ الْفَتَاةُ عُنُقِي بِذِرَاعِيهَا
وطلبت مِنِّي أَنْ أَكْرِرَ مَا قُلْتُ ثانِيَة وَثَالِثَة . . .
وَأَيَقَنْتُ أَنِّي تَسْرَعْتُ فِي الْكَلَامِ ، وَأَنَّنِي تَمَادَيْتُ فِيهِ ، وَبِذَلِكَ
أَصْبَحْتُ فِي مَوْقِفٍ شَدِيدِ الْحَرْجِ ، فَطَلَبْتُ إِلَيْهَا أَنْ تَدْعُنِي أَفْكَرَ قَلِيلًا .
وظَلْتُ جَالِسَة حَيْثُ كَانَتْ وَقَدْ بَدَأَ عَلَيْهَا الضِّيقُ وَالْقَلْقُ . وَمَعَ
ذَلِكَ بَدَتْ سَعِيدَة بِعَظْمِ الشَّيْءِ . وَكَانَتْ سَعَادَتُهَا تَلِكُ أَشْبَهَ بِسَعَادَةِ
شَخْصٍ خَلَعَ ضَرْسًا كَانَ يَسَبِّبُ لَهُ أَلَمًا شَدِيدًا !! . وَرَحْتُ أَفْكَرَ فِي
الْأَمْرِ ، قَائِلًا لِنَفْسِي أَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَعْتَرِفُ بِالْحَقِيقَةِ حِينَئِذَا يَجِدُ
نَفْسَهُ فِي مَرْكَزِ حَرْجٍ يَقْدَمُ عَلَى مَجَازَفَةٍ كَبِيرَةٍ لَا مَهْرَبَ مِنْهَا ؛ وَمَا
دُمْتُ إِزَاءَ حَالَةٍ يَبْدُو أَلَّا تُخْرِجُ مِنْهَا إِلَّا بِقَوْلِ الْحَقِيقَةِ ، فَمَنْ الْخَيْرُ لِي
أَنْ أَقْدِمَ عَلَى الْمَجَازَفَةِ وَقَوْلِ الْحَقِيقَةِ رَغْمَ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ خَطُورَةٍ . .
وَهَكَذَا قَرَّرْتُ أَنْ أَصَارِحَهَا بِكُلِّ شَيْءٍ .

قُلْتُ لَهَا : أَخْبِرِينِي يَا آنَسَةُ « مَارِي جَان » ؛ هَلْ هُنَاكَ مَكَانٌ
خَارِجُ هَذِهِ الْمَدِينَةِ وَلَكِنَّهُ قَرِيبٌ مِنَّا ، تَسْتَطِيعِينَ أَنْ تَذْهَبِي إِلَيْهِ
وَتَقِيمِي فِيهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ أَوْ أَرْبَعَةً ؟

— نَعَمْ . . . هُنَاكَ مَنْزِلُ أُسْرَةٍ « لَاثْرُوب » . . . لَكِنْ لِمَاذَا ؟

— لَا تَسْأَلِي عَنِ السَّبَبِ الْآنَ . . . هَلْ إِذَا قُلْتُ لَكَ أَنَّنِي أَعْرِفُ
أَنَّ الزَّوْجَ سَيَعُودُونَ إِلَيَّ هُنَا ثَانِيَة ، فِي خِلالِ أَسْبوعَيْن ، وَأَثْبِتَ
ذَلِكَ لَكَ ، تَذْهَبِينَ إِلَى مَنْزِلِ أُسْرَةٍ لَاثْرُوبٍ وَتَمْكُثِينَ بِهِ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ ؟
— أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ ؟ أَنَّنِي مُسْتَعِدَّةٌ لِلْبَقَاءِ فِيهِ عَامًا كَامِلًا إِذَا صَحَّ مَا
تَقُولُهُ . . .

— لَسْتُ أُرِيدُ مِنْكَ إِلَّا « كَلِمَةً شَرَفَ » ، فَأَنْبِي أَثِقْ بِهَا كَالْقَسَمِ
عَلَى الْإِنْجِيلِ !

فأبتسمت ، وتورد خذاها في حمرة زادتها جمالا . . .
قلت لها : أرجو أن تسمحى لى باغلاق الباب بالمرلاج . . .
ثم عدت الى الفتاة ، وجلست بجانبها ، وقلت لها :
- اجلسى هادئة ، واحتملى الصدمة بشجاعة ، فانى مضطرا
للافضاء اليك بالحقيقة . . . تمالكى رباطة جأشك يا آنسه مارى
لأن الحقيقة مرة وقاسية ، وان لم يكن هناك مفر من قبولها . . .
ان هذين العمين ليسا عميك . . . انهما دعيان محتالان محترفان . .
ها قد سمعت أسوأ ما فى الموقف ، ولا شك أنه فى استطاعتك أن
تتحملى ما سيأتى بعد ذلك فى شجاعة .
وعندئذ تملمت الفتاة فى جلستها . . . ولكنى أدركت اننى
تجاوزت مرحلة الخطر فمضيت فى حديثى . ولاحظت أن بريقا
خاطفا كان ينبعث من عيني الفتاة كلما مضيت فى الحديث ،
فحدثتها بكل شىء ابتداء من اللحظة التى التقينا فيها بذلك القروى
الأحمق الذى كان يريد السفر بالباخرة ، حتى اللحظة التى ألفت
الفتاة بنفسها بين ذراعى « الملك » عند باب المنزل الخارجى فقبلها
ست عشرة أو سبع عشرة مرة . . . وهنا وثبت الفتاة واقفة وقد
تطاير شرر الغضب من عينيها وتوهج وجهها توهج وجه الشمس
عند الغروب وقالت :
- يا للوغد ، تعال . . . لا تضيع دقيقة واحدة ، بل ولا ثانية
واحدة . . . فسنفصح أمرهما ونلقى بهما فى النهر .
فقلت : بالطبع ، ولكن هل تعين انك ستفعلين ذلك قبل الذهاب
الى منزل أسرة لوثرروب ، أم . . .
فقلت : اصفح عني . . . أرجوك .
ووضعت يدها الناعمة كالحرير على يدي ثم أردفت :
- لم اكن أعتقد اننى سأثور الى هذا الحد . . . والآن استمر

في حديثك . . . أعدك أنني لن أفقد سيطرتي على نفسي ثانية . . .
قل لي ما ينبغي لي ان أفعل ، وسأفعله على الفور .

— ان هذين الوغدين الدعيين يكونان عصابة خطيرة ، واني مضطر
الى البقاء معهما فترة أطول ، سواء أردت ذلك أم لم أرده — ولكنى
أفضل ألا أذكر السبب . . . فاذا أثرت المدينة عليهما وأمكن
انقاذى من أيابهما ، فهذا هو الخير كل الخير . . . ولكن ذلك خليق
بأن يخلق متاعب لا حصر لها لشخص آخر لا تعرفينه . . . وهو
شخص حبيب الى نفسي . . . ومن ثم ، لن نفضح أمر هذين
الدعيين الآن ! . . .

وما كدت أنطق بهذه الكلمات حتى خطرت لي فكرة جعلتني
أعتقد ان في استطاعتى و « جيم » أن نتخلص من هذين الدعيين ،
وهى ان أعمل على زجهما في السجن ثم نرحل أنا وجيم .
ثم قلت للفتاة :

— سأقول لك ما ينبغي لنا أن نفعله يا آنسة مارى جان ، حتى
لا تضطرى الى البقاء بمنزل أسرة لوثر وب طويلا . . . أين يوجد
منزل مستر لوثر وب هذا ؟
— على مبعدة أربعة أميال . . . جنوبا :

— اذن اذهبى الى هناك وامكثى في المنزل حتى الساعة التاسعة
أو التاسعة والنصف مساء ، ثم اطلبى من واحد منهم أن يعود بك
الى هنا ، فاذا عدت قبل الساعة الحادية عشرة ، ضعى شمعة موقدة
في هذه النافذة . فاذا لم أحضر ، انتظرى حتى الساعة الحادية
عشرة ، فاذا لم أحضر أيضا ، فمعنى ذلك اننى رحلت وأصبحت
بأمن ، وعندئذ يمكنك المبادرة بكشف أمر هذين الدعيين المحتالين
والزج بهما في السجن .

فقلت : سأفعل ذلك .

فقلت لها :

— أما اذا لم أستطع الرحيل ، واضطرت الى البقاء معهما ، فعليك أن تقولى اننى أفضيت اليك بالحقيقة كلها من قبل ، على أن تشدى أزرى ما وسعك ذلك .

— بالطبع ، سأشد أزرى ، انهما لن يقدرآ على لمس شعرة من رأسك .

نطقت الفتاة بهذه العبارة بحماس شديد وقد انتفخت أوداجها وانبعث من عينيها بريق خاطف .

فقلت : اذا نجحت فى الفرار ، فمعنى ذلك اننى لن أكون هنا لأثبت ان هذين الوغدين ليسا عميك . . . بل اننى لن أستطيع ان اتبت ذلك اذا بقيت هنا . . . وكل ما أستطيعه هو أن أقسم انهما دعيان محتالان ولو ان ذلك قد لا يحسم الأمر . . . وعلى أية حال هناك من يستطيعون اثبات ذلك خيراً منى — وهم أشخاص آخرون لا تتطرق الريبة الى أقوالهم . . . وسأقول لك كيف تعثرين عليهم : اعطنى ورقة وقلم . . . وكتبت هذه الكلمات « المسرحية الملكية — بريكسفىل » ثم أعطيتها الورقة قائلاً لها : خذى هذه الورقة وحذار من فقدها . . . وعند ما تبدى المحكمة رغبتها فى معرفة بعض المعلومات عن هذين الرجلين ، دعيها ترسل الى « بريكسفىل » من يقول انكم قبضتم على الرجلين اللذين قاما بتمثيل المسرحية الملكية ، وأن المحكمة تطلب حضور بعض الشهود ، وعندئذ ستهرع المدينة كلها الى هنا فى لمح البصر . . .

وأيقنت أننا انتهينا من جميع التفصيلات . . . فقلت :

— دعى المزاد يعقد . . . ودعى المحتالين يفعلا ما يريدان فان أحدا لن يدفع ثمن ما يشتريه فى المزاد قبل اليوم التالى لانتهاى المزاد ، لأن الناس لا يستطيعون تدبير المال فى وقت قصير ، كما أن الدعيين لن يرحلا من هنا قبل الحصول على المال . . . ثم ان الخطة التى رسمناها ستقضى على احتمال حصولهما على المال ، كما

حدث فيما يتعلق بصفقة بيع الزوج ، فان هذه الصفقة لم تكن صفقة رابحة على الاطلاق . . . وسيعود الزوج الى هنا قبل انقضاء وقت طويل . . . ان المحتالين لم يحصلوا بعد على ثمن الزوج ، ولهذا فانهما فى أخرج مأزق يا آنسه ماري .
ف قالت . . . سأتناول طعام الافطار الآن ، تم اذهب الى منزل مستر لوثرروب .

— ليس هذا اجراء سليما يا آنسة « ماري جان » . . . يجب ان تبادرى بالرحيل قبل الافطار .
— لماذا ؟

— ماذا تظنين السبب الذى أطالبك بالرحيل من أجله ؟
— الواقع اننى لم أفكر فى ذلك . ومع ذلك فأنا لا أعلم السبب . . . فما هو ؟

— لأنك لا تجيدين اخفاء مشاعرك . . . ان وجهك أشبه بكتاب مفتوح يستطيع أى انسان أن يقرأه بسهولة ويستشف منه ما يعتمل فى أعماقك . هل تعتقدين انك تستطيعين مواجهة عميك عند ما يجيئان لتقبيلك قبلة الصباح دون أن

— كفى . . . كفى . . . سأذهب قبل الافطار . . . بل انه ليسرنى أن أرحل الآن . . . ولكن هل أترك أختى معهما ؟

— نعم ، لا تقلقى فاننى أخشى أن يرتاب المحتالان فى الأمر اذا رحلتن جميعا . اننى لا أريد أن تقابليهما ، ولا أن تقابلهما أختاك ولا أى شخص فى المدينة . . . واذا سألك جار كيف حال عميك هذا الصباح فيجب أن يظل وجهك جامدا لا ينبىء بشىء . . .
بادرى بالرحيل يا آنسه « ماري جان » . وسأدبر الأمر بالنسبة للجميع . سأطلب من الآنسة « سوزان » أن تبلغ تحيتك لعميك وأن تقول لهما انك اضطررت للتغيب ساعات قليلة لتحصلى على

بعض الراحة ، أو لرؤية احدى صديقاتك ، وانك ستعودين الليلة
أو في صباح الغد الباكر .

— ان القول بأننى ذهبت لزيارة احدى الصديقات لاغبار عليه ،
ولكنى لا أوافق على أن تبلغ أختى تحيتى لهذين الوغدين !
— اذن ... لن يحدث ذلك .

ثم قلت لها : هناك شئ واحد ... حقيبة النقود .
— لقد استوليا عليها ، وانى لأشعر بالغباء كلما تذكرت ذلك .
— لا ... ليست الحقيبة فى حوزتهما .
— وكيف ذلك ؟ انها معهما .

— الحقيقة يا آنسه « مارى » هى ان الحقيبة كانت فى حوزتى
لأنى سرقتها منهما ... سرقتها لأعطيها لك ... وأنا أعلم أين
خبأتها ... ولكنى أخشى أن تكون قد اختفت مرة أخرى من
المكان الذى وضعتها فيه ... اننى جد آسف يا آنسه مارى جان
... آسف كل الأسف ... ولكنى أؤكد لك اننى بذلت قصارى
جهدى ... لقد كدت أضبط بها ، فاضطرت الى وضعها فى أول
مكان صادفنى ، والمبادرة بالهرب ... ولم يكن المكان الذى خبأتها
فيه ملائماً .

— أوه ... كف عن لوم نفسك ، فاننى لن أسمح لك بذلك ..
انك لم تكن لتستطيع تجنب ما فعلت ، ولم يكن الخطأ خطأك ...
أين أخفيتها ؟

لم أكن أرغب فى تذكيرها بمتابعتها مرة أخرى ... لم أكن أرغب
فى القول بأننى وضعت الحقيبة فوق بطن « بيتر » الميت ، حتى
لا تتذكر مصابها الأليم ... فقلت لها :

— أفضل ألا أقول لك أين أخفيتها يا آنسه « مارى جان » اذا
لم يكن لديك ثمة مانع ... ولكنى سأكتب لك كل شئ فوق رقعة

من الورق تستطيعين أن تقرأيهما وأنت في طريقك الى منزل مستر
لوثرروب ان شئت ... فهل توافقين على ذلك ؟

— نعم ...

فكتبت على ورقة أقول « لقد وضعت الحقيبة في الثابوت ،
وكانت به عند ما كنت تبكين هناك في تلك الليلة ... أما أنا فكنت
واقفا خلف الباب ... ولكم شعرت بالأسف من أجلك يا آنسة
ماري جان » ..

واغرورقت عيناى بالدموع حينما تذكرتها وهى تبكى وحيدة
في جوف الليل ، بينما هذان الشيطانان يغرران بها ويسرقانها
تحت سقف منزلها . وعندما طويت الورقة وأعطيتهما لها ، لاحظت
أن عينيها قد اغرورقتا بالدموع أيضا ... وصافحتنى الفتاة
بقوة ، ثم قالت :

— الوداع ... سأفعل كل ما طلبته منى بدقة . فاذا لم أرك
بعد الآن ، فأننى لن أنساك ، وسأفكر فيك دائما ... وأصلى من
أجلك أيضا .

ثم انصرفت

وبدأت أستعيد ما قالته ... لقد قالت انها ستصلى من
أجلى ! وشعرت بالسعادة ... وأيقنت انها ستصلى من أجلى .
فهى فتاة طيبة . ولست أتملقها بهذا القول ... فأننى لم أرها
منذ خرجت من ذلك الباب ، ولكنى فكرت فيها أكثر من مليون
مرة ، وفكرت في قولها انها ستصلى من أجلى ... وإذا جال
بخاطرى يوما أن من الخير أن أصلى من أجلها فلن أتردد في الصلاة .
ولا شك في أن « ماري جان » سلكت الطريق الخلفى عند انصرافها ،
لأن أحدا لم يرها وهى تنصرف . وعندما التقيت بسوزان وأختها
الأخرى قلت لهما :

— ما اسم الأسرة التى تقيم على الجانب الآخر من النهر وتذهبن جميعا أحيانا لزيارتها ؟

فقالتا : هناك أسر عديدة ، أهمها أسرة بروكتور .

— آه ، هذا هو الاسم ... لقد كدت أنساه ... لقد طلبت منى الآنسة « مارى جان » أن أخبركما انها ذهبت الى هناك لأمر جد عاجل ... فان هناك مريضا !

— ومن هو ؟

— لست أعلم .. لقد نسيت الاسم .. ولكنى أظن ..

— يا الهى ، أرجو ألا تكون « هانار » .

— يؤسفنى أن أقول لكما ان « هانار » هى المريضة .

— رباه .. لقد كانت أتم ما تكون صحة فى الأسبوع الماضى ، وهل مرضها خطير ؟

— لقد قالت الآنسة «مارى جان» ان الأسرة ظلت ساهرة مع المريضة طوال الليل ، وهم يعتقدون انها لن تعيش ساعات كثيرة .
— ترى ماذا دهاها ، بماذا هى مريضة ؟

— ولم أستطع أن أفكر فى اجابة معقولة على هذا السؤال ، فقلت :
— التهاب الغدة النكفية !!

— هذا سخف ، ان الناس لا يسهرون مع المرضى بالغدة النكفية .

— أحقا ؟ يمكننى أن أؤكد لك انهم يسهرون مع أمثال هؤلاء المرضى .. فمرضها من نوع مختلف عن المألوف . وقد قالت الآنسة « مارى جان » انه نوع جديد من المرض !

— وما هو هذا النوع الجديد ؟

— انه نوع من المرض يصحب حالات أخرى .

— حالات أخرى ؟

— نعم .. الحصبة ، والسعال الديكى ، والتهاب الاذن ، والسل ، والحمى المخية ، وأمراض أخرى لا أعرفها .

وهنا قالت الفتاة الصغرى ذات الشفة المغطاة بالسعر : انه
لأمر مخيف فيما أظن .. سأذهب الى العم « هارفى » و ...
فقلت لها : لست أنصح لك بأن تخبرى العم « هارفى » بهذا
الأمر ...

فقلت : لماذا ؟

فأجبت قائلاً : تأملى الموقف لحظة واحدة لعلمه ينجلى أمام
عينيك .. ان عميكما مضطران للعودة الى انجلترا بأسرع
ما يستطيعان .. وهما ليسا من الضعة بحيث يسافران وينركانكن
وحدكن .. ولما كان « العم هارفى » قسيسا ، فانه لن يحاول
أن يخدع كاتب احدى البواخر بأن يجعله يقبل نقل الأنسة
« مارى جان » على الباخرة الآن .. فالآنسة « مارى جان » قد
تكون مصابة بمرض « الغدة النكفية » هى الأخرى نتيجة لمخالطتها
للشابة المريضة التى نزورها .. ولهذا ، فانه من المحتمل أن
يضطّر « العم هارفى » وشقيقه الى البقاء هنا ثلاثة شهور ريثما
يتأكد من أن الآنسة « مارى جان » ليست مريضة ! .. وبذلك
سوف يتأخر سفركن الى بريطانيا ثلاثة شهور .. هذا هو
الموضوع .. فهل انت مصممة على مصارحة « العم هارفى » بالأمر ؟

فقلت الفتاة : وهل نبقى جميعا هنا لنستوثق مما اذا كانت
مارى جان مريضة بالتهاب الغدة النكفية أم لا ، بينما كان فى
استطاعتنا أن نستمتع بوقت لطيف فى انجلترا ؟
فقلت : هذا ما سيحدث اذا صممت على مصارحة « العم
هارفى » بالأمر ..

فقلت الفتاة : اذن لن نقول شيئا للعم هارفى !!
نم استدركت قائلة : ولكنى أظن انه يجدر بنا أن نقول لعننا
هارفى انها ذهبت لأمر من الأمور وانها ستتأخر بعض الوقت ،
فان ذلك كفيل باراحة باله .

فقلت : نعم ، ان الانسة « مارى جان » تريد منكما أن تفعلوا ذلك . . . قالت لى « قل لهما أن يقدمتا تحيتى للعم هارفى ووليام مع قبلة لكل منهما ، وأن تخبراهما اننى عبرت النهر لمقابلة مستر . . . مستر . . . ما هو اسم الأسرة الثرية التى كان عمكما « بيتر » يحبها كثيرا ؟ أعنى الأسرة التى . . .

— اوه ، لا ريب انك تعنى أسرة « لوثرروب » ؟

— بالطبع . . . يا لها من أسماء مريكة . . . نعم . . . قولنا ان « مارى جان » ذهبت الى هذه الأسرة لتطلب اليها أن تأتى لحضور المزاد وشراء المنزل ، لأنها تعتقد أن عمها « بيتر » يفضل أن تشتريه هذه الأسرة على أن يشتريه أى شخص آخر . . . واذا لم تكن متعبة فستعود الليلة ، والا فانها ستعود فى صباح الغد . وطلبت منى أن أطلب اليكما ألا تقولوا شيئا عن أسرة بروكتور . . . لا تذكرنا الا اسم أسرة « لوثرروب » . . . فهذا هو الاسم الصحيح !

فقالت الفتاتان : سوف نفعل ذلك . . .

ثم انصرفتا للبحث عن عميهما وابلاغهما تحيات أختهما وقبلاتهما ورسالتها .

كان كل شىء على ما يرام ! فالفتاتان لن تقولوا شيئا لانهما ترغبان فى الذهاب الى انجلترا . . . ولا شك فى أن « الملك » و « الدوق » يفضلان أن تكون « مارى جان » بعيدة عن المنزل أثناء عقد المزاد حتى لا يؤثر عليها « الدكتور روبنسون » . . . وشعرت باننى أجدت تمثيل دورى . . . ولست أظن أن « توم سوبر » كان يجيد الدور خيرا منى مع أنه أقدر منى على ذلك ! وأقيم المزاد فى الساحة العامة قبل المساء بوقت قصير . . . فاستمر فترة طويلة . وكان « الملك » يسير بين « المزايدين »

وهو لا يفتأ يردد بعض آيات من الكتاب المقدس . . . أما «الدوق» فكان يردد « جو - جو - جو » استدرارا للعطف .
وبينما كان خبير المزاد يحاول بيع الأشياء القليلة الباقية ،
أقبل قارب بخارى رسا عند الشاطئ . وبعد دقيقتين أقبلت
جماعة من الناس كانوا يصيحون ويضحكون ، وظلوا يتقدمون
منا ، ثم صاحوا :
- هاكم مجموعة ثانية من ورثة « بيتر ويلكس » العجوز ! . . .
فلأى المجموعتين سوف تعطون النقود ؟ !

الفصل التاسع والعشرون

قراءة متنازع عليها - « الملك » يشرح
الموقف - رسالة بخط الميت - الوشم -
اخراج الجثة - « هاك » يهرب .

كانت الجماعة المقبلة تقود أمامها كهلا ، وشابا وسيم الطلعة
شد ذراعه الى صدره بضمادة ولفافة . وراح الناس يصخبون
ويضحكون رغم اننى لم أجد مبررا للضحك ، فأدركت أن موقف
« الملك » و « الدوق » قد ساء فجأة ، وأن لونهما لن يلبث أن
يصفر . . . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث . فقد ظل الدوق
طبيعيا في حركاته وكأته لم يكن مرتابا في حدوث شىء غير عادى ،
فقد ظل يردد كلمته المأثورة « جو - جو - جو » وهو بادى
السعادة والارتياح . . . أما « الملك » ، فقد راح يحدق ويحدق
فى القادمين الجديدين بعينين تعربان عن الأسف ، وكانت تبدو
عليه علامات من يستنكر امكان وجود مثل هذين الدعيين
القادمين ! ! وكان تمثيله رائعا كل الروعة ، فالتف حوله كثيرون
من كبار شخصيات المدينة ليثبتوا له انهم مستعدون لشد أزده .
أما الكهل الذى جاء فجأة ، فقد بدا عليه الاضطراب والحيرة ،
وسرعان ما بدأ يتكلم . . . وفى التو تبينت أن نطقه يشبه نطق

الانجليز ، وانه مختلف عن نطق « الملك » ، وليس فى استطاعتى أن أذكر نص كلمات الكهل ولا أن أقلده فى حديثه ... ثم تحول الى الجمع وقال ما معناه :

— انها مفاجأة لم أكن أتوقعها ... واننى لأعترف لكم بصراحة اننى لم أكن مستعدا لمواجهة مثل هذا الموقف الحرج ؛ وخاصة ان سوء الحظ لازمنا فى الطريق ... فأخى قد كسر ذراعه ، كما أن حقائبنا نقلت — خطأ — الى مكان آخر بالمدينة ليلة أمس ... وهذا هو أخوه « ويليام » الذى لا يسمع ولا يتكلم ... ها أنذا قد قلت لكم من نحن ؛ وبعد يوم أو اثنين سأسترد أمتعتنا ، وعندئذ أستطيع أن أبرهن لكم على صدق قولى ... أما الآن فلن أقول شيئا ... سنذهب الى الفندق وننتظر !
ثم انصرف الكهل والشاب الوسيم ... وعندئذ ضحك « الملك » وقال :

— كسر ذراعه؟! .. هذا محتمل .. أليس كذلك؟! .. انها حيلة مكشوفة! ...

وضحك « الملك » ثانية ، فضحك جميع الحاضرين الا ثلاثة أو أربعة أو ربما ستة .. وكان الدكتور « روبنسون » أحد الذين لم يضحكوا .. كذلك لم يضحك رجل بادى الصرامة كان يحمل حقيبة عتيقة مصنوعة من السجاد القديم ، كان قد وصل لتوه بالباخرة ... وكان يتحدث الى الدكتور « روبنسون » بصوت منخفض ، وهما يتطلعان الى « الملك » بين الحين والحين . كان هذا الرجل هو « ليفى بل » المحامى الذى كان قد ذهب الى « لويز فيل » . وكان هناك رجل آخر ضخيم الجسم خشن المنظر قدم بدوره بالباخرة وأصفى لكل ما قاله الكهل ... وكان يصفى للملك فى تلك اللحظة ... وعندما فرغ « الملك » من الكلام قال هذا العملاق :

— اصغ الى يا هذا . . اذا كنت « هارفى ويلكس » فمتى جئت الى هذه المدينة ؟

— فى اليوم السابق للجنازة يا صديقى .

— وفى أية ساعة من النهار جئت ؟

— فى المساء — قبل غروب الشمس بساعة أو اثنتين .

— وكيف جئت ؟

— جئت على الباخرة سوسان باول من « سنسناتى » .

— كيف اتفق اذن انك كنت فى « بنيت » فى الصباح . . .

وكنت تتركب قارباً ؟

— لم أكن فى « بنيت » فى الصباح .

— هذا كذب .

واندفع كثير من الحاضرين نحو الرجل العملاق وتوسلوا اليه

ألا يتحدث بهذه الطريقة الى « هارفى » الكاهن !

فصاح الرجل : فليذهب الكاهن الى الشيطان . . . انه محتمل

كاذب . . . لقد كان فى « بنيت » فى ذلك الصباح . . . أننى أقطن

هناك كما تعلمون . . . ولقد كنت عند الخليج وكان هو هناك

أيضاً . . . ولهذا رأيته . . . كان يستقل قارباً مع « تيم كولنيتير »

وغلام آخر .

وانبرى الدكتور « روبنسون » يقول : هل تستطيع أن تعرف

الغلام اذا رأيته ثانية يا هاينز ؟

— أعتقد ذلك ، ولو اننى لست واثقاً منه . . . آه ، ها هو

الغلام . . . اننى أعرفه !

وأشار الى . . . وقال الطبيب :

— أيها الجيران . . . لست أدري ان كان القادمان الجديدان

محتالين أيضاً أم لا . . . ولكن اذا لم يكن هذان الرجلان الموجودان

هنا دعيين محتالين ، فأننى أكون رجلاً غيبياً . . . هذا هو كل

شيء . . . واعتقد أن واجبنا يقتضي أن نسمح لهما بالفرار من هنا قبل أن نفرغ من دراسة الموقف دراسة شاملة . . . تعال يا « هاينز » . . . بل تعالوا جميعا . . . سنذهب بهذين الرجلين إلى الفندق ونواجههما بالرجلين الآخرين . . . وفي رأي أننا سوف نستطيع ، بهذه الطريقة ، الوقوف على الحقيقة !

واستحسن الجميع هذا الرأي باستثناء أصدقاء « الملك » . . . وهكذا سرنا جميعا إلى الفندق . . . وكان ذلك عند غروب الشمس تقريبا . . . ولقد أخذني الدكتور « روبنسون » معه وكان يمسك بيدي . . . وكان شديد التلطف معي ، ولكنه لم يترك يدي مطلقا . ودخلنا إلى ردهة كبيرة في الفندق . . . وأضئ عدد من الشموع ، وأرسل الدكتور « روبنسون » في طلب القادمين الجديدين . . . وافتتح الدكتور الحديث قائلا :

— اننى لا أريد أن أقسو على هذين الرجلين . ولكنى أظن أنهما محتالان ، وربما كان لهما شركاء لا نعرف شيئا عنهم . . . فإذا كان الأمر كذلك ، أفلا تظنون أن هؤلاء الشركاء سيبادرون بالفرار حاملين الحقيبة التى تحتوى على نقود « بيتر ويلكس » ؟ ليس هذا غير محتمل . وإذا لم يكن هذان الرجلان دعيين ، فإنهما لن يعترضا على احضار هذه النقود والسماح لنا باستبقائها حتى نبثنا لهما بعيدان عن كل شك . . . ألا توافقون على ذلك ؟

ووافق الجميع على ذلك . وعندئذ أدركت أن العصابة أصبحت فى مركز خطر ، ولكن « الملك » أبدى الأسف وقال :

— أيها السادة . . . وددت لو كانت النقود موجودة ، فأنا لا أحب عرقلة بحث عاجل فى هذا الموقف المؤسف . ولكن النقود غير موجودة للأسف . . . ويمكنكم أن ترسلوا واحدا منكم إلى المنزل ليستوثق من ذلك !
— أذن أين النقود ؟

— عند ما أعطتها لى ابنة أخى للمحافظة عليها أخفيها داخل الحشية المصنوعة من القش الموضوعة فوق فراشى . . . ذلك اننى لم أشأ أن أودعها المصرف مدة الأيام القليلة التى سنقضها هنا ، ولأننى كنت أعتقد أن هذا المخبأ آمن . . . فنحن كنا نعتقد أن الخدم هنا أمناء كالخدم فى انجلترا . . . لقد سرق الزوج النقود فى صباح اليوم التالى بعد أن غادرت غرفتى . . . وعند ما بعثهم لتجار الرقيق لم أكن قد اكتشفت ضياع النقود . وهكذا استطاعوا الافلات بها . . . وفى استطاعة خادمى الموجود هنا أن يحدثكم بكل شئ أيها السادة .

وأعرب الدكتور « روبنسون » وكثيرون غيره عن ريبتهم ، وبدأ لى أن أحدا من الحاضرين لم يصدق « الملك » . . .

وسألنى أحد الرجال ان كنت قد رأيت الزوج وهم يسرقون الحقيبة ، فقلت ان كل ما أعرفه هو أننى رأيتهم يخرجون خلسة من الغرفة ويهرولون مبتعدين ، ولم يخطر ببالى شئ مريب ، فقد ظننت انهم كانوا يخشون ايقاظ سيدي . . . وكان هذا هو كل ما سألونى عنه . وعندئذ سألنى الدكتور « روبنسون » :

— هل أنت انجليزى أيضا ؟

فأجبت « نعم » . وعندئذ ضحك هو وآخرون وقال : حديث خرافة !

وبدأوا تحقيقا عاما . ومضت ساعات طويلة . . . فقد كان الدكتور « روبنسون » يطلب من الفريقين أن يسردا قصتهما . وكان من الواضح أن أى شخص غير متحامل لا ريب يدرك أن الكهل الذى وفد على المدينة فى ذلك اليوم لم يذكر الا الصدق ، وان قصة « الملك » كانت أكذوبة مفضوحة . ثم طلبوا منى أن أدلى بما أعرفه . ورأيت « الملك » يغمز لى بعينه اليسرى خلسة فأدركت نوع الحديث الذى ينبغى لى أن أدلى به . وبدأت أحدث

الحاضرين عن « شيفلد » وكيف كنا نعيش هناك ، وأفضيت اليهم بكل شيء عن ويلكس الانجليزى وهلم جرا - ولكنى لم أسترسل فى حديثى لأن الدكتور « روبنسون » انفجر ضاحكا بينما قال المحامى « ليفى بيل » :

- اجلس يا بنى . . . لو كنت مكانك لما أجهدت نفسى هكذا . . .
أعتقد انك لم تتعود الكذب لأنك لا تجيده . . . انك مازلت بحاجة الى المران عليه ، لأن كذبك مفضوح .

ولم أعبأ بهذا المديح بقدر ما سرنى أنهم تخلوا عن اسسجوابى .
وبدأ الدكتور يقول شيئا ، ثم التفت الى المحامى وقال :
- اسمع يا « ليفى بيل » . . .

فقاطعه « الملك » قائلا وهو يبسط يده :

- آه ، هذا هو الصديق الحميم للمرحوم أخى ! لطالما كتب لى عنه . . . عن « ليفى بيل » !

وتصافح المحامى و « الملك » . . . وابتسم المحامى وبدأ عليه السرور . وأخذ الرجلان بتبادلان الحديث فترة طويلة ، ثم انفردا فى أحد الأركان وراحا يتحدثان بصوت خفيض . . . وأخيرا رفع المحامى صوته وقال :

- اكتب طلبا بخط يدك . . . ودع أخاك يكتب سطرًا أو اثنين أيضا !

وأحضروا ورقًا وقلمًا ، وجلس « الملك » ثم مال برأسه جانبا وأخذ يلوك لسانه فى فمه . . . ثم كتب شيئا . . . ثم أعطى القلم للدوق . . . ولأول مرة بدأ الضيق يظهر على وجه « الدوق » . . . ولكنه التقط القلم وكتب . . . وعندئذ التفت المحامى الى الكهل الذى قدم أخيرا وقال :

- أرجو أن تكتب وأخيك سطرًا أو اثنين وتوقعانهما أيضا !

فكتب الكهل ما طلب منه ، ولكن أحدا لم يستطع أن يقرأ ما كتبه الرجل ! ... وعندئذ بدت الدهشة على وجه المحامى فقال :
- يا لله ... ما هذا ؟ لست أستطيع قراءة شيء مما كتبت !
وأخرج المحامى عددا من الرسائل القديمة من جيبه وتأملها مليا ،
ثم تأمل كتابة الكهل ، وعاد وتأمل الرسائل ثم قال :
- ان هذه الرسائل القديمة من « هارفى ويلكس » ... وها هو
خط الاثنين اللذين يقولان انهما هارفى ويلكس ! وعندئذ أدرك
« الملك » و « الدوق » ان المحامى استطاع أن يوقعهما فى فخ !
واستطرد المحامى يقول : ان أى انسان سستطيع أن يجزم
بسهولة ان خط الكهل الوافد الجديد أبعد ما يكون عن الخط الذى
كتبت به الرسائل التى أحملها ... فالحقيقة ان ماكتبه هذا الكهل
ليس « كتابة » !
وهنا قاطعه الكهل قائلا : دعنى أفسر لك الحقيقة ... ان أحدا
لا يستطيع أن يقرأ خطى سوى أخى الموجود هنا - فهذه الرسائل
كان ينقلها أخى بخطه !
فقال المحامى : حسنا ... ان معى بعض رسائل « وليام »
أيضا ، فاذا أمكنك أن تجعل أخاك يكتب سطرًا أو اثنين ،
فسنتمكن من ...
فقال الكهل : انه لا يستطيع أن يكتب بيده اليسرى . ولو كان
فى استطاعته أن يكتب بيده اليسرى لتبين لك انه يكتب رسائله
ورسائلى أيضا ... أرجو أن تتأمل الاثنين ، وسيتضح لك انهما
مكتوبان بخط واحد .
ففعل المحامى ذلك وقال : أعتقد ذلك . . واذا لم يكونا مكتوبين
بخط واحد ، فان هناك تشابها عجيبا فى الخط لم أتبينه من قبل !!
لقد كنت أظن اننا سائرون فى الطريق الصحيح ، ولكن يبدو اننى
مخطيء ! . . وعلى أية حال ، فقد اتضح لنا الآن أن هذين السيدين

ليساً من أسرة « ويلكس » . . . قال ذلك وهو يتسرع الى « الملك »
و « الدوق » !

ثم قال المحامي : ولقد فكرت في شيء آخر . . . هل يوجد هنا
من ساهم في اعداد جثة المرحوم « بيتر ويلكس » للدفن ؟
فقال أحد الأشخاص : نعم . . . أنا و « آبتيرنر » فعلنا ذلك
. . . وكلانا هنا .

وعندئذ تحول الكهل - الوافد الجديد - الى « الملك » وقال
له : هل تستطيع أن تصف لنا الوشم الذي كان مرسوماً على صدر
المرحوم !!

وكان على « الملك » أن يتمالك رباطة جأشه بسرعة عظيمة والا
ضاع ، فقد أخذه هذا القول على غرة . . . والحق أن المأزق كان
شديد الحرج ، إذ من أين له أن يعرف الوشم الذي كان مرسوماً
على صدر الميت ! واصفر لونه قليلاً ، وساد سكون شامل ، تماماً ،
بينما أخذ الحاضرون جميعاً يحدقون في وجهه . . . وعندئذ قلت
لنفسى ان « الملك » قد سقط في الفخ ولم يعد له مفر من
الاستسلام . . . فهل تراه فعل ؟ ان أحداً لا يمكن أن يصدق
ما فعله . . . لم يتخاذل أو يستسلم ! لقد ظل الملك ملازماً مكانه ،
ولم يلبث أن ابتسم وقال :

- انه سؤال عويص . . . أليس كذلك ؟ نعم يا سيدي ، في
استطاعتي أن أقول لك ما هو الوشم الذي كان مرسوماً على
صدره . . . كان سهماً صغيراً رقيقاً أزرق اللون . . . وما لم تنظر
اليه عن قرب ، فلن تستطيع رؤيته . . . والا مارأيك في ذلك ؟ . .
قال ذلك بصفاقة أدهشتني !

وهنا تحول الكهل (الوافد الجديد) الى « آبتيرنر » وزميله ،
وقد تألقت عيناه بالفوز ؛ فقد ظن انه استطاع أن يوقع بالملك هذه

المرّة ، وقال : هل سمعتم ما قاله ؟ هل كانت هناك أية علامة كهذه
مرسومة على صدر « بيتر ويلكس » ؟
وتكلم الرجلان معا . . . قالوا : لا . . . لم نر مثل هذه العلامة .
فقال الكهل : أما أنا فأقول لكما ان الوشم كان يتكون من حرفين
هما : « ب . ب » (وهما أول حرفين من الاسم الذى اتخذه بيتر
فى شبابه) كذا حرف « و » وبينهما فواصل هكذا : « ب - ب - و »
وكتب الرجل الحروف بهذا الترتيب على رقعة من الورق وهو
يقول : ألم تكن هذه هى الحروف التى رأيتموها ؟
فقال الرجلان : لم نر مثل هذه الحروف . . . بل لم نر شيئا
على الاطلاق . . . لم نر أى وشم !!
وهكذا تكهرب الجو . وسرعان ما انطلق الحاضرون يصيحون :
- انهم جميعا ادعياء . . . دعونا نفرقهم فى النهر . . . دعونا
نجعل القطار يمر فوقهم ويقتلهم . . .
ولكن المحامى أسرع يشب فوق المنضدة وصاح بأعلى صوته :
- أيها السادة . . . أيها السادة . . . اسمحوا لى أن أقول
كلمة . . . كلمة واحدة فقط . . . أرجوكم . . . ما زالت هناك
طريقة أخرى . . . دعونا نذهب ونخرج الجثة لنفحصها .
ووافق الجميع بلا ابطاء . . . واشتد صخبهم ، وتهيأوا للذهاب
الى المقابر على الفور ؛ ولكن المحامى والطبيب قالوا :
- مهلا ، مهلا . . . اقبضوا على هؤلاء الرجال الأربعة والفلان
واحضروهم معنا ؛ فصاحوا جميعا : سنفعل ذلك ، وإذا لم نجد
الوشم فسنشنق العصاة كلها !!
وتملكنى الفزع ففكرت فى الفرار . . . ولكن كيف ؟! . . . وقبضوا
علينا ، ثم قادونا أمامهم الى المقابر التى كانت على مبعدة ميل
ونصف ميل الى الجنوب . . . وخرجت المدينة كلها فى هذا الموكب
الرهيب .

وبينما كنا نمر بالمنزل ، تمليت لو اننى لم أرسل « مارى جان » خارج المدينة ، فلو اننى استطعت أن اتصل بها لعمدت الى نجدتى فى هذه اللحظة الحرجة وقضت على هؤلاء الأذعياء المحتالين ! ومضينا نتقدم على طريق النهر كالقطط البرية . وزادنى فزعا أن السماء تلبدت بالسحب . . وبدأ البرق يلمع ، وراحت الرياح تئن بين أوراق الأشجار . . وكان هذا الموقف هو أكثر المواقف التى تعرضت لها خطورة ، ولهذا كنت فى شبه ذهول ، فقد كانت الأمور تجرى على غير ما كنت أتوقع . فبدلاً من أن أكون منفرجاً يضحك ملء شذقيه حيث تقف « مارى جان » ورائى لتشدد أزرى وتنقذنى ، تعقد الموقف من حولى ، وأصبحت فى مازق خطر ، واقترب منى الموت الذى لن يبعده عنى سوى ذلك الوشم الأزرق على صدر الميت ! فرحت أتمنى أن يجد الناس وشما كهذا على صدر الميت ! !

ولم استطع احتمال وقر التفكير فى نتائج هذا الموقف الرهيب ، ولكننى لم أكن أستطيع أن أفكر فى أى شىء آخر . . وظلت الدنيا تغلظ أمامى ، وخيل الى اننى أستطيع أن أتسلل خلسة من بين الجماهير ؛ ولكن ذلك العملاق « هاينز » كان يقبض على يدي ؛ وكان انتزاع يدي من يده أشبه بالتخلص من قبضة مارد جبار . . فقد كان يجذبني وهو يسير سريعاً ، حتى لقد كنت مضطراً الى الركض حتى ألحق به !

وعندما بلغ الموكب المقابر ، بدأ الناس يتدفقون كالفيضان ، ولما بلغوا المقبرة ، بدأوا يحفرون بلا إبطاء مستعنيين بالضوء الذى كان يلمع مع البرق ، وأرسلوا رجلاً الى أقرب منزل ، وكان يبعد حوالى نصف ميل ، ليستعير مصباحاً . ومضوا يحفرون بهمة وعزم ، وازداد الظلام حلكة ، بينما بدأ المطر يهطل . واشتد عصف الرياح ، كما ازداد لمعان البرق ، وأعقبه قصف

الرعد بعنف . ولكن هؤلاء القوم لم يعيروا هذا كله اهتماما أو التفاتا . . لقد كانوا مستغرقين فى العمل . وفى بعض هذه اللحظات كنت أرى كل شىء ، وكل وجه فى هذا الجمع الخاشد كما ترى المجارف خارج القبر ، ثم لا تلبث الدنيا أن تظلم فى اللحظة التالية فلا أستطيع أن أرى شيئا .

وأخيرا أخرجوا التابوت ، وبدأوا يفتحون غطاءه . . وعندئذ أخذ الجميع يتدافعون بالمناكب حتى يلقوا نظرة على صدرالميت . . كان المنظر مخيفا فى هذا الظلام الدامس ، فقد شدد « هاينز » الضغط على معصمى فألمنى أشد الألم ، وهو يتدافع بالمناكب . . وأكبر الظن انه نسى وجودى ، لأنه كان يلهث بشدة وانفعال . . وفجأة لمع البرق بشدة فصاح أحدهم :

— يا للسماء : ها هى حقيبة الذهب موضوعة فوق صدره !!!
وأطلق « هاينز » صيحة ثاقبة ، وترك معصمى ، ثم اندفع الى الأمام ليلقى نظرة على التابوت . . وعلى الفور تسلفت من بين الجماعة وانطلقت أعدو فى الطريق المعتم بسكل لا يمكن أن يتصوره أو يصفه أحد .

كان الطريق خاليا ، فأطلقت ساقى للريح بكل ما استطعت من قوة . . وكان البرق يلمع بين حين وآخر ، والمطر يهطل ، والريح تقصف ، فلم يفزعنى ذلك بقدر ما بث الطمأنينة فى نفسى . . فحسبى أن الطريق كان خاليا من السابلة !

وعندما وصلت الى المدينة ، لم أجد أحدا فى الشوارع ؛ فقد كانوا جميعا فى منازلهم . . ولهذا لم ألبأ الى الطرقات الخلفية ، وإنما مضيت فى الشارع الرئيسى . وعندما بدأت أتجه صوب المنزل ، تطلعت اليه ، فألفيته معتما . . فشعرت بالأسف وخيبة الأمل . . وأخيرا ، وبينما كنت أمر بالمنزل ، رأيت ضوءا ينبعث من نافذة غرفة « مارى جان » ، فقفز قلبى بين ضلوعى حتى كاد

ينفجر . وفي اللحظة التالية ، كنت قد تجاوزت المنزل ؛ ومضيت في طريقى لا ألوى على شيء .

وحيثما تجاوزت المدينة ، وأدركت اننى أستطيع الذهاب الى حيث تركنا العائمة ، رأيت قارباً صغيراً مربوطاً بحبل فجذبته نحو الماء . ولم أضع لحظة واحدة . وعندما وصلت الى العائمة كان التعب قد نال منى كل منال ، فارتميت فوق سطحها ورحت الهت بشدة ، ثم صحت :

— اسرع يا « جيم » .. فك العائمة .. يا الهى اننا في مركز جد خطير .

وأوقد « جيم » المصباح ، وأقبل نحوى وقد فتح ذراعيه ، واستخفه الطرب ، ولكنى ما كدت ألمح وجهه حتى كاد قلبى بكف عن الحركة ، وتراجعت الى الوراء حتى سقطت فى الماء .. لقد نسيت انه كان يرتدى ملابس الملوك .. ملابس « الملك لير » !! وبادر « جيم » باخراجى من الماء ، وهو يضمنى الى صدره اعراباً عن فرط سروره بعودتى وبالتخلص من « الملك » و « الدوق » ، ولكنى قلت له :

— هيا يا « جيم » .. اطلق العائمة !!
وأخذت العائمة تنساب فوق صفحة الماء . وشعرنا بسمادة غامرة لتحررنا ثانية وانفرادنا بأنفسنا فوق صفحة النهر الكبير بغير أن يضايقنا أحد .. ولكنى سرعان ما سمعت صوتاً أعرفه جيداً ، فحبست أنفاسى ، وأصخت السمع ، وانتظرت . وعندما مضى البرق ثانية فوق صفحة الماء عرفت كل شيء .. كان « الملك » و « الدوق » يستقلان زورقاً وهما يجدفان بقوة في طريقهما إلينا ...

ولم أملك نفسى من التهاك فوق سطح العائمة ، وقد تملكنى اليأس . ثم لم ألبث أن انفجرت باكياً !!

الفصل الثلاثون

الملك يشور - معركة
ملكية - تراخ شديد .

عندما صعد « الدوق » و « الملك » الى العائمة ، انقض الملك على ، وهزنى من ياقتى ، وقال :

— أتحاول أن تهجرنا أيها الجرو ، هل سئمت رفقتنا .. تكلم ؟
فقلت : لا يا صاحب الجلالة .. أرجوك يا صاحب الجلالة .

— اذن أسرع وقل لنا لماذا هربت ؟ .. قل لنا والا فتكت بك !!
— سأقول لك كل شيء بصدق يا صاحب الجلالة .. لقد كان الرجل الذى أمسك بى لطيفا جدا معى .. كان لا يفتأ يقول لى انه فقد ابنا مثلى فى العام الماضى ، ولهذا فانه آسف لأن يرى غلاما مثلى فى مثل هذا الموقف الخطير . وعندما تولت الدهشة الجميع بسبب العثور على الذهب ، واندفعوا الى التابوت ترك يدى وهمس قائلا « بادر بالفرار والا شنقوك » ، فانطلقت كالسهم .. فلم يكن من الخير لى أن أبقي .. لم يكن فى استطاعتى أن أفعل شيئا .. كما اننى لم أكن أريد أن أشنق . ولهذا لم أكف عن العدو الى أن عثرت على الثقارب ، وعند ما صعدت فوق سطح العائمة طالبت «جيم» بالاسراع والا قبضوا علينا وشنقونى ،

وقلت له انك والدوق قد هلكتما .. والحق اننى كنت شديد الحزن من أجلكما .. وكذلك كان «جيم» .. ولهذا سررت اشد السرور عند ما رأيتهما مقبلين .. ويمكنك ان تسال « جيم » عن ذلك .

وأمن جيم على قولى ، وعندئذ نهره « الملك » مطالباً اياه بالسكوت نم قال : آه ، هذا محتمل جداً !

وهزنى مرة أخرى وقال انه يفكر فى اغراقى ، ولكن الدوق قال : — دع الغلام وشأنه أيها الغبى الكبير .. هل كنت تفعل غير ما فعل ؟ هل بحتت عنه عند ما استطعت الفرار ؟ اننى لا اذكر انك فعلت ذلك .

وأطلق « الملك » سراخى ، وبدأ يلعن المدينة وكل من فيها . ولكن « الدوق » قال له :

— يحسن بك أن تلعن نفسك لأنك تستحق هذه اللعنات .. انك لم تفعل شيئاً معقولاً منذ البداية غير طلوعك علينا بأسطورة الوشم الخيالية !! . ولكنها كانت فكرة رائعة حقاً ، والبيها يرجع الفضل فى نجاةنا ، اذ لولاها لزوجوا بنا فى السجن ريثما يحضرون أمتعة الرجلين الانجليزيين . وعندئذ كان من المحقق أن يحكم علينا بالسجن مع الأشغال الشاقة ، ولكن هذه الحيلة جعلتهم يذهبون الى المقابر . وليس من شك فى ان العشور على حقيبة الذهب فى التابوت قد أفادنا كثيراً ، فلولا ما استولى على هؤلاء الحمقى من هياج ، ولولا تدافعهم لالقاء نظرة على الحقيبة ، لكان من المحقق أن نقضى الليلة ورباطات العنق ملفوفة حول عنقينا !! وصمت الرجلان لحظة وهما يفكران ، ثم قال «الملك» بسرود :

— كنا نظن أن الزوج هم الذين سرقوا الحقيبة !
وأجفلت ...

فقال « الدوق » بلهجة بطيئة تدل على التفكير والسخرية :
هذا ما ظنناه !!

وبعد حوالى نصف دقيقة قال « الملك » : على الأقل هذا
ما ظننته أنا !

فقال « الدوق » بنفس الطريقة : بالعكس ، هذا ما ظننته أنا !
فقال « الملك » بلهجة غاضبة : اصنع الى يا هذا . . ما الذى
تعنيه ؟

فأجاب « الدوق » بلهجة حازمة : ما دام الأمر كذلك ، فدعنى
أسألك بدورى ، ماذا تعنى ؟

فقال الملك بسخرية لازعة :
— لا تظن اننى لا أعرف ، من الذى أخفى النقود فى ذلك
التابوت ؟ . . أنت الذى أخفيتها !

فانقض « الدوق » عليه قائلا : هذا كذب .
فصاح « الملك » : ارفع يدك عنى ، أترك عنقى ، اننى أسحب
كل ما قلت .

فقال « الدوق » : حسنا ، اعترف أولا بأنك أنت الذى أخفيت
النقود لكى تحصل عليها وحدك فيما بعد !

— مهلا ، لحظة يا « دوق » ، أجبنى على السؤال التالى بأمانة
وعدالة : اذا لم تكن أنت الذى وضعت النقود هناك ، فقل ذلك ،
وأنا مستعد أن أصدقك ، وأسحب كل ما قلته .

— اننى لم أفعل ذلك أيها الوغد ، وأنت تعلم ذلك . . .
— انى أصدقك ، لكن أجب عن هذا السؤال أيضا بدون ثورة . .
الم تكن تفكر فى الاستيلاء على النقود واخفائها ؟

فلم يجب الدوق على الفور ثم قال :
— وهل فى هذا ما يستحق المؤاخذه ؟ وعلى أية حال ، فان

شيئا من ذلك لم يخطر ببالي . . أما أنت فلم تفكر في ذلك فحسب ،
وانما نفذته أيضا .

– أصدقك القول اننى لم أفعل ذلك يا دوق ، ولست أزعج
اننى لم أفكر في سرقة الحقيبة . . فقد فكرت في ذلك فعلا ،
ولكنك ، أعنى شخصا آخر ، سبقنى الى ذلك .

– هذا كذب ، لقد سرقت أنت الحقيبة فعليك أن تعترف
بذلك والا . . .

وقبض « الدوق » على عنق « الملك » ، فصاح الملك : كفى
انى أعترف .

وسرني أن أسمعه يقول ذلك ؛ فقد شعرت براحة لم أشعر
بها من قبل . . وعلى الفور رفع الدوق يديه عن عنق الملك وقال :
– اذا أنكرت ذلك مرة أخرى فساغرقك . . من الخير لك أن
تجلس هناك وتبكي كالطفل . . فان ذلك أنسب شيء لك . . انك
طماع تريد أن تلتهم كل شيء . ومع ذلك ، كنت أتق بك دائما
. . . الحق انه كان يجدر بك أن تخجل من نفسك وأنت تسمع
الاتهام يوجه الى الزنوج المساكين دون أن تحرك ساكنا . . اننى
أشعر بالخجل من نفسى كلما تذكرت اننى كنت من السذاجة
بحيث صدقت كل هذا السخف . . عليك اللعنة . . لقد تبينت
الآن لماذا كنت تتلف على التلكو . . لقد كنت تريد الاستيلاء على
كل شيء !!

فقال « الملك » بخوف ، وبصوت مختنق : ولكنك كنت تريد
ذلك يا دوق !

فقال « الدوق » : اصمت ، فاننى لا أريد أن أسمع شيئا . .
والآن ، ها أنت ترى ما آل اليه الموقف . . لقد استردوا جميع
نقودهم ، كما استولوا أيضا على كل ما كان معنا اللهم الا بنسات

قليلة ... هيا ، اذهب للنوم واحذر أن تعترض طريقى مرة
أخرى ما دمت حيا .

فتسلل « الملك » الى داخل العائمة وأخذ يعب الويسكى طمعا
فى الراحة .. وبعد قليل ، أخرج « الدوق » زجاجته أيضا وبدأ
يجرع ما فيها .. وبعد نصف ساعة كان المحتالان يغطان فى
نومهما ، وقد احتضن كل منهما صاحبه .. وما أن استغرقا فى
النوم حتى رحت أروى لصديقى « جيم » كل شئ !

الفصل الحادى والثلاثون

خطط جهنمية - اختفاء ((جيم)) -
أخبار من ((جيم)) - ذكريات
قديمة - معاولات مفيدة - الجنوب .

ظللنا مبحرين أياما وأياما دون أن نقف عند أية مدينة . .
وراحت العائمة تنساب فوق صفحة النهر . وكنا فى ذلك الوقت
نعبّر ماء الجنوب الدافئ ، وقد أصبحنا بعيدين جدا عن وطننا
الأصلى . . . وبدأنا نرى أشجارا يتدلى منها طحلب اسباني اشبه
بالدقن الطويلة التى وخطها الشيب . وأدرك الدعيان أنهما أصبحا
الآن بأمن من الخطر ، فاستأنفا الاحتيال على القرويين هناك !!

واستهلا عملهما بالقاء محاضرة عن العفة ، ولكنهما لم يصيبا
نجاحا يذكر . . وافتتحا مدرسة للرقص فى قرية أخرى ، ولكنهما
لم يكونا يعلمان عن الرقص شيئا . فما أن افتتحا حلبة الرقص
وراحا يقفزان هنا وهناك حتى طردهما الناس من القرية ، وحاولا
بعد ذلك أن يحتالا على الناس عن طريق التنويم المغناطيسى
والتطبيب ، ولكن الحظ تولى عنهما . وأخيرا اضطرا الى البقاء
على العائمة وهى منطلقة مع التيار ، وراحا يقدهان زناد فكرهما . .
كانا يستغرقان فى التفكير نصف يوم كل مرة . . وارتسمت على

وجهيهما علامات اليأس المرير ، وأخيرا راحا يعقدان اجتماعات طويلة كانا يتحدثان أثناءها بصوت خفيض ، ساعتين أو ثلاث ساعات كل مرة ، فانتابنى أنا و « جيم » القلق ، فقد بدأنا نشعر أن اللعينين يدبران خطة جهنمية ، ورحنا نقلب الأمر على جميع وجوهه ، وأخيرا اعتقدنا أنهما لا بد يعتزمان السطو على منزل أو حانوت أو تزييف النقود ، فانتابنا ذعر شديد ، واتفقنا على ألا نشترك معهما فى مثل هذه الأعمال ، وأن ننتهر أول فرصة تسنح لنا للهرب . . وذات صباح ، رسونا فى ساعة مبكرة فى مكان آمن على مبعدة ميلين جنوبى قرية كالحة اسمها «بايكسفىل» ، ونزل « الملك » الى الشاطئ وطلب منا جميعا أن نظل مختبئين ريثما يذهب الى القرية ليستوتق مما اذا كان قد بلغها أى نبأ عن أعمالهما ؛ فقلت لنفسى : لا شك انه يريد أن يزور القرية ليرى ان كان هناك منزل يصلح للسطو عليه ، فاذا ما انتهى من سرقة عاد الى هنا « ! تم قلت لنفسى « ولكنه حين يعود لن يجدنا !! » وأفقت من تأملاتى على صوته يقول : « اذا لم أعد عند الظهر ، فليعلم الدوق أن كل شىء على ما برام ، ومن ثم نلحق به أنا والدوق !! »

وبقىنا حيث نحن . وكان « الدوق » كثير التملل والتجهم . . كان ينهرنا لاتفه الأمور ، فأدركت أن هناك تسيئا ، ولهذا سرنى أن « الملك » لم يظهر له أى أثر حتى الظهر . . فقد كان ذلك خليقا بأن يغير الموقف الراهن على الأقل ، وبأدرت أنا و « الدوق » بالذهاب الى القرية . ورحنا نجوب فى أرجائها بحثا عن « الملك » . وسرعان ما عثرنا عليه فى غرفة خلفية من حانة وضيعة بها كثير من المتسكعين يضايقونه عابثين . أما هو فكان يسبهم ويشتمهم بكل قوته ! وانفجر « الدوق » يسبه ويصفه بالحماقة ، فبدأ « الملك » يتراجع ثم هجم على « الدوق » . وما كاد الاثنان

يشتبكان معا حتى أخذت أترجع نحو الباب ، ثم نسلت منه ، وأطلقت ساقى للريح فى طريقى الى العائمة كغزال شارد ، لقد أيقنت أن فرصتنا قد حانت ، وفررت ان أبادر بالرحيل حتى يعجزا عن اللحاق بنا ثانية . وبلغت التساطىء ، وأنا ألهم من التعب . ولكنى كنت مسرورا مرحا وصحت :

— أطلق العائمة بلا إبطاء يا « جيم » ، فاننا بآمن الآن .

ولكنى لم أتلق ردا . . . لقد اختفى جيم ! . . . ورفعت عفيرتى مناديا مرة ، ثم اثنتين ثم ثلاث مرات ، وأخذت أركض فى هذا الاتجاه وذلك وأنا أصرخ وأصيح ولكن دون جدوى . . . لقد اختفى « جيم » العجوز . . . ولم اكف عن النداء . . . ثم عدت الى الطريق محاولا التفكير فيما يحسن بى ان أفعله . وصادفت غلاما سائرا فسألته ان كان قد رأى زنجيا غريبا يرتدى كذا وكيت فأجاب : نعم . . .

فسألته : اين ؟

— هناك عند مزرعة « سيلاس فيلبس » على مبعدة ميلين جنوبا . . . انه زنجى هارب . . . ولقد قبضوا عليه ، هل تبحث عنه ؟ . . .

— لا . . . لقد قابلته فى الغابة منذ ساعة أو اثنتين فهددنى بقطع رأسى اذا صحت ! وأمرنى بالبقاء حيث كنت فامتللت لأمره وبقيت هناك منذ ذلك الحين . . . فقد تملكنى الخوف وخشيت الخروج من الغابة .

فقال : حسنا ، ليس هناك ما يدعو لك للخوف بعد الآن . . . وقد قبضوا عليه . . . انه هارب من مكان ما فى الجنوب .

— لقد أحسنوا صنعا بالقبض عليه .

— اعتقد ذلك ، فان هناك مكافأة قدرها مائتا دولار لمن يقبض

عليه . . . لقد كان العثور عليه بمثابة العثور على نقود في عرض الطريق .

— نعم . . . هذا صحيح . . . كان في استطاعتي ان أحصل عليها لو أنني تغلبت عليه . . . لقد كنت أنا أول من رآه . . . لكن من الذى قبض عليه ؟

— كهل غريب باع المكافأة بأربعين دولارا ، لأنه كان مضطرا الى الرحيل عبر النهر ، ولا يستطيع الانتظار . . . لو اننى كنت مكانه لانتظرت ولو أدى الأمر الى الانتظار سبع سنوات .
فقلت : لعل فرصته فى الحصول على المكافأة لم تكن كبيرة ، مادام قد باع الزنجى بهذا السعر . . . ولعل فى الأمر شيئا ! . .

— ليس فى الأمر شيء . . . لقد رأيت الاعلان بنفسي . . . كانت الأوصاف تنطبق عليه تماما . وقد جاء بالاعلان انه هارب من مزرعه فى جنوب « نيو اورليانز » . . . اخبرنى ، هل معك مضغة طباق ؟
ولما لم يكن معى طباق ، فقد انصرف الغلام . أما أنا ، فقد عدت الى العائمة ورحت أفكر ، ولكننى لم أستطع أن أصل الى قرار ، فمضيت فى التفكير حتى أعيانى . . . وانتابنى حزن قاتل . . .
فها هى جهودنا كلها تبوء بالفشل ، بعد هذه الرحلة الطويلة ، وبعد كل الذى فعلناه من أجل هذين الوغدين ! . . . يا لهما من وغدين حقيرين ! . . . لقد باعا « جيم » المسكين الذى سيعود رقيقا كما كان . . . باعاه بأربعين دولارا . . . ولقوم غرباء أيضا ! !

وبكيت . . . بكيت ألما وشفقة على « جيم » . . . لقد كان من الأفضل ألف مرة أن يكون جيم رقيقا فى وطنه حيث أسرته وفكرت فى أن اكتب رسالة لصديقى « توم سوير » أطلب اليه فيها أن يبلغ « الأنسة واطسون » أين يوجد جيم ، ولكنى سرعان ماتخلت عن هذه الفكرة لأمرين ، أولهما أن « الأنسة واطسون » سيجن جنونها بسبب ندالة « جيم » ونكرانه للجَمِيل وفراره منها ، ولن تتردد

فى أن تببعه ثانية ؛ وحتى اذا لم تفعل ذلك ، فان الجميع سيحتقرونه
لأنه برهن على انه زنجى جاحد ناكر للجميل ، وبهذا يظل جيم
موضع الازلال والمهانة ... والأمر الثانى هو موقفى أنا ...
فسيحتقرنى الجميع لأننى ساعدت الزنجى على الهرب !! .

وهكذا تبلبل تفكيرى ، ولم أعد أعلم ماذا أفعل ، وأخيرا قررت
أن أكتب الرسالة ... فالتقطت ورقة وقلمًا وأنا أشعر بأعظم
السرور والانفعال ، وجلست أكتب ما بلى :

« يا آنسة واطسون ، ان زنجيك الهارب جيم موجود هنا على
مبعدة ميلين جنوبى «بايكسفيل» لدى مستر «فيلبس» الذى لن
يتردد فى اعادته لك اذا أرسلت المكافأة اليه - هاكبرى فن » .
وشعرت براحة عظيمة ، ولكن راحتى لم تستمر طويلا ...
فقد عاودتنى الذكريات ... ذكريات رحلتنا الطويلة فى النهر ،
ورأيت فى موكب الذكريات « جيم » المسكين يغنى ويضحك معى
ونحن طافيان فوق صفحة الماء ! وتذكرت كيف كان يقود العائمة
بدلا منى حتى أنعم بالراحة والنوم ... وتذكرت سعادته حينما
عدت فى قلب الضباب وعند ما عدت اليه ثانية فى ذلك المستنقع
حيث وقعت معركة الثأر . كما تذكرته فى مناسبات كثيرة مماثلة
ينادينى يا « حبيبى » ، ويدللنى ، ويفعل ما يستطيع من أجلى .
وأخيرا تذكرت كيف أنقذته حينما قلت للشرطيين ان بالعائمة رجلا
مريضا بالجدرى ، وكيف أعرب لى عن عميق شكره قائلا اننى
أفضل صديق عرفه فى حياته ، واننى الصديق الوحيد الذى بقى
له ... وعندئذ حانت منى التفاتة فرأيت الورقة التى كتبت عليها
الرسالة !

كان موقفا حرجا ، فالتقطت الورقة وظللت ممسكا بها فى يدى
أنا أرتعش ... كنت مضطرا الى أن اختار - والى الأبد - بين

أمريين . . . وكنت أعرف سلفا القرار الذى سبأأأأأه ؛ ولكننى مضيت أفكر وأنا أأبس أنفاسى ، ثم لم أأبأ أن قلت لنفسى :
- لن أأبعأ بالرسالة !! . . . لن أعود « أيم » رقىقا كما كان !!
ثم مزقت الورقة .

وأأأأ أفكر فى وسيلة أأرر بها « أيم » المسكين . . . وطافأ بأهنى أفكار كأبرة . وأأيرا اسأأعأ أن أرسأ خطة أأأأنى .
وعلى الفور قرأأ الذهاب الى أأزيرة كأيفة الأشأار فى الأناأ الأناوبى من النهر . وفى هأأة الليل ، مضيت الى الأأزيرة وعند ما أأعأها أأفأأ العائمة هناك ، ثم قضيت الليل نأأما ، واسأأأأأ مع الفأر فأناولأ طعام افأأارى وأرأأأأ أفأر مالأى من أأاب .
وأأأأ أأأعأأ القليلة ، ثم ركأأ القارب ومضيت الى الشأأىءءءء حيث نأأأ فى أأعة رجأأ أنها مزرعة « أأأبس » ، ثم أأفأأ أأأأأ فى الغابة ، ومأأأ القارب بالصأور أأأ أأأ الى القاع فى مكان أسأأأع العأور أأه فىه عند ما أأعو الضرورة الى أأك !
ثم مضيت فى الطأرق . وعند ما مرأأ بمصنع أأأأاب مسأر « أأأبس » رأأأ لأفأة فوآه أأمل كلمأ « مصنع أأأبس لنأر الأأأأاب » فلما أسأرأأ على منازل المزرعة على مسأرة مأأى أو أأأأأأأ أأرأة أأرى ، أأرأأ على مرقابة الطأرق بأأة ، ولكننى لم أر أأأا ، رغم أن النهار كان أأ أأأأ . ثم أنأأأأ الى المأأأأ رأسا . وكان « الأوق » أول رجل صأأأأه عند ما وصلت الى المأأأة . . . كان أأصق اعلانا عن أأأأأأأ المأأأة معلنأ أأأأأأأ ثلاث أأال ، كما أأأ فى المرة السأأة . . . فىالصفاقة هأأأ المأأأأأأ الأأأأأ ! ولم أسأأع أأأأأ أو الانسأاب ، أما هو ، فأأ أأأ علىه الأهأة وقال :

- من أأأ أأأ ؟

ثم أردف بلهجة تنم عن لهفة شديدة : أين العائمة ؟ هل أخفيتها في مكان آمن ؟

فأجبت : هذا هو السؤال الذي كنت سألقيه على سعادتك .
فاختفى الفرخ من فوق صفحة وجهه وقال : ماذا ؟ !

فقلت : عند ما رأيت « الملك » في تلك الحانة أمس ، أيقنت أنه مخمور وأنه لا يستطيع أن يسير على قدميه وأنا لن نستطيع العودة به الى العائمة قبل عدة ساعات ، فأخذت أتسكع في المدينة ، وصادفني رجل وعرض على عشرة سنتات مقابل مساعدتي له في جذب قارب الى النهر ثم اعادته لنقل شاة ، فمضيت معه ، وما ان جذب الشاة الى القارب تاركاً لي زمام الحبل الذي يشدها حتى جذبت الشاة الحبل بقوة لم أستطع مقاومتها ، وانطلقت تعدو فاضطررنا الى مطاردتها ، ولما لم يكن معنا كلب ، فقد اضطررنا الى مطاردة الشاة في جميع أرجاء المدينة حتى تملكها الاعياء ، ولم نستطع الامساك بها الا بعد وقت طويل . . . ثم ذهبت الى العائمة ، فلما بلغت المكان الذي تركناها فيه لم أجد لها أثراً ، فقلت لنفسي « لعل بعض المتاعب واجهتهم فاضطروا للرحيل ، ولكنهم أخذوا جيم ، الزنجي الوحيد الذي بقي لي في هذا العالم ، وها أنذا في بلد غريب ، وجلست أبكي ثم نمت في الغابة طوال الليل . . . والآن ماذا حدث للعائمة ؟ ولجيم . . . جيم المسكين ؟ »
فقال الدوق :

— لست أدري . . . ما الذي حدث للعائمة ؟ أن صديقي الكهل كسب أربعين دولاراً أنفقها في الحانة ! وعندما عدنا الى مكان العائمة في ساعة متأخرة من الليل تبين لنا أن العائمة قد اختفت ، فظن كل واحد منا أنك سرقت العائمة وتنكرت لنا !! وعندما ضاع كل أمل في العثور على العائمة ، لم نجد مفراً من إعادة تمثيل المسرحية

الملكية . . . ومنذ ذلك الحين لم أذوق طعاما . . . هات السنتات العشرة التى معك . . . هاتها . .

وكانت معى نقود كثيرة فأعطيته عشرة سنتات توصلت اليه أن ينفقها فى شراء الطعام وأن يعطينى بعضه ، بحجة أن هذا المبلغ هو كل ما أملك واننى لم أتناول طعاما منذ أمس .
ثم قال « الدوق » فجأة :

— هل تعتقد أن ذلك الزنجى سيبنى بنا ؟ سوف نسلخ جلده اذا فعل ذلك .

— وكيف يستطيع أن يشى بكما ؟ ألم يهرب ؟

— كلا . . . ان صديقى الكهل الأحمق باعه ولم يقاسمنى ثمنه ، وبدد النقود فى الحانة ! !

فقلت : باعه ! ! . . باع « جيم » ؟ ! !

ثم انفجرت باكيا وصحت : كيف يبيع « جيم » ؟ . . . ان « جيم » ملك لى . . . أريد « جيم » !

— لا تصرخ يا غلام . . . لن تستطيع الحصول عليه . . . حذار أن تفضح أمرنا أو تشى بنا ؟ الحق اننى لا أثق بك ، لكن اذا سولت لك نفسك الوشاية بنا . . .

وكف عن متابعة الحديث وانطلقت من عينيه نظرات وحشية ، فقلت له :

— لست أريد أن أشى بأحد . . . وليس عندى من الوقت ما أنفقه فى الوشاية بأحد ؛ فاننى مضطر الى البحث عن « جيم » .
فبدا عليه القلق ووقف فى مكانه والاعلانات تتأرجح فوق ذراعه ، وراح يفكر وهو مقطب الحاجبين .

وأخيرا قال : سأقول لك شيئا — اننا مضطرون للبقاء هنا ثلاثة أيام ، فاذا وعدتنى بألا تشى بنا ، ألا تدع الزنجى يشى بنا ، فسأقول لك أين تعثر عليه .

فوعده بذلك . . . فقال :

— ان فلاحا اسمه سيلاس قد . . .

وكف «الدوق» عن الكلام . . . كان قد سرع يقص على الحقيقة ولكنه حين كف عن الكلام، على هذا النحو أيقنت انه عدل عن رأيه ! لم يكن الرجل يتق بى ، وكان يريد أن يتأكد من ابعادى عن طريقهما طوال الأيام الثلاثة فقال :

— ان الرجل الذى اشتراه يدعى « ابرام فوسنر » — ابرام . ج . فوسنر وهو يقيم على مسافة اربعين ميلا جنوبى هذه القرية على طريق لافايت .

فقلت : فى استطاعتى أن أقطع هذه المسافة سيرا على الاقدام فى ثلاثة أيام . . . وسأبدأ رحلتى بعد ظهر اليوم . — لا . . . ابدأ رحلتك الآن ، واياك واضاعة الوقت ، أو التسكع فى الطريق . . . وحذار من التحدث مع أحد . امسك لسانك وامض فى رحلتك حتى تأمن الوقوع فى مشاكل معنا . . . هل سمعت ؟ . . .

وكان هذا هو كل ما أريد . . . كنت أريد أن يتركنى وسامى لأنفذ خطتى . . .

قال : هلم انصرف . . . فى استطاعتك أن تقول لمستر فوسنر ما تشاء ، فقد تستطيع أن تجعله يصدق ان جيم زنجياك — فان البلهاء لا يطالبون برؤية الوثائق ، وخصوصا أهل الجنوب . . . ولعله يصدقك اذا قلت له ان الاعلان عن المكافاة مزيف . . . اذهب الآن وقل له ما تشاء ، ولكن حذار ان تفتح فمك بكلمة واحدة وأنت فى طريقك الى هناك !

وانصرف قاصدا الى الجنوب ، ولم اتلفت حوالى لائنى كنت أشعر بأن الدوق يراقبنى . . . ومضيت فى سبيلى قرابة ميل

قبل أن أكف عن السير . ثم عدت من حيث أتيت فحترقا الغابة
في طريقى الى مزرعة « فيلبس » ، فقد رأيت أن من الأفضل أن
أنفذ خطتى بلا ابطاء حتى أقنع « جيم » بأن يمك لسانه ريشما
يتمكن هذان الرجلان من الرحيل ، حتى أتجنب إثارة أية متاعب
معهما ، فقد ضقت ذرعا برؤيتهما ، وكنت أشد ما أكون لهفة على
التخلص منهما .

الفصل الثانی والثلاثون

هدوء شبیه بهدوء يوم الأحد - خطأ
فی معرفة الشخصية - موقف حرج

عند ما بلغت المزرعة ، كان كل شيء هادئاً هدوء يوم الأحد ، وكان اليوم حاراً والشمس ساطعة . وكان طنين الذباب يملأ الهواء فيزيد من وحشة المكان وكأنما مات جميع سكان المنطقة . فاذا هبت نسمة من هواء وداعبت أوراق الشجر ، جعلتك تحس بالحزن وتشعر كأن أرواح أشخاص ماتوا منذ أعوام طويلة تهمس حولك وتتحدث عنك !

كانت مزرعة « فيلبس » من مزارع القطن الصغيرة الكثيرة التي تشبه بعضها البعض فهناك سياج من القضبان حول ساحة سعتها فدانان ، ودرج مصنوع من كتل خشبية منشورة تستعمل في تسلق السياج ، كما تقف النساء فوقها حينما يحاولن الوثوب فوق ظهور الجياد وكان في الساحة الكبيرة منزلان كبيران لسكنى القوم البيض ، وهما مصنوعان من كتل خشبية منحوتة بها شقوق سدت بالملاط وطليت بالجير . وكان المطبخ الخشبي المستدير عبارة عن مبنى كبير يصله بالمنزل دهليز واسع مكشوف من الجانبين ولكنه مسقوف . وكان هناك ثلاثة أكواخ متجاورة

للزئوج ، مصنوعة من الكتل الخشبية أيضا على الجانب الآخر من المطبخ . . . كما كان هناك كوخ صغير مستقل مشيد عند مؤخرة السياج وبعض أبنية أخرى مشيدة فوق قطعة من الأرض على الجانب الآخر من السياج ؛ أحدهما مخزن للخشب والآخر به جهاز لصنع الصابون . . . ورأيت كلبا نائما فى الشمس ؛ وكلابا أخرى نائمة فى أماكن متفرقة تحت ظل ثلاث أشجار بعيدة عن ركن السياج . . . وكانت هناك حديقة ، ورقة من الأرض مزروعة بطيخا ، وبعدهما تبدأ حقول القطن . . . وبعد الحقول توجد الغابة .

ودرت حول السياج ، وتسقلت الدرج الخلفى المجاور لمخزن الخشب ، ثم انطلقت نحوالمطبخ . وعندما قطعت مسافة قصيرة ، سمعت طنين مغزل آلى رتيب . ومضيت فى طريقى تاركا للقدر توجيهى ! وعند ما قطعت نصف المسافة الى المطبخ ، أقبل أول كلب ، ثم أقبل كلب آخر ، وتحفز كلاهما ، فاضطرت الى الوقوف ومواجهتهما بالطبع ، وبقيت جامدا فى مكانى ، وكان الكلبان يزجران بشكل مخيف ، وبعد لحظات ألفتينى وسط حلقة تتكون من خمسة عشر كلبا مدت أذيالها وأنوفها نحوى، وانطلقت تعوى وتزجر ، ثم لم ألبث ان رأيت مزيدا من الكلاب فى طريقها الى . وأقبلت زنجية مهرولة من المطبخ وهى تحمل عصا وصاحت : « انصرفوا . . انصرف يا «نايج» وأنت يا «سبوت» . وهوت على أولهما ، ثم على الثانى بعصاها ، فانسحبا وهما يصرخان ، وأعقبهما الجميع ، وفى اللحظة التالية كان نصف الكلاب قد انسحب ، ثم عاد البعض يهز ذيله ويلتف حولى محاولا أن يبدى صداقته لى . . والحق أن الكلب حيوان أليف غير مؤذ . وخلف المرأة جاءت فتاة زنجية صغيرة وغلaman زنجيان لا يرتديان شيئا سوى قمصان من الكتان المغزول ، وتشبثوا

جميعا بثوب أمهم ، وأخذوا يختلسون النظر الى في خجل كما يفعل الزنوج . ثم جاءت امرأة بيضاء اللون في الخامسة والأربعين أو الخمسين من عمرها . . جاءت تركض من داخل المنزل ، عارية الرأس ، حاملة عصا الغزل في يدها . وأقبل وراءها أطفالها الصغار البيض . . وكانت المرأة تبتسم لى . . كانت الفرحة تنطلق من عينيها . . ثم قالت :

— آه ، أهذا أنت أخيرا ، أليس كذلك ؟

وقبل أن أفكر في الأمر ، فلت : « نعم يا سيدتى » .
فجذبتنى اليها واحتضنتنى بشدة ، ثم أمسكت بيدي وأخذت تهزهما . واغرورقت عيناها بالدموع ، ثم انحدرت الدموع من عينيها . ثم قالت :

— انك لا تشبه أمك الى الحد الذى تخيلته . . رباه ، كم أحب أمك . . اننى مسرورة . . أريد أن التهمك التهاما .

ونظرت الى أطفالها ثم قالت : « ها هو ابن عمكم توم . . . قولوا له : كيف حالك ؟

ولكن الأطفال اشرأبوا بأعناقهم ووضعوا أصابعهم فى أفواههم ثم اختبأوا خلفها ، فقالت :

— هيا يا ليزا ، أعدى له افطارا ساخنا بلا ابطاء . . أم هل تناولت طعام افطارك على الباخرة ؟

فقلت لها اننى تناولته على الباخرة ، وعندئذ قادتنى من يدي الى المنزل والأطفال يسرون خلفها . وعند ما بلغناه ، أجلستنى فوق مقعد ذى قاعدة محطمة ، وجلست فوق مقعد منخفض قبالتى وقد أمسكت بكلتا يدي وقالت :

— أستطيع الآن أن أتأملك جيدا . . يا الهى . . كم كنت تواقا لرؤيتك طوال هذه السنين . . وها قد تحققت أمنيتى أخيرا . .

لقد كنا نتوقع قدومك منذ يومين أو أكثر .. ماذا أعاقك ؟ هل اضطرتهم للارساء ؟

— نعم يا سيدتى .. انها ...

— لا تقل نعم يا سيدتى .. قل يا « خالتى سالى » .. أين وصلتكم ؟

ولم أدر بماذا أجيب لأننى لم أكن أعلم أكانت الباخرة قادمة من جنوب النهر أو من شماله ، فقلت :

— لم نضطر للرسو فى مكان معين .. فقد انفجر « صمام » من صمامات الباخرة !

— يا الهى ، وهل أصيب أحد ؟

— لا يا سيدتى .. فقط قتل زنجى من الزنوج ! ..

— الحمد لله .. فعند ما انفجر صمام من الصمامات يصاب أشخاص كثيرون .. فمنذ عامين وفى عيد الميلاد ، كان عمك سيلاس قادما من نيواورليانز على الباخرة « لالى روك » ، فانفجر أحد صماماتها وأصاب رجلا .. وأظن أن هذا الرجل مات بعد ذلك .. نعم لقد مات .. أصيب بنزيف حاد واضطروا الى بتر أحد أطرافه ولكن ذلك لم ينقذه .. نعم كان نزيفا شديدا ، ولقد تسمم الرجل فازرق لون جسمه كله ومات ، وسمعت أن منظره كان مخيفا .. ان عمك يذهب الى المدينة كل يوم للبحث عنك ، وقد ذهب اليها اليوم أيضا منذ أقل من ساعة ، وسيعود حتما فى أية لحظة الآن . لا شك أنك صادفته فى الطريق .. أليس كذلك ؟ انه كهل له ...

— لا ... لم أر أحدا يا خالتى سالى ، فقد رست الباخرة عند الفجر ، فتركت أمتعتى عند مرسى القوارب وتجولت فى المدينة وصواحيها حتى لا آتى الى هنا فى ساعة مبكرة ؛ ولهذا جئت عن طريق جانبى .

— عند من تركت أمتعتك ؟
— لم أتركها عند أحد .
— كيف أيها الطفل ؟ .. ستسرق الأمتعة .
— لا لن يسرقها أحد من المكان الذى أخفيت فيها .
فقالت : اذن كيف تناولت طعام افطارك على الباخرة فى مثل
هذا الوقت المبكر ؟

وأدركت اننى وقعت فى مأزق فأسرعت أقول :
— رآنى الربان ألتسكع على سطح الباخرة فقال لى أنه يحسن
بى أن أتناول شيئاً من الطعام قبل أن أهبط الى البر ، ورافقنى
الى المطعم وقدم لى طعاما .

وبدأت أشعر بالقلق ، حتى لقد صرفنى ذلك عن الاصغاء الى
محدثتى ... كنت أفكر فى وسيلة استدرج بها الأطفال الى الحديث
حتى أعلم من أنا !!
تم قالت السيّدة :

— ولكن ما لنا ولهذا الحديث .. انك لم تقل لى كلمة واحدة
عن أختى أو عن أى فرد من أفراد الأسرة .. ساكف عن الكلام
الآن لتتحدث أنت ، حدثنى عن كل شىء .. حدثنى عنهم جميعا ،
كل واحد منهم .. كيف حالهم وماذا يعملون ، وماذا طلبوا منك
أن تلبفه لى ؟

وأدركت أننى وقعت فى مأزق خطير .. لقد شد القدر أزرى
حتى هذه اللحظة ، ولكنه تخطى عنى أخيرا ، وتركنى .. وخيل
الى ألا جدوى من المداورة ؛ فقلت لنفسى : « انه موقف حرج
لا مخرج منه الا بذكر الحقيقة » .. وفتحت فمى لأتكلم ، ولكنها
جذبتنى ودفعتنى خلف الفراش وهى تقول :

— ها هو قد جاء .. انخفض رأسك حتى لا يراك ... نعم ،
هكذا ... انه لا يستطيع أن يراك الآن فلا تكشف عن وجودك

هنا ، فأننى أريد مداعبته .. وأنتم أيها الأطفال ، حذار أن تقولوا كلمة واحدة .

واستطعت أن ألمح الكهل عند دخوله .. ثم حجبته الفراش عن عيني .. وقامت السيدة لاستقباله قائلة :

— هل أتى ؟

فأجاب زوجها :

— لا .

فقالت : يا الهى .. ماذا بحق السماء يمكن أن يكون قد حدث له ؟ فقال الكهل : لست أدري .. الحق اننى شديد القلق . فقالت : قلق ، اننى أكاد أفقد عقلى .. لا بد انه جاء ولكنك أخطأته فى الطريق .. اننى واثقة من ذلك ، فان قلبى يحدثنى به . — ما هذا يا « سالى » ؟ من المستحيل أن أخطئ رؤيته على الطريق ، وأنت تعلمين ذلك .

— ماذا تقول أختى ؟ لا ريب انه وصل وأنتك أخطأته ..

— الواقع اننى قلق .. « سالى » ، ان الموقف خطير .. لا بد أن شيئاً ما حدث بالباخرة .

— ما هذا يا سيلاس ؟ أنظر هناك الى الطريق .. ألا ترى شخصاً قادماً ؟

ووثب الكهل نحو النافذة عند رأس الفراش ، وبذلك أتاح لزوجته الفرصة التى تنشدها .. فقد مالت الى الأمام بسرعة وجذبتنى من خلف الفراش . وعندما استدار الرجل بعد أن تطلع عبر النافذة ، وجد زوجته تبتسم ، بينما كنت أقف بجوارها والعرق يتصبب منى .. فحدق الكهل فى وجهى وهتف :

— من هذا ؟

— من تظنه ؟

— لست أدري ... من هو ؟

— انه « توم سوير » !.. ابن أختى « توم سوير » !!
وكدت أسقط على الأرض ، ولكن الوقت لم يتسع لذلك !
فقد جذبني الكهل اليه وأخذ يهز يدي .. أما زوجته ، فكانت
ترقص طربا وتضحك وتبكي في وقت واحد .. ثم راح الاثنان
يطرانني ببوابل من الأسئلة عن « سيدنى » و « مارى » وشتى
أفراد أسرة « توم سوير » !!

واذا كان الزوجان قد استخفهما الطرب ، فاننى لم أكن أقل
طربا منهما . فقد شعرت بأننى ولدت من جديد ... كنت أشد
ما أكون سرورا لأننى عرفت من أنا !! ورحت أحدثهما عن أسرتى
— أعنى أسرة « توم سوير » وأسهبته فى الحديث ثم شرحت لهما
كيف انفجر أحد صمامات الباخرة عند مدخل نهر هوايت، وكيف
استغرق اصلاحها ثلاثة أيام ، استأنفت بعدها رحلتها !!

وكنت نهبا لعواطف متضاربة ... أشعر بالطمأنينة حينما
وبالخوف أحيانا . فعلى الرغم من أن تقمصى لشخصية «توم سوير»
كان أمرا يبعث على الطمأنينة ، فاننى ارتعشت عند ما سمعت
صوت باخرة تسير فى النهر ، فقلت لنفسى « لنفرض أن توم سوير
جاء على هذه الباخرة ؟ ولنفرض انه جاء الى هنا فى أية لحظة ونطق
باسمى قبل أن أفلح فى حمله على الصمت !! » . وأخيرا قررت
أن اتربص له فى الطريق لأروى له حقيقة ما حدث ... وقلت
للزوجين اننى سأذهب لاحضار أمتعتى من المدينة ، فقال الكهل
انه سيأتى معى ، ولكنى رفضت قائلا اننى أستطيع قيادة الجواد
بنفسى واننى أفضل ألا يزعج الرجل نفسه من أجلى ! ...
ثم خرجت أبحث عن « توم سوير » !!

الفصل الثالث والثلاثون

سارق الزنجى - كرم أهل
الجنوب - القار المزركش بالريش

بدأت رحلتى الى المدينة مستقلا المركبة التى يجرها الجواد .
وعند ما وصلت الى منتصف الطريق رأيت مركبة مقبلة ، وكان
« توم سوير » أحد ركابها ، وناديت « توم سوير » فنزل من
المركبة ، وعند ما رآنى فتح فمه كالأبله وازدرد لعابه مرتين أو
ثلاث مرات شأن انسان جف حلقه . تم قال :

— اننى لم أسىء اليك يا شبح « هاكبرى فن » . . . وأنت تعلم
ذلك . . . فلماذا تلاحقنى وتطاردننى ؟

فقلت : اننى لست شبح « هاكبرى فن » . . . اننى « هاك »
نفسه !

وعند ما سمع « توم » صوتى اطمأن قليلا ، ولكنه لم يكن
مطمئنا تماما ، فقال :

— لا تخدعنى لأننى لن أخدعك . . . أخبرنى بأمانة . . . لست
شبحا ؟

— الحق اننى لست شبحا .

— اننى . . . اننى . . . اننى لا أفهم شيئا . . . اصغ الى . . .
ألم تمت ؟ ألم تقتل ؟

— كلا . . . لم أقتل . . . تعال تحسسنى ان كنت لا تصدقنى
فتحسسنى . وعندئذ اطمأن قلبه وتهللت أساريره . . . لقد
كان يظن كما ظن الجميع أننى قتلت ، ولهذا استبد به الفرح حينما
وجدنى حيا ، فقد أدرك ان فى الأمر مغامرة ! . . . وطلب منى أن
أشرح له كل شئ عن تلك المغامرة الفامضة التى أثارت ضجة
كبيرة فى مدينتنا ؛ فطلبت الى سائق المركبة أن ينتظر قليلا ريثما
يعود اليه « توم » . . . وابتعدنا عن المركبة ، ورحت أروى
لصديقى « توم » ما حدث . ثم طلبت اليه أن يبحث عن مخرج
من « الورطة » التى وقعت فيها . . . ففكر هنيهة ثم قال :

— لقد وجدت الحل . . . خذ حقيبتى فى مركبتك وتظاهر بأنها
حقيبتك ، ثم عد الى المزرعة ببطء حتى تصل اليها فى الوقت الذى
كان ينبغى أن تصل فيه . . . أما أنا ، فسأعود الى المدينة ثم ألحق
بك فى المزرعة بعد موصولك اليها بنصف ساعة تقريبا . . . وعند ما
أصل الى منزل مستر « فيلبس » ، حذار أن تسلك سلوكا يدل
على انك تعرفنى !

فقلت له : سأفعل ما تريد . . . ولكن مهلا . . . هناك أمر آخر
لا يعرفه أحد سواى . . . هناك زنجى أحاول أن أسرقه لأعتقه
. . . هذا الزنجى هو « جيم » خادم الأنسة واطسون .
فقال : ماذا تقول ؟ جيم . . . انه . . .

وكف عن الكلام واستغرق فى التفكير . فقلت له : أعرف ما
ستقوله . . . ستقول ان سرقة الزنجى عمل غير شريف . . أرجو
أن تدعنى انفذ خطتى . . . هل تفعل ؟
وومضت عيناه وقال : سأساعدك فى خطتك .

وشهقت ، فقد كان ذلك أعجب ما سمعت . . . لم أكن أتوقع
أن يشترك « توم » الأبيض فى سرقة زنجى وتحريره ! . . . والحق
أن « توم » سقط من نظرى !!

فقلت : كفى دعاية ... اننى أعلم أنك لن تساعدنى !

— بل اننى جاد فيما أقول .

— سواء كنت ساخرا أم جادا ، فاننى أطلب اليك ألا تتحدث عن هذا الزنجى ... المفروض اننى . . وأنت أيضا لانعلم شيئا عنه . ونقلنا حقيبة « توم سوير » الى مركبتى ، بينما استقل هو مركبته وعاد بها الى المدينة . أما أنا ، فقد ركبت مركبتى وقدمتها الى المزرعة ... وكنت مسرورا فلم أحسب حساب الوقت الذى كان ينبغى أن تستغرقه الرحلة ... ولهذا وصلت الى منزل مستر « فيلبس » . مبكرا ... وكان مستر « فيلبس » واقفا عند الباب فهتف :

هذا مدهش . . لقد قطع الجواد تلك الرحلة الطويلة بسرعة ! . . ليس كذلك ... هذا مدهش ... مدهش ... لن أبيع هذا الجواد ! ... لن أقبل مائة دولار ثمنا له ... لن أقبل ، مع اننى كدت أبيعته بخمسة عشر دولارا ... وياله من ثمن زهيد كنت أعتقد ان الجواد لا يساوى أكثر منه ! !

وبدت أمارات السرور على وجه مستر « فيلبس » ... لقد كان رجلا طيب القلب ... انه لم يكن مزارعا فحسب ، وانما كان واعظا أيضا ... كان يدير شئون كنيسة صغيرة عند مؤخرة مزرعته أنشأها على حسابه الخاص لتكون مكانا للعبادة والتعليم ... ولم يكن يتقاضى أجرا أو مكافأة على مواعظه ... والحق ان أهل الجنوب كرام ... فهناك كثيرون مثل مستر « فيلبس » هناك ! ...

* * *

وبعد حوالى نصف ساعة أقبلت مركبة « توم » ووقفت أمام الباب ، فرأتها الخالة « سالى » من النافذة ... فقد وقفت المركبة على مبعدة خمسين ياردة من النافذة !

ثم قالت الخالة « سالى » : ها قد جاء شخص آخر شد ما أعجب من يكون ؟ أكبر الظن انه غريب .
وطلبت الى أحد ابنائها أن يأمر الخادمة بأن تضع « طبقا » آخر على المائدة للضيف الجديد !

واندفع الجميع نحو الباب الخارجى ليروا الزائر الجديد ! . .
كان « توم » يرتدى أفخر ثيابه ، وكان يمشى بخطى متزنة هادئة . وعند ما وقف أمامنا ، رفع قبعته بحركة لطيفة أنيقة ثم قال :

— أكبر الظن أنك مستر آرشيبالد نيقولاس يا سيدى ؟
فأجاب « فيلبس » الكهل : لا يا بنى . . . يؤسفنى أن أقول لك ان حوذى مركبتك خدعك . . . ان مزرعة نيقولاس تبعد عن مزرعتنا بثلاثة أميال . . . تفضل . . . تفضل .
وتطلع « توم » إلى الورا من فوق كتفه وقال : لقد سبق السيف العزل ، فقد اختفت المركبة .

— نعم . . . صدقت يا بنى . . . تفضل . . . تناول الطعام معنا . . . وسأعد لك مركبة تذهب بك الى مزرعة « نيقولاس » !
— اوه . . . لست أريد أن أثقل عليكم . . . شكرا . . . شكرا . . . سأقطع هذه المسافة سيرا على قدمى !

— ولكننا لن نسمح لك بالسير على قدميك ، فليس هذا من قواعد الضيافة عند أهل الجنوب . . . تفضل . . . أدخل .
وقالت الخالة سالى : اوه ، أدخل . . . فان ذلك لن يسبب لنا أية مضايقة . . . يجب ان تدخل . . . ان الرحلة طويلة والطريق مملوء بالتراب . . . ونحن لن نسمح لك بالسير على قدميك . . . ولقد طلبت فعلا من الخدم أن يعدوا لك « طبقا » على المائدة بمجرد أن وقع بصرى عليك . . . أدخل واعتبر نفسك فى منزلك .
وشكرهما « توم » بحرارة ولطف ، ثم دخل . وعند ما استقر

به المقام قال انه غريب من مدينة بولاية « أوهايو » وان اسمه « وليام تومبسون » .

ومضى « توم » يتحدث ويسرف في الحديث عن « هيكسفيل » وكل انسان زعم انه يقيم هناك ، حتى بدأت أشعر بشيء من القلق ، وأتساءل كيف يمكن أن ينقذني حديثه هذا من ورطتي ! وأخيرا ، وبينما هو منطلق في الحديث ، انحنى فجأة الى الأمام وراح يقبل الخالة « سالى » فوق شفتيها ... ثم جلس في مقعده وكأنه لم يفعل شيئا ...

أما الخالة « سالى » فقد انتصبت واقفة في لمح البصر ، ومسحت شفتيها بظهر يدها وصاحت :

— أيها الجرو الجرىء ... لماذا قبلتني هكذا ؟ ... ماذا تعنى؟

— لا أعنى شيئا يا سيدتى ... لم أقصد الاساءة اليك ... لقد ظننت أن ذلك سيعجبك ويرضيك .

فقالت وهى تلتقط عصا المفزل : أيها الغبى الأحمق . ما الذى جعلك تظن ان تقبيلك اياى سيعجبنى ؟

— لست أدرى ... لقد قالوا لى ذلك ... كلهم قالوا لى ذلك .

— قالوا لك ذلك ؟ ان من قال لك ذلك مجنون ... يا الله ...

اننى لم أسمع مثل هذا السخف من قبل ... ولكن من هم أولئك الذين قالوا لك ذلك ؟

— الجميع ... الجميع قالوا ذلك يا سيدتى .

وحاولت المرأة أن تتمالك أعصابها ولكنها لم تستطع ... لقد التمعت عيناها ببريق الغضب وأخذت أصابعها تتحرك بتشنج كما لو كانت تتحفز لتنشب أظفارها فى عنقه وقالت : من هم « الجميع » ؟ ... اذكر لى أسماؤهم والا قتلتك !

فنهض « توم » واقفا وقد ارتسم الجزع على وجهه ، وأخذ يبحث عن قبعته ، ثم قال :

— انى آسف ... لم أكن أتوقع ذلك ... لقد طلبوا منى أن أقبلك ... قالوا لى : قبلها ... قبلها ... انها ستحب هذه القبلات ... هكذا قالوا لى ... قالها كل واحد منهم ... ولكنى آسف يا سيدتى ، ولن أفعل ذلك مرة أخرى ... نعم لن أفعل ذلك مرة أخرى !

— لن تفعله ... أليس كذلك ؟

— نعم يا سيدتى ... لن أفعل ذلك الا اذا طلبت منى أن أقبلك مرة أخرى !!

— لن تفعل ذلك الا اذا طلبت منك أن تقبلنى ... يا لله ... اننى لم أر مثل هذه الوقاحة من قبل !

— ان قولك هذا يدهشنى يا سيدتى ... لقد قالوا لى انك ستبتهجين بتقبيلى اياك ... ولقد كنت أظن ذلك ... ولكن .. وكف توم عن الكلام ، وتلفت حوله ببطء لعله يرى من يعطف عليه ، ثم تحول الى الكهل « فيلبس » وقال :

— ألم تكن تعتقد أنها تحب أن أقبلها يا سيدى ؟

— كلا ... اننى ... اننى ... لا أعتقد ذلك .

فمضى « توم » يتلفت حوله حتى وقع بصره على ، فقال :

— « توم » ... ألم تكن تعتقد أن الخالة « سالى » سوف تفتح

ذراعيها وتقول « تعال يا سيدنى ... تعال بين أحضانى ... »

فصاحت المرأة : يا الهى ... سيدنى ! ... سيدنى !

ثم جرت نحو « توم » وهى تقول : أيها الشرير الأحمق الذى سخر من الجميع !

ثم همت باحتضانه ولكنه منعها من تقبيله قائلاً :

— لا ... لن أسمح لك بذلك الا اذا طلبت منى أن أدعك تقبلينى .

وطلبت اليه أن تحتضنه ، تم احتضنته وقبلته عشرات المرات

... وعند ما فرغت من تقبيله ، تلقفه الكهل « فيلبس » وراح يقبله بدوره ...

ثم قالت الخالة « سالى » :

— يا لها من مفاجأة لم نكن نتوقعها ... نعم لم نكن نتوقع مجيئك .. كنا نتوقع زيارة « توم » فقط .. أن أختى لم تكتب لى أن أحداً غيره سيحضر .

فقال « توم » :

— لا تدهشى يا سيدتى .. لقد توسلت اليها أن تسمح لى بالحضور مع « توم » فسمحت لى فى اللحظة الأخيرة .. وعندما كنت مع « توم » على ظهر الباخرة ، فكرنا فى هذه المفاجأة ! .. لقد اتفقنا على أن نتظاهر بأن أحدا لا يعرف الآخر .. ولكن يبدو أننا أخطأنا يا خالتى « سالى » ... فأنتم على ما يبدو لا تمزحون مع الغرباء !

— نعم ... نحن لا نمزح مع الغرباء الوقحين يا « سيدنى » .. لقد شعرت بالفرع عندما رحت تقبلنى فجأة .. كنت أحسبك غريباً كما زعمت لنا !!



وتناولنا الطعام فى الممر الفسيح المسقوف الواقع بين المطبخ والمنزل . وكانت المائدة حافلة بألوان شتى من الأطعمة تكفى لاطعام سبع عائلات !! .

وتحدثنا طويلاً بعد أن فرغنا من تناول الطعام . وكنا نتوقع أن يتحدث أحد أفراد الأسرة عن الزنجى الهارب ، ولكن أحداً لم يقل شيئاً !! .. وأخيراً ، بعد أن تناولنا طعام العشاء فى تلك الليلة ، قال أحد الصبية :

— أمى ، هل تسمحين لى بأن اذهب انا و «نوم» و «سبدنى» لمشاهدة «المسرحية» التى تعرض الليلة ؟
فاجاب الكهل : لاتذهبوا .. اعتقد ان هذه المسرحية لن تعرض الليلة .. لا تذهبوا .. لقد روى لى الزنجى الهارب كل شىء عن فضائح المحتالين اللذين يعرضان المسرحية .. كذلك روى الزنجى الهارب لى ولصديقى « برتون » ما فعله هذان المحتالان فى مدن أخرى .. ولقد أقسم « برتون » بأن يفضح سرهما .. سوف يطرد هذان المحتالان من مدينتنا شر طردة !!
وأدركت على الفور أن الواقعة قد وقعت .. أدركت أن «جيم» قد فضح سر هذين المحتالين فقررت أن أعمل بسرعة قبل فوات الوقت !!

وتظاهرننا — أنا وتوم — بعد العشاء باننا نريد ان ننام .. وذهبنا الى غرفتنا .. وبعد أن أغلقنا بابها ، تسللنا من النافذة وهبطنا من فوق السياج ، وانطلقنا صوب المدينة .. لقد كنت أريد أن أروى للمحتالين « الملك » و « الدوق » ما حدث حتى لا يقعوا فى « ورطة » خطيرة !!

وبينما نحن سائران فى الطريق أخبرنى « توم » بكل شىء عن صدى مغامرتى !.. كيف اختفى أبى بعد اختفائى مباشرة ، ولم يعد ثانية .. وكيف أثار فرار « جيم » ضجة عظيمة ، .. وكيف اعتقد الجميع اننى هلكت . وحدثت « توم » بدورى عن « الملك » و « الدوق » ، ورحلتنا فى العائمة ..

وكنا قد وصلنا الى المدينة فى ذلك الوقت وتقدمنا حتى قلبها .. وكانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف مساء .. وهناك رأينا كثيرا من الناس مقبلين نحونا وهم يحملون المشاعل .. وكانوا يصخبون ويصيحون ويدقون على بعض الأوانى النحاسية ، وينفخون فى الأبواق !.. ولذا بمكان اختبأنا فيه .. وعندما مرت

المظاهرة الصاخبة أمامنا ، رأيناهم يحملون « الملك » و « الدوق »
وقد أوتقوهما وأحكموا وثاقهما .. ولقد عرفت انهما « الملك »
و « الدوق » رغم انهما كانا ملطخين بالقار المزركش بالريش ..
لقد كانا أشبه بوحشين ممسوخين . وعندئذ أحسست بأن قلبي
يفوص بين جنبى كما أسفت من أجل هذين التعسفين ، فقد كان
منظرهما مؤلما حقا !

وأخيرا أدركت أننا جئنا متأخرين ، واننا لا نستطيع أن نفعل
شيئا لانقاذ هذين الرجلين التعسفين .. وعندما سألنا الناس عن
حقيقة ما حدث ، قالوا لنا انهم كانوا يعرفون ان الرجلين محتالان ،
وانهم ذهبوا لمشاهدة العرض وهم يتظاهرون بأنهم لا يعرفون
شيئا .. ولكن ما أن بدأ « الملك » و « الدوق » يؤديان أدوارهما
على المسرح حتى أتى أحد الحاضرين بإشارة متفق عليها ، فانقض
جميع النظارة على المحتالين وأحكموا وثاقهما وشيعوهما بهذه
المظاهرة !!

ثم عدنا الى المنزل .. ولم أكن أشعر بالسرور .. لقد كنت
حزينا من أجلهما ، رغم اننى لم أرتكب اثما أو ذنبا !!

الفصل الرابع والثلاثون

الكوخ المجاور لمخزن الخشب -
خطة ساذجة - متاعب السحر .

كنا نريد أن نعرف أين يوجد « جيم » الزنجى الذى نريد أن
نحرره ! .. ورحنا نفكر .. وأخيرا قال « توم » :

- اصغ الى يا « هاك » .. لقد كنا حمقى ، لأننا لم نفكر فى
ذلك من قبل .. اننى أعرف أين يوجد جيم .

- أحقا ؟ أين ؟

- فى الكوخ المجاور لمخزن الخشب .. اصغ الى .. ألم تلاحظ
ونحن نتناول طعام الغذاء أن زنجيا دخل هذا الكوخ وهو يحمل
بعض العظام ؟

- نعم .

- لمن تغلنه حمل هذه العظام ؟

- لكلب .

- هذا ما خطر ببالى أيضا .. ولكنه لم يكن لكلب .

- لماذا ؟

- لأن الزنجى كان يحمل أيضا قطعة من البطيخ .

— لقد لاحظت ذلك .. انه لأمر غريب حقا ، أننى لم أفكر فى أن الكلاب لا تأكل البطيخ .

— على كل حال ، لقد فتح الزنجى القفل بالمفتاح قبل أن يدخل ؛ ثم عاد فأغلقه عندما خرج منه .. ثم أعطى المفتاح للعم «سيلاس» عندما كنا نغادر المائدة بعد انتهائنا من تناول الطعام .. ولست أشك فى أن هذا المفتاح هو مفتاح باب الكوخ .. ان وجود البطيخ معناه وجود انسان فى الكوخ .. ووجود المفتاح معناه أن شخصا ما سجين فى الكوخ . ولما كان من غير المحتمل أن يكون هناك سجينان فى مزرعة صغيرة كهذه تسود فيها الألفة بين الناس ، فالأرجح أن « جيم » هو هذا السجين .

— ما دام الأمر كذلك ، هيا بنا نضع خطة لاطلاق سراحه .. فكر أنت فى خطة .. وسأفكر أنا فى خطة أخرى ..
يا لعقلية هذا الغلام « توم » ... انه يتمتع بعقلية ممتازة ، لو كنت أمتع بها أنا لما نزلت عنها حتى لو جعلونى دوقا ، أو ضابطا فى باخرة أو بهلوانا فى سيرك !

ورحت أفكر فى خطة .

وبعد قليل ، قال لى « توم » :

— هل أنت مستعد ؟

— نعم .

— هات ما عندك .

فقلت : اليك خطتى ، ان فى استطاعتنا أن نعرف بسهولة ان كان « جيم » مسجوننا فى الكوخ أم لا . فغدا ، نحضر زورقى أثناء الليل ، كما نحضر العائمة من الجزيرة .. وفى إحدى الليالى المظلمة نسرق مفتاح الكوخ من « العم سيلاس » بعد نومه ، ثم نطلق سراح جيم ؛ ونستقل العائمة ، ونرحل ليلا .. أليست هذه الخطة معقولة ؟

فقال « توم » :

— معقولة !! انها خطة بسيطة لا أئر فيها لابتكار! .. ماجدوى
خطة بسيطة كهذه لا غموض فيها ؟ .. انها لا تثير ضجة !! ..
ولم أقل شيئاً لأننى لم أكن أتوقع منه غير ما قال .. ولأننى
كنت أعلم أنه قد وضع خطة أفضل من خطتى !

ولقد صح ما توقعت .. وذكر لى « توم » تفاصيل خطته ..
وسرعان ما تبينت انها خطة مثيرة مبتكرة قد تحرر « جيم »
ولكنها قد تنتهى بمصرعنا جميعاً !!

وكانت خطته مثيرة حقاً .. فما أن عدنا الى المنزل حتى ذهبنا
الى الكوخ المجاور لمخزن الخشب لفحصه .. وشرنا عبر الساحة
لنرى ما ستفعله بنا الكلاب . وعرفتنا الكلاب فلم تثر من الصخب
أكثر مما تثيره كلاب الريف كلما مر عابر سبيل .. وعندما وصلنا
الى الكوخ ألقينا نظرة على واجهته وجانبيه ، ثم على الجانب الذى
لم أكن أعرف شيئاً عنه .. أى الجانب الشمالى الذى كانت توجد
به نافذة مربعة عالية ، فى منتصفها لوح عريض من الخشب مثبت
بالمسامير .

فقلت : آه .. ان هذه النافذة كبيرة الى درجة يستطيع
« جيم » معها ان يتسلل منها اذا انتزعنا اللوح الخشبى .

فقال « توم » : ان هذه الخطة بسيطة غاية البساطة ، وسهلة
غاية السهولة .. نريد خطة أكثر تعقيدا من هذه يا « هاكلبرى » !
فقلت له : اذن نأتى بمنشار « نشر » به أحد الجوانب ونخرج
« جيم » منه .. فهذا هو ما فعلته أنا حينما حبسنى أبى فى
الكوخ الخشبى !

فقال : هذه الخطة أكثر غموضاً بعض الشيء .. ولكننى أريد
خطة أخرى مثيرة .. لا تتعجل .. دعنا نفكر فى خطة أخرى !!

ثم أسرعنا عائدين الى المنزل فدخلناه من الباب الخلفى ! وذهبنا الى غرفتنا واستغرقنا فى النوم .

واستيقظنا مع الفجر .. فذهبنا الى أكواخ الزنوج لنذاعب الكلاب ونتودد الى الزنجى الذى يطعم « جيم » - اذا صح أن « جيم » كان سجيناً فى هذا الكوخ - وكان الزنوج قد فرغوا من تناول طعامهم فى تلك الآونة وتهيأوا للذهاب الى الحقول . أما الزنجى الذى اعتقدنا انه هو الذى يطعم « جيم » ، فقد كان يوشك أن يحمل « طبقاً » كبيراً به خبز ولحم وأطعمة أخرى .

كان هذا الزنجى لطيف المعشر ، ضاحك الوجه .. وكان نوبه كله مملوءاً بعقد صغيرة من الخيط الرفيع لكى تطرد السحر عنه ! فقد كان يقول دائماً ان السحرة يطاردونه ويضايقونه ، حتى بات يرى أشياء غريبة ويسمع كلمات وضوضاء لم يسبق له بها عهد فى حياته ! وكثيراً ما حدثنا عن متاعبه ومشاكله وما جره عليه السحر من وبال .

وقال له « توم » :

- لمن هذا الطعام ؟ هل ستطعم الكلاب ؟

فابتسم الزنجى .. وقال :

- نعم أيها السيد « سيدنى » .. سأطعم كلباً ، ولكنه كلب

عجيب أيضاً .. هل تحب أن تراه ؟

- نعم .

وقرصت « توم » ، وهمست : هل سنذهب فى وضح النهار ؟

ليست هذه هى الخطة التى اتفقنا عليها .

- انها خطة جديدة !

وذهبنا مع الزنجى ، ولكنى لم أكن مرتاحاً لذلك .. وعند ما دخلنا لم نستطع أن نتبين شيئاً .. فقد كان الظلام يلف الكوخ

كله . . ولكنى رأيت «جيم» هناك . . . وكان فى استطاعة «جيم» أن يرانا فهتف قائلاً :

— يا الهى ، هذا « هاك » . . اليس هذا هو مستر « توم » ؟
وكنـت أعلم أن شيئاً كهذا سيحدث فلم أدر ماذا أفعل . . .
فقد قال الزنجى الحارس :

— يا للسماء ! هل تعرف هذين السيدين يا « جيم » ؟
وتطلع « توم » الى الزنجى الحارس بنظرة تاقبة وقال له :
— عنـن تتحدث ؟ من الشخص الذى تعنيه بحديثك هذا ؟
— الزنجى الهارب .

— انه لا يعرفنا . . ولكن ما الذى جعلك تعتقد انه يعرفنا ؟
— ما الذى جعلنى أعتقه ذلك ؟ ألم يقل الزنجى الآن ما يوحى
بانه يعرفكما ؟

— وهل تحدث الزنجى الهارب ؟ ومتى سمعته يتكلم ؟ وماذا
قال ؟

ثم نظر «توم» الى حيث أقف وقال : هل سمعت أحدا يتكلم ؟
بالطبع لم يكن هنا ما يقال غير شيء واحد ، فقلت :
— لا . . لم أسمع أحدا يقول شيئاً .
ثم نظر « توم » الى « جيم » وهو يتظاهر بأنه يراه للمرة
الأولى . . وقال له :
— هل تكلمت ؟

فقال « جيم » : لا يا سيدى . . لم أقل شيئاً .
— ألم تنطق بأية كلمة ؟
— لا . . لم أنطق بأية كلمة يا سيدى .
— هل سبق لك أن رايتنا من قبل ؟
— لا يا سيدى . . لا أتذكر أننى رايتكما من قبل . .

وعندئذ تحول « توم » الى الزنجى الحارس الذى كان بادى
الجزع والحيرة وقال له برفق :

— ماذا دهاك ؟ ما الذى جعلك تظن أن شخصا قد تكلم ؟
— أوه .. انه السحر اللعين يا سيدى .. ليتنى أموت حتى
أستريح من هذا العناء .. انه يزعجنى دائما على هذا النحو
يا سيدى ، ويكاد يقتلنى .. انه يفزعنى .. أرجو ألا تقولوا شيئا
لأحد يا سيدى والا أساء الى السيد سيلاس .. فهو يقول دائما
انه ليس هناك سحر ولا سحرة !!

وأعطاه توم قطعة من النقود ووعدته بأننا لن نذكر لأحد شيئا
عما حدث .. ثم نصح « توم » الزنجى الحارس بأن يشتري مزيدا
من الخيط يصنع منه مزيدا من العقد .. ثم تطلع الى « جيم »
وقال له .

— الحق انه زنجى ناكِر للجميل !! .. ترى ماذا سيفعل به
« العم سيلاس » !! .. ليتة يشنقه !! .. فلو اننى قبضت على
زنجى ناكِر للجميل كهذا الزنجى الهارب لما ترددت فى شنقه !!
وبينما كان الزنجى يخرج من الباب ليتأمل قطعة النقود
ويعرضها ليستوتق من انها ليست زائفة ، همس « توم » قائلا
لجيم :

— تظاهر بانك لا تعرفنا .. واذا سمعت صوت معول يحفر
الأرض بالقرب من الكوخ ، لا تجزع .. فسوف نحفر « سردابا »
نحررك عن طريقه !!

وضفط « جيم » على يدينا اعرابا عن شكره .. وفى تلك
اللحظة عاد الزنجى الحارس ، فقلنا له اننا نريد أن نأتى معه الى
الكوخ كلما ذهب اليه ، اذا سمح لنا بذلك ، فقال انه يود ذلك
وخاصة فى الليالى المظلمة ، لأن السحرة لا ينشطون الا فى الظلام ..
ولانه يريد أن يرافقه أحد حتى لا يدهمه السحر وهو وحيد !!

الفصل الخامس والتلاتون

خطة الهرب - خطط منظمة - الخندق والسرداب !

كان « توم » يريد أن يجعل من تحرير « جيم » الزنجى مغامرة مثيرة .. وفكر في أكثر من خطة ولكنه لم يرض عن واحدة منها .. كان يقول كلما بحثنا احدى الخطط :

- يا الهى .. انهما خطة غير مثيرة .. فليس هناك حارس نخدره ! .. وليس هناك كلب نقدم له جرعة منومة ! .. ان « جيم » ليس سجيناً بمعنى الكلمة .. فالقيد الحديدى الذى غلّوه به مثبت بأحد قوائم الفراش الحديدى الذى ينام عليه ، فاذا ما رفع الفراش وقع القيد .. وعدا ذلك ، فان « العم سيلاس » ياتمن الحارس الزنجى على مفتاح الكوخ ، ولا يرسل فى أثر هذا الحارس شخصا آخر يراقبه ! .. كذلك يستطيع « جيم » أن يهرب من الكوخ عن طريق النافذة متى شاء ! .. الحق ان هذا الكوخ ليس سجنًا ! .. ولذلك يجب علينا أن نخلق مزيدا من الصعاب حتى يصبح تحرير « جيم » مغامرة تستحق القيام بها .. هلم بنا نبحث عن شىء نصنع منه منشارا !

- ولماذا تريد أن نصنع منشارا ؟

— لماذا نريده؟! .. السنا مضطرين الى « نشر » قائم فراش
« جيم » حتى نخلصه من القيد الحديدي ؟
— ولكنك قلت منذ لحظة أن رفع الفراش بكفى لوقوع القيد
الحديدي على الأرض !

— يا لك من غبى يا « هاك » .. انك تريد تحرير « جيم »
بسهولة! .. ألم تقرا الكتب التى تروى قصص المغامرات ...
مغامرات السجناء الذين هربوا من السجون ؟. ان السجن الذى
يريد أن يهرب يفعل الأعاجيب! .. انه « ينشر » قوائم الفراش
ويبتلع « النشارة » الحديدية حتى لا يبقى لها أثر! .. ويصنع
سلما من الحبال يستخدمه فى التسلق والهبوط! .. ويتفق مع
رجال أشداء ينتظرونه فى الظلام ليضعوه فوق جواد ينطلق به
بعيدا على أثر هروبه! .. ولهذا يجب أن نحصل على منشار ،
وأن نصنع سلما من الحبال ! كذلك يجب أن نحفر خندقا حول
الكوخ !

— ولماذا نحفر خندقا حول الكوخ ما دمننا نستطيع أن نحرر
« جيم » عن طريق سرداب ضيق ؟
— انها مغامرة يا صديقى ! فلنجعلها مغامرة بمعنى الكلمة ...
والآن كيف نصنع سلما من الحبال يستخدمه « جيم » أثناء هروبه؟
— ولماذا نحتاج لمثل هذا السلم ؟

— اننا نحتاج لسلم من الحبال ، لأن جميع السجناء الذين تحدثت
عنهم كتب المغامرات استخدموا سلما من الحبال !
— ولكن « جيم » لا يحتاج الى سلم من الحبال ! .. ألم نتفق
على حفر سرداب يخرج من الكوخ عن طريقه ؟
— ومع ذلك ، فاننا نحتاج الى سلم من الحبال ! .. وفى مقدورنا
أن نمزق أغطية فراشنا لنصنع منها سلما نرسله لجيم داخل

« فطيرة » ! ... فهذه هى الطريقة التى تحدثت عنها كتب المغامرات .

— ولماذا كل هذا التعقيد يا « توم » ؟

— انك تجهل كل شىء عن المغامرات يا « هاك » ... اننا نريد أن نضع خطة منظمة ... وخير لك ان تقرأ كتب المغامرات قبل ان تتحدث .

— ما دام هذا هو ما يحدث دائما ، فاننى لا أمانع فى ذلك ... ولكننى أخشى أن تغضب الخالة « سالى » اذا نحن مزقنا أغطية فراشنا لنصنع منها سلما من الجبال ... ولهذا اعتقد انه من الخير لنا أن نحصل على سلم « جاهز » نخفيه داخل « فطيرة » كما تقول ...

— اصمت يا « هاك » ! انك جاهل ... هل سمعت ان سجيننا فى أحد سجون الدولة استخدم سلما « جاهزا » ؟ .. أنك تشرضحكى يا « هاك » ! ؟ ..

— اذن افعل ما تريد ... ولكننى ما زلت اوصيك بنجنب المشاكل ... لماذا لا « نستعير » أحد أغطية الفرائس المعلقة على جبل الفسيل ؟

— انها فكرة لا بأس بها ... وهى توحى الى بفكرة أخرى ... علينا أن « نستعير » قميصا أيضا !

— لماذا ... يا « توم » ؟

— ليكتب عليه « جيم » مذكراته .

— تعنى انك تريد أن يكتب « جيم » مذكرات على القميص ؟

— نعم

— ولكن « جيم » لا يعرف الكتابة !

— لنفرض انه لا يعرف الكتابة ... الا يستطيع أن يضع

علامات على القميص اذا صنعنا له قلما من ملعقة قديمة أو قطعة من الحديد ؟ !

— ولماذا لا نعطيه « ريشة » أوزة يتخذ منها قلما ؟ ... ان هذا أفضل وأسرع !

— ان السجناء لا يجدون الأوز في متناول أيديهم ، أيها الغبي !
... انهم يصنعون أقلامهم من أصلب وأقدم الشمعدانات النحاسية ! ... وقد يستغرق ذلك أسابيع وأسابيع وشهوراً وشهوراً ! ... انهم « يبردون » هذه الأقلام على الجدران ! ... لقد كان « ذو القناع الحديدي » يفعل ذلك دائماً ! !

— ولكن ماذا سيكتب « جيم » ؟

— يكتب أى شيء ... ان السجناء يكتب رسالة فوق طبق من النحاس يلقيه من النافذة ليعرف أعوانه أين هو !

— ولكن « جيم » لا يملك أى طبق من النحاس . . انهم يطعمونه فى « مقلاة » !

— على أية حال نستطيع أن نحصل على بعض الأطباق ! ...

ثم كف « توم » عن الكلام فقد سمعنا صوت البوق ينفخ ايذاناً بحلول موعد تناول العشاء

الفصل السادس والثلاثون

مجهود كبير - حفر السرداب -
(استعارة) أشياء - بين الكلاب !

عند ما اعتقدنا أن الجميع قد ناموا ، تسللنا الى الحظيرة وبدانا
نعمل ! ... رحنا نحفر بمديتين صغيرتين حتى انتصف الليل .
وشعرنا باعياء شديد ، والتهبت يدانا ، فقلت لصديقي « توم » :
- يبدو ان الحفر بالمديتين سوف يستغرق ثمانية وتلاتين عاما !
ولم يقل « توم » شيئا ... لقد تنهد وكف عن الحفر وراح
يفكر ! ...

ثم قال :

- لا فائدة يا « هاك » ... لقد التهبت يدانا ولن نستطيع ان
نمضي في العمل طويلا .
- وماذا نفعل يا « توم » ؟

- ليست هناك سوى طريقة واحدة ... هي ان نحفر السرداب
بالقؤوس ، ونتظاهر بأننا حفرناها بالمديتين الصغيرتين ! !
وأحضرنا فأسين رحنا نحفر بهما سردابا ... وظللنا نعمل
زهاء نصف ساعة ... ولم نعد قادرين على العمل فعدنا الى
المنزل .

وفي اليوم التالي « استعار » توم ملعقة من الصفيح وشمعدانا نحاسيا ليصنع منها أقلاما حديدية يكتب بها « جيم » الزنجي رسائله على أطباق من الصفيح ! ... أما أنا ، فقد رحنت أسمع حول أكواخ الزنوج وأترقب فرصة تسنح لى ! .. وحانت الفرصة فاستعرت ثلاثة أطباق من الصفيح قال « توم » أنها لا تكفى ! ولكنى قلت له ان أحدا لن يرى هذه الأطباق ، لأنها ستقع في حظيرة الكلاب أو بين الأعشاب عند ما يلقيها « جيم » من النافذة بعد أن يكتب عليها رسائله ! ... ومن ثم ، نستطيع أن نستعيدها مرة ثانية ونقدمها للزنجي الهارب ليستخدمها مرة أخرى ! ! ..

وأعجب « توم » بهذه الفكرة ... تم قال :
- المشكلة الآن ، هى كيف نرسل هذه الأشياء الى « جيم » ؟
فقلت له : عند ما نفرغ من حفر السرداب ، ندخل الكوخ ، ونعطيه هذه الأشياء .

فبدأت أمارات السخيرية على وجه « توم » ... وتمتم بعبارة معناها أننى أبله !

واستغرق فى التفكير ثم قال انه فكر فى وسيلتين أو ثلاث وسائل ، وانه يجب علينا أن نتصل بالزنجي الهارب « جيم » قبل اتخاذ القرار النهائى ! .

رئى تلك الليلة ، حملنا احداى الشموع ووقفنا تحت نافذة الكوخ الذى يوجد به « جيم » ورحنا نصيحخ السمع ، فطرق آذاننا صوت شخص « جيم » . وعندئذ دخلنا الحظيرة ورحنا نحفر من جديد ... وظللنا نحفر حوالى ساعتين ونصف ساعة . ثم تسللنا عبر السرداب الى الكوخ . وأوقدنا الشمعة ووقفنا نتأمل وجه « جيم » وهو نائم فى سكون وسلام ... وعندما أيقظناه ، استبد به السرور وكاد يبكى من الفرح . وراح يدللنا ويمطرننا بوابل من عبارات التدليل والشكر . ثم طلب اليانا أن نأتى بأزميل نقطع به

القيد الحديدي الذي يشده الى الفراش ، ولكن « توم » رفض الاستماع اليه بحجة أن ما يطلبه « عمل غير مشروع » ! ... ثم شرح للزنجي الهارب كيف أننا سنحرره ، ولكن في الوقت المناسب !!



وفي صباح اليوم التالي ، راح « توم » يقطع الشمعدان النحاسي ليجعل منه أقلاما حديدية ... ثم ذهبنا الى أكواخ الزنوج . وبينما انهمكت في حديث طويل مع الزنجي الحارس الذي يطعم « جيم » ، انتهز « توم » الفرصة ودس قطعة من الشمعدان في رغييف كان على صفحة الطعام الذي يقدم للزنجي الهارب « جيم » ! . وحمل الزنجي الحارس الطعام الى « جيم » ، وذهبنا معه . . وما أن بدأ « جيم » يقضم الرغييف بأسنانه حتى تعثرت أسنانه في قطعة النحاس ، فتظاهر بأنها حصاة ، وأخرجها من فمه وأخفاها . وعندئذ استبد السرور بصديقي « توم » . فقد أدرك أن « جيم » بدأ يفهم !!

وفجأة برز كلبان من تحت فراش « جيم » ! . ثم جاءت كلاب كثيرة أخرى بلغ عددها أحد عشر كلبا ! وأدركنا على الفور أننا لم نغلق باب الحظيرة بالأمس عند ما فرغنا من حفر السرداب ، وأن الكلاب جاءت الى الكوخ عن طريق هذا الباب !

وعند ما رأى الزنجي الحارس الذي يطعم « جيم » هذه الكلاب الكثيرة . صاح وركع على الأرض وراح يتأوه وهو يقول « السحرة ... السحرة ... انه السحر » ! ... ثم أغمض عينيه وراح يبكي . وتسلسل « جيم » الى خارج الكوخ وألقى قطعة من اللحم فاندفعت الكلاب في أثرها . . . وأغلق « توم » باب الحظيرة ثم عاد . . . وكان الزنجي الحارس لا يزال يبكي ، فحاول « توم » أن

يهذى من تأثرته ، وسأله عما حدث وعما اذا كان قد تخيل وجود أشياء تزعجه ، فقال الزنجى :

- يا سيدي ... لن تصدقنى لقد رأيت مليون كلب ... مليون شيطان ... انها سحرة ! ... سحرة ! ... ليتنى قبضت على واحد من هؤلاء السحرة !!

فقال له « توم » : لابد ان هذه الكلاب المسحورة جاءت فى نفس الوقت الذى يتناول فيه « جيم » طعامه ، لأنها جائعة ! ... انها جائعة ... فلماذا لا تعد لها « فطيرة » مسحورة ؟ نعم ... هذا هو ما يجب عليك أن تفعله !

فقال له الزنجى : ولكننى لا أعرف كيف أعد « فطيرة » مسحورة ! ...

فقال له « توم » : سأعدها لك بنفسى .

فقال الزنجى : ليتك تفعل ذلك ... هات قدميك أقبلهما !! فقال « توم » : سأعدها لك ... انك زنجى لطيف ... ولكن حذار أن تراقبنى وأنا أعد « الفطيرة » المسحورة ! ... وحذار أن تقول شيئاً اذا رأيتنى أضع فى « الفطيرة » أى شيء ! ... وحذار أن تنظر الى « جيم » وهو يأكل « الفطيرة » ! ... وحذار أن تلمس « الفطيرة » بيدك ! ! ..

فقال الزنجى : ألمسها بيدي ! ... كيف ألمسها بيدي ياسيدي؟ لن أنظر اليها ... ولن ألمسها ولو منحت مائة الف مليون دولار !!

الفصل السابع والثلاثون

القميص الأخير - البحث في كل
مكان - الفطيرة المسحورة !!

ذهبنا الى مخزن في الساحة الخلفية ، تضع فيه الأسرة مخلفاتها
القديمة كالأحذية البالية والملابس القديمة والزجاجات المهشمة
والأواني المحطمة . . وعثرنا على مقلاة قديمة من الصفيح ، فأغلقتها
ما بها من نقوب توطئة لاستخدامها في اعداد « الفطيرة المسحورة »
. تم ملأنا المقلاة بالدقيق

وعدنا الى المنزل لتناول طعام الافطار وانتهز « توم »
اقتراب « العم سيلاس » منه ، فوضع ملعقة قديمة في جيب
معطفه .

وانتظرنا « الحالة سالى » وعند ما جاءت ، كانت بادية
الغضب والضيق . واستقرت في مقعدها ، وصبت القهوة ،
وراحت تعبث برأس أقرب طفل اليها ثم قالت لزوجها :
- أين ذهب قميصك الآخر ؟ . . . لقد بحثت عنه في كل مكان ،
فلم أجده !

وغاص قلبى بين جنبى ، ووقف الطعام في حلقى ، فسعلت سعدة
قوية جعلت الطعام يتطاير من فمى . . . أما « توم » فقد اصفر
وجهه

وقال « العم سيلاس » :
- اننى فى حيرة ... اننى واثق من اننى خلعت هذا القميص
لأننى
فقالت « الخالة سالى » :

- لأنك ترتدى القميص الآخر ! ... اننى أيضا وانقة من انك
خلعته ... وواثقة من اننى علقتة على « جبل الفسيل » أمس .
فقد رأيته هناك ... ولكنه اختفى ! ... أين ذهب ؟ ...
لا أدرى ... لذلك سوف تضطر الى ارتداء « الفانلة » الحمراء
ريثما أصنع لك قميصا جديدا ... وسيكون هذا القميص الجديد
ثالث قميص أصنعه لك خلال ثلاث سنوات ! ... أين ذهب
القميص ؟ ... لماذا لا تحافظ على ملابسك ؟ !
فقال لها « العم سيلاس » :

- سأبذل قصارى جهدى للمحافظة على ملابسى ... ولكن
الخطأ ليس خطأى ! ... اننى لا شأن لى بهذه الملابس الا حينما
أرتديها .. ولنست أعتقد ان القميص اختفى حينما كنت أرتديه !!
- يا « سيلاس » ، ليس القميص وحده هو الذى اختفى ! ..
فقد اختفت ملعقة أيضا ! ... كان عندنا عشر ملاعق ؛ فأصبحت
تسعا ... واذا افترضنا أن « العجل » الصغير أكل القميص ،
فاننا لا نستطيع ان نفترض أنه أكل الملعقة أيضا !!
- وماذا اختفى أيضا ؟

- اختفت ست شموعات ! ... من المحتمل أن تكون الجرذان
قد أكلتها ... فلماذا لا تسد الشقوق التى تختفى فيها هذه
الجرذان اللعينة ؟

- اننى أعترف بخطأى يا « سالى » ... وأننى لأعدك بأن
أسد هذه الشقوق قبل أن تطلع شمس الغد !
- لست أرى مبررا للعجلة ! ...

ثم أقبلت خادمة زنجية لم تلبث أن قالت :
- لقد اختفى أحد أغطية الفراش يا سيدتى !
- اختفى غطاء ... يا الهى !!
فقال « العم سيلاس » وقد ارتسم الأسف على وجهه :
- سأسد هذه الشقوق اليوم .
فقالت « الخالة سالى » :
- وهل تظن أن الجرذان هى التى سرقت الغطاء ؟ ... أين
ذهب هذا الغطاء يا ليزا ؟
- لا أدرى يا سيدتى ... لقد كان « منشورا » على « حبل
الغسيل » أمس ... ولكنه اختفى !
- يا الهى ... قميص ... وغطاء فراش ... وست شموع
و
و
و

ثم أقبلت خادمة زنجية أخرى لم تلبث أن قالت :
- اختفى شمعدان نحاسى يا سيدتى !
فصاحت « الخالة سالى » :
- اختفى شمعدان نحاسى ؟ ! ... أغربى عن وجهى أيتها
الحمقاء ! ...
وجن حنون « الخالة سالى » ، وراحت ترغى وتزبد ، بينما
لاذ الجميع بالصمت ...
وراح « العم سيلاس » يعبث فى جيوب معطفه ، ولم يلبث أن
أخرج الملعقة التى كان « توم » قد دسها خفية فى جيبه ؛ فصاحت
« الخالة سالى » :
- هذا هو ما توقعته ... اذن فقد كانت الملعقة فى جيبك ! ..
فتش فى جيوبك ، عساك تجد الأشياء الأخرى !! ... ولكن بالله
كيف وجدت الملعقة طريقها الى جيبك ؟
فقال « العم سيلاس » :

— الواقع اننى لا أعرف يا « سالى » ... لقد كنت أقرأ
الاصحاح السابع عشر من الانجيل ؛ وأخنى أن أكون قد وضعت
الملقعة فى جيبى وأنا أحسبها الانجيل !.. فالانجيل ليس فى
جيبى !.. سأذهب الى حجرى لأبحث عن الانجيل .. فاذا
وجدته هناك ، سأؤكد من اننى لم أضعه فى جيبى .. وبذلك
يكون ما حدث هو اننى وضعت الملقعة فى جيبى وأنا أحسبها
الانجيل !..

ثم صرخت « الخالة سالى » :

— اذهبوا عنى جميعا .. دعونى أتدبر الأمر .. لا تعودوا الا
بعد أن تهدأ ثورتى ...

وأطعناها جميعا .. وقررت أنا و «توم» أن نسد الجحور
التي تحتفى فيها الجرذان !..

وبدأنا نعمل على الفور .. واستغرق عملنا ساعة كاملة ..
وسمعنا وقع أقدام تهبط الدرج ، فأطفأنا الشمعة التي كنا نعمل
على ضوءها فى « البدروم » واختبأنا .. ورأينا « العم سيلاس »
يدخل حاملا شمعدانا فى يده ! وكان شارد اللب .. وراح يبحث
عن جحور يسدها فلم يجد شيئا .. فاستدار على عقبه وسار
ببطء نحو الدرج وهو يقول :

— لست أتذكر متى أغلقت هذه الجحور !..

وارتقى الدرج وهو يتمتم ، فخرجنا من مخبأنا .. وكان «توم»
كسيف البال لأن « الملقعة » التي وضعها خفية فى جيب معطف
« العم سيلاس » اكتشفت قبل أن تصل الى « جيم » !!

واقبلت « الخالة سالى » فى الوقت الذي كان « توم » يعبث
فيه بسلة الملاعق !.. فراح يعدها : وإنتهزت الفرصة فأخفيت
ملقعة فى « كم » سترتى !.. وقال توم :

— ما هذا يا خالتي « سالى » ؟... ان عدد الملاعق لا يزال
تسعا !

فقلت له :

— لا تضايقنى يا « سيدنى » .. انها عشر ملاعق .. لقد
عددتها بنفسى .

— ولكنها تسع يا خالتي !.. انها تسع .

فبدا عليها الضيق وراحت تعد الملاعق ، ثم هتفت :

— يا الهى .. انها تسع ملاعق .. ما معنى هذا ؟.. سأعدها
ثانية .

وبادرت بالقاء الملعقة فى السلة خلصة . وأحصت « الخالة
سالى » الملاعق ثم قالت :

— يا الهى .. انها عشر الآن !

وبدا عليها الاضطراب والحيرة فقال لها « توم » :

— انها تسع يا خالتي ..

— قلت لك انها عشر .. عشر ملاعق .

— لا بل تسع ملاعق

وبادرت فأخفيت ملعقة ؛ وراحت « الخالة سالى » تعد الملاعق
فوجدتها تسعا .. وعندئذ ارتعدت أوصالها .. ومضت تعدها
مرة وأخرى وثالثة !.. وكنت أعمد الى حيلة اخفاء احدى الملاعق
واعادتها كل مرة .. فكانت النتيجة عجيبة !.. لقد أحصت
« الخالة سالى » الملاعق ست مرات .. فبلغ عددها عشر ملاعق
فى ثلاث مرات ، وتسع ملاعق فى المرات الثلاث الأخرى !..
وثارت ثائرة « الخالة سالى » فألقت بالسلة على الأرض وهى
تصرخ :

— اغربا عن وجهى .. اثربا عن وجهى !

وانصرفنا على الفور .. وبادرنا باعادة غطاء الفراش ووضع

فوق « جبل الفسيل » . . ثم « استعرنا » غطاء آخر من غرفة
نوم « الحالة سالى » . . وظللنا نعيد الغطاء الى مكانه ثم نستعيره
ثانية يومين متعاقبين ، فانهارت ثقة « الحالة سالى » فى نفسها
ولم تعد تدرى كم يبلغ عدد اغطية الفراش . . واذا تولاهما هذا
الارتباك ، كفت عن ازعاج نفسها بهذا الأمر مرة أخرى !! . .



وهكذا حصلنا على كل شيء . . على القميص والغطاء والملعقة
والشموع . . ولم يعد يقلقنا الا صنع « الفطيرة المسحورة » ! . .
وأخيرا أعددنا « الفطيرة المسحورة » فى الغابة . وقطعنا غطاء
الفراش وصنعنا منه جبلا على شكل سلم . وحاولنا أن نخفى
السلم المصنوع من جبال الغطاء داخل « الفطيرة » فلم نستطع . .
فقد كان الجبل كبيرا . ومن ثم قنعنا بجزء صغير منه أخفيناها
داخل « الفطيرة » !

وعند ما حمل الزنجى الحارس الذى يطعم « جيم » الفطيرة
المسحورة لم يتحسسها أو يعيث بها . . . وكنا قد أخفينا ثلاثة
أطباق من الصفيح تحت المقلاة ، فحمل الزنجى كل شيء الى
« جيم » . . وهكذا حصل « جيم » على كل شيء . . وعندما
تركه الزنجى ، شطر « الفطيرة » الى شطرين ، وأخرج منها السلم
المصنوع من الجبال . . وراح ينقش بعض العلامات فوق طبق
من الأطباق الثلاثة ، ثم قذف به من النافذة كما قلنا له !!

الفصل الثامن والثلاثون

عبارة حزينة - النقش على
الجدار - حجر الطاحونة .

كان صنع الأقلام الحديدية والمنشار عملية شاقة ، ولكننا كنا مضطرين الى صنعها !.. فقد قال «توم» ان ذلك أمر ضرورى !.
قال « توم » :

- لابد من الأقلام .. فكل سجين ينقش عبارة ما على جدران سجنه .. عبارة ما !

وأنهمك « توم » فى تأليف عدة عبارات ، سجلها على رقعة من الورق .. وقرأ لى هذه العبارات ، فاذا بها تقول :

- ١ - هنا تمزق قلب سجين أسير !
 - ٢ - هنا قضى سجين تعس ، نبذه العالم والأصدقاء !
 - ٣ - هنا تحطم قلب سجين تعس ، وانطلقت روحه المعذبة بعد سبعة وثلاثين عاما فى السجن الانفرادى !!
 - ٤ - هنا مات نبيل غريب لا وطن له ولا أصدقاء ، بعد سبعة عشر عاما قضاها سجيننا .. هنا مات الابن الشرعى للملك لويس السادس عشر !!
- وكان صوت « توم » يرتعش كلما نطق بهذه العبارات ...

وعدنا الى المنزل قبل ان يقع اختيارنا على العبارة التى يجب ان يسجلها « جيم » فوق الجدار !... .

وكانت المشكلة هى ان « جيم » لا يعرف القراءة ولا الكتابة .. ولكن « توم » صمم على رأيه ، فقررنا ان نحمل « جيم » على « نقش » العبارة التى يقع عليها الاختيار ، بمسار حديدى فقلت لتوم :

ـ ولكن « نقش » هذه العبارة على الجدار سوف يستغرق وقتا طويلا وأخشى ان يطول الوقت ويطول ، فلا يخرج « جيم » من سجنه أبدا !

وفكر « توم » لحظة ثم قال :

ـ ولقد نسينا ان جدران الكوخ مصنوعة من الخشب لا الصخر .. . وبذلك لن يستطيع « جيم » ان ينقش العبارة التى نختارها له على أى جدار ! ! ثم قال :

ـ ولكنى وجدت حلا للمشكلة .. . سوف أحصل على قطعة من الصخر ننقش عليها هذه العبارة سوف نخلع حجر الطاحونة وننقش عليه العبارة التى يقع عليها اختيارنا !... . ولم تكن هذه الفكرة صائبة .. . فقررنا البحث عن حل آخر ! وعدنا الى المنزل .. . وتسللنا الى حجرتنا ، ولم نلبث ان استغرقنا فى النوم .. .

الفصل التاسع والثلاثون

الجرذان - خطابات مجهولة - الفرع .

فرغنا من اعداد خطتنا النهائية ... أصر « توم » على أن نضع في الكوخ الذي يوجد به « جيم » بعض الجرذان . . فالسجون تحفل بالجرذان دائما . . . واشترينا «مصيدة» جرذان من السلك ، حملناها الى المنزل . وفتحنا أحد الجحور التي كنا قد أغلقناها . ووضعنا «المصيدة» أمام الحجر . . وبعد ساعة ، كانت «المصيدة» قد امتلأت بخمسة عشر فأرا كبيرا . . . فنقلنا « المصيدة » الى مكان أمين تحت فراش « الخالة سالى » . . . وعشر « توماس فرانكلين بنجامين جيفرسون الكسندر فيلبس » ابن السيد « سيلاس » - وهذا هو اسمه الكامل - على « المصيدة » ، ففتحتها ، فانطلقت الجرذان منها . . . وفي نفس الوقت الذى انطلقت فيه الجرذان من « المصيدة » ، دخلت « الخالة سالى » الغرفة . وعندما عدنا رأيناها واقفة فوق الفراش وهى تصيح بأعلى صوتها ، فقد كانت الجرذان تتواتب هنا وهناك ! . . . وما أن رأنا « الخالة سالى » حتى أمطرتنا بوابل من اللوم والتأنيب ، فرحنا نقتنص الجرذان واحدا

فى اثر الآخر حتى عثرنا عليها جميعا بعد عمل متواصل استغرق
حوالى الساعتين !! .

وحملنا بعض الجرذان الى كوخ « جيم » . . . ونقلنا حجر
الطاحون اليه أيضا ، فامتأ الكوخ بهذه الأشياء ، وأصبح « جيم »
المسكين لا يجد مكانا ينام فيه !! . فقد كانت الجرذان تلاحقه
وتطارده وتتراقص على فراشه !! .

ثم أرسلنا القميص الى « جيم » داخل « فطيرة » ؛ وطلبنا
اليه أن يكتب عليه ما يشاء بالدم الذى يقطر من الجروح التى
أحدثتها الجرذان بجسمه !! . ونقش « توم » على حجر الطاحونة
العبارة التى اخترناها له . . وكنا سعيدين ، فقد كانت الخطوة
تنفذ بحذافيرها !! .



وبعث « العم سيلاس » برسالتين الى « مزرعة أورليانز »
طلب فيهما الى « الأنسة واطسون » أن تحضر لأخذ الزنجى
الهارب « جيم » ، ولكنه لم يتلق رداً لأنه لم تكن هناك مزرعة
تحمل اسم « مزرعة نيواورليانز » ! وأخيرا قرر « العم سيلاس »
أن يعلن عن بيع « جيم » فى صحف « سانت لويس »
و « نيواورليانز » . . وما أن سمعنا ذلك حتى سرت الرعدة فى
أوصالنا . .

وقال لى « توم » :

— لا تخش شيئا . . سوف ألبأ الى الخطابات المجهولة !!
فقلت له :

— الخطابات المجهولة ؟ ! . . . ما معناها .

— انها تحذير للقوم هنا بأن كارثة توشك أن تحل بهم . . .
لقد تحدثت كل كتب المغامرات عن أمثال هذه الخطابات !! .

فهذه الخطابات تدخل الفزع في قلوب الناس ، فيبقون في منازلهم
أثناء هروب السجين !!

وانهمك « توم » في اعداد خطاب جاء فيه :
« احذروا .. ان المتاعب على الأبواب .. كونوا يقظين »
الصديق المجهول ..

وأخذت الخطاب وقذفت به من « تحت الباب » !.. وفي
الليلة التالية ، رسمنا صورة جمجمة وعظمتين متقاطعتين على
الباب الأمامي .. وفي الليلة التالية رسمنا صورة « تابوت » ..
وهكذا ركب الفزع الأسرة كلها !..

وقررت الأسرة أن تضع عند كل باب زنجيا يراقب هذا الباب
طيلة الليل ..

وكنا قد قررنا أن ننفذ خطتنا في فجر اليوم التالي ، فاعد
« توم » خطابا ؛ ثم تسلق السياج ، والصق الخطاب على الباب ..
وكان الخطاب يقول :

« اننى صديق لكم .. هناك عصابة من السفاكين تحاول أن
تسرق الزنجى الهارب الليلة ... لقد حاولت العصابة ادخال
الفزع في قلوبكم لنظلو داخل المنزل فيسهل عليهم ارتكاب
جريمتهم .. اننى أحد أفراد هذه العصابة ، ولكننى رجل متدين
أريد الانفصال عن العصابة لكى أستأنف حياة شريفة ... سوف
يتسلل أفراد العصابة من الناحية الشمالية ، ويتسلقون السياج
عند منتصف الليل .. وسوف يستخدمون مفتاحا زائفا للدخول
الكوخ الذى يوجد به الزنجى الهارب .. سأطلق لكم صوتا أشبه
بالمواء حينما تهم العصابة بدخول الكوخ .. وحينما تنهمك
العصابة فى فك قيود الزنجى ، تستطيعون أن تتسللوا الى الكوخ
للقبض على أفراد هذه العصابة .. لست أبغى من وراء ذلك
الحصول على أية مكافأة ... »

الفصل الأربعون

صيد السمك - مطاردة عنيفة -
(جيم) يصمم على استدعاء الطبيب .

كانت روحنا المعنوية مرتفعة في الصباح ، فركبنا القارب ورحنا نصيد السمك !.. وقضينا وقتا طيبا .. ثم ذهبنا الى حيث تركت « العائمة » فوجدناها في مكانها .. وعندما عدنا الى المنزل مساء ، ألفينا الجميع خائفين مذعورين ترتعد فرائصهم وأوصالهم !.. وما أن فرغنا من تناول طعام العشاء حتى طلبت الينا « الخالة سالى » أن نأوى الى الفراش !..

وصعدنا الدرج ، في طريقنا الى حجرة النوم .. وما أن غابت « الخالة سالى » عن أنظارنا ، حتى تسللنا الى « البدروم » ، وحملنا كمية لا بأس بها من الطعام الى غرفتنا .. فقد كنا نزمع اطلاق سراح « جيم » فى تلك الليلة والهرب على الفور !..

وآوينا الى الفراش ، ثم استيقظنا حوالى الساعة الحادية عشرة .. وسألنى « توم » :

- أين الزبد الذى أحضرناه من « البدروم » ؟

- لا أدري ... أليس هنا ؟

- لا ...

— لماذا تصر عليه ؟

— لا بد من الحصول عليه يا « هاك » .. تسلل الى « البدروم »
واحضر كمية من الزبد ..

وذهبت الى « البدروم » بينما تسلل « توم » الى الخارج ..
وهناك فى « البدروم » وجدت قطعة من الزبد فى حجم قبضة
اليدين قد نسيتهما فوق قطعة من الخبز ، فالتقطت قطعة الخبز
المحملة بالزبد وحملتها ورحلت أرتقى الدرج الخشبي .. وما أن
بلغت الطابق الأرضي حتى رأيت « الحالة سالى » مقبلة وفى يدها
شمعة .. فوضعت قطعة الخبز بما فوقها من زبد تحت قبعتى ..
وواجهت الحالة سالى ...

قالت لى :

— هل كنت فى « البدروم » ؟

— نعم .. يا سيدتى ..

— وماذا كنت تفعل هناك ؟

— لا شئ يا سيدتى .

— لماذا أنت هنا فى هذا الوقت المتأخر من الليل ؟

— لا أدري يا سيدتى ..

— لا تدري؟! .. لا تجبنى بهذا الأسلوب يا « توم » .. ماذا

كنت تفعل فى « البدروم » ؟

— لم أكن أفعل شيئاً يا سيدتى ...

وتوقعت أن تدعنى أمضى فى سبيلى كما عودتسنا ، ولكنها
لم تفعل ؛ فقد بدت على وجهها أمارات الخوف والفرع وقالت
بلهجة حازمة قوية :

— اذهب الى غرفة الجلوس ... وابق هناك ريثما أعود اليك

... ولن تغفل من يدي الا اذا رويت لى الحقيقة كاملة! ..

وذهبت الى غرفة الجلوس .. ولشد ما كانت دهشتى حينما

ألفيتها مزدحمة بالناس .. رأيت خمسة عشر فلاحا يحمل كل واحد منهم بندقية .. فغاص قلبى بين جنبى .. كانوا جميعا يتهامسون .. وكانوا فزعين مضطربين ، ولكنهم كانوا يتظاهرون بأنهم ليسوا كذلك ! .. وتولانى فزع شديد ، و تمنيت أن تأتى « الخالة سالى » وتضربنى أن شاءت ثم تدعنى أذهب إلى حيث يوجد « توم » لأحذره من نتائج مغامراته ، ولنطلق سراح « جيم » ونهرب قبل أن ينفد صبر المتربصين فى غرفة الجلوس !!

وأخيرا جاءت « الخالة سالى » ، وراحت تطرنى وابلا من الأسئلة ، ولكنى لم أستطع أن أجيب على أسئلتها ! ... ومضت « الخالة سالى » تسألنى وأنا أنتفض من قمة رأسى إلى أخمص قدمى وقد تملكنى فزع عظيم .. وكانت حرارة الغرفة نشتد ، فبدأ الزبد يدوب ويسيل فوق عنقى وخلف أذنى وفوق جبهتى ! ورأت « الخالة سالى » قطرات الزبد ، فاصفر لونها وصاحت .
- بحق السماء ، ان هذا الغلام مصاب بحمى مخية ! ... ان مخه يسيل ! ...

كان الفلاحون المتجمعون فى الغرفة يريدون أن يتسللوا الى الكوخ ليقبضوا على العصابة المزعومة ... وكانوا قد تهيأوا لذلك بالفعل ... ولكنهم جمدوا فى أماكنهم عند ما صرخت « الخالة سالى » ... وسرعان ما التفوا حولى ليستطلعوا جلية الأمر . ومدت « الخالة سالى » يدها ونزعت قبعتى فسقطت قطعة الخبز وما تبقى فوقها من زبد ! ... وجذبتنى إليها وضمتنى إلى صدرها وهى تقول :

- لقد أفزعتنى ! لشد ما أنا مسرورة ! ... لقد كنت أظن أن مخك يسيل ! ... لماذا لم تقل لى انك ذهبت الى « البدروم » للحصول على قطعة من الخبز وبعض الزبد ؟ ... اذهب الى فراشك ولا تدعنى أشهد وجهك الا صباح الغد ! ...

وفى لمح البصر ، صعدت الى الطابق العلوى ، ثم تسلقت مانعة الصواعق الى الساحة ، واندفعت فى الظلام حتى بلغت الحظيرة . . .
ورحت أروى لصديقى « توم سوهر » كل ما حدث . . . وقلت له ان الوقت ضيق جدا وانه يحسن بنا ان نرحل قبل أن يدهمنا الرجال المسلحون . . .

فومضت عينا « توم » ثم قال :

— لا تخش شيئا . . .

فقلت له :

— اسرع يا « توم » . . اسرع يا « توم » . . . أين « جيم »
— الى جوارك مباشرة ! . . . انه مستعد . . . ولكن هلم بنا نطلق المواء الذى تحدثنا عنه فى الخطاب !!

وفجأة سمعنا وقع أقدام رجال مقبلين نحو الباب . . .
وسمعناهم يتحسسون موضع القفل . . . ثم سمعنا رجلا يقول :

— قلت لكم اننا سنسبقهم . . . فهاهم لم يحضروا بعد . . .
ان الباب لا يزال مغلقا بالمفتاح . . . تعالوا بنا نختبئ لهم داخل الكوخ . . . وليبق بعضنا خارج الكوخ فى انتظار العصاة ! . .

ودخلوا الكوخ . . . ولم يستطيعوا رؤيتنا بسبب الظلام . . .
فبادرنا بالتسلل الى الخارج عبر السرداب . . .

وتعثر « توم » فى أحد الأغصان عند السياج فتحطم الفصن وأحدث صوتا مكتوما . . . وكنا فى تلك اللحظة قد هبطنا من فوق السياج . . . وسمعنا رجلا يقول :

— من هناك ؟ . . . أجب والا أطلقنا النار !

ولم نجب . . . أطلقنا سيقاننا للريح . . . وفجأة دوى فى الفضاء صوت ثلاث طلقات . . .

تم سمعنا الرجال يقولون :

— لقد انطلقوا الى النهر . . . اتبعوهم . . . أطلقوا الكلاب ! . .

وانطلقوا فى اثرنا . . . وعند ما بلغنا المكان الذى توجد به
« الطاحونة » اختبأنا بين الأعشاب الكثيفة . . . وأقبلت الكلاب
فلم تعبأ بنا لأنها كانت تعرفنا . . . وعندما ابتعد الرجال المسلحون ،
خرجنا من مخبئنا وأطلقنا سيقاننا للريح مرة أخرى . . . ورحلنا
نجرى حتى بلغنا المكان الذى أخفينا فيه القارب ، فأطلقناه ورحلنا
نقطع الماء حتى بلغنا الجزيرة التى أخفينا فيها « العائمة » . . .

وعند ما سعدنا الى العائمة قلت للزنجى « جيم » :

— ها قد أصبحت حراً مرة أخرى يا « جيم » . . . لن نصبح
عبداً رقيقاً بعد الآن ! . . .

فقال « توم » :

— الحق اننى سعيد جداً . . . لقد نفذنا الخطة على خير وجه . .
وكنا جميعاً مسرورين . . . وكان « توم » أكثرنا سعادة ، لأنه
— كما قال — أصيب برصاصة فى « كعب » رجله !!

وعند ما سمعت أنا و « جيم » ذلك ، تبدد سرورنا . . . فقد
بدأ « توم » يتلوى من الألم ، وراح الدم يندفق من الجرح . .
وكان لابد أن نكف عن التجديف لنعتنى بالصبي الجريح . . .
فضممنا الجرح . . . وحاول « توم » أن يحملنا على التجديف وتركه
وتسأنه ، ولكننا رفضنا . . .

قال « جيم » :

— لقد أصيب « توم » بهذا الجرح بسببى . . . ولهذا لن أنتقل
من هذا المكان قبل استدعاء طبيب يفحص « توم » . . . لن أبرح
هذا المكان مهما حدث من أمر . . . حتى لو أدى الأمر الى سجنى
أربعين عاماً !!! . . .

لقد كان « جيم » زنجياً طيب القلب . . . فاطمأن قلبى وقلت
له اننى ذاهب للبحث عن طبيب . . . فثار « توم » ، ولكننا

صممنا على ذلك . وحاول « توم » أن يطلق العائمة ولكننا لم ندع له فرصة !

وعند ما رآنى « توم » استقل الزورق ، قال :
— ما دمت مصمما على استدعاء طبيب ، فمن الخير لك عند ما تصل الى القرية أن تعصب عينى الطبيب ، وأن تضع فى يده كيسا مملوءا بالذهب وأن تقوده الى هنا فى الظلام حتى لا يعرف الطريق !! .
مسكين « توم » . . . انه مفتون بالمغامرات ! . . . ووعدته بأن أنفذ تعليماته ، تم انصرفت بعد أن اتفقنا على أن يختبئ « جيم » فى الغابات حتى لا يراه الطبيب ! ! . . .

الفصل الحادى والدرباره

الطبيب - العم سيلاس -
الخالة سالى قلقة

كان الطبيب كهلا لطيف المعشر طيب القلب . . . استقبلنى بوجه بشوش . . . ورحت أروى له القصة ، فقلت له اننى وأخى كنا نسطاد السمك فى احدى الجزر ، وعسكرنا فوق عائمة صغيرة عثرنا عليها هناك . . . ورأى أخى أثناء نومه حلما مفزعا فارتعشت أوصاله ، واصطدمت ساقه بالبندقية وهو نائم فانطلقت وأصابته الرصاصة « كعب » قدمه ! . . . ثم طابت اليه الذهاب الى العائمة ، وان يلوذ بالصمت حتى لا يعرف « الجميع » ما حدث !! فقال الطبيب :

- ومن هم هؤلاء « الجميع » ؟
- أسرة « فيلبس » .
- كيف أصيب الغلام ؟
- قلت لك كان يحلم . . وانطلقت البندقية ، فأصابته . . .
- ياله من حلم غريب !
- واعد الطبيب حقيبتته وتبعنى . . . وما أن رأى الزورق حتى تولاه الخوف . . . كان الزورق صغيرا لا يتسع الا لشخص واحد .

فقلت له :

— لا تخش شيئا بأسبدي . . ان الزورق . . . واحدة . . .
لأكثر من شخص واحد . . . لقد اتسع لثلاثتنا . . .
— ثلاثتكم ؟ !

— نعم أنا و « سيدنى » أخى . . . و . . . و البديلة ! . . .
هذا ما أعنيه .
— آه ! . . .

وأخذ يهز الزورق بقدمه ثم قال انه يفضل الحصول على زورق
آخر . . . وكانت الزوارق كلها منسدودة بالسلاسل فلم يستطع
ان نفك واحدا منها . . . وعندئذ قال الطبيب :

— هات هذا الزورق . . . سأذهب الى الغلام الجريح . . .
. . . لا تبرح هذا المكان يا غلام ! . . .

واستقل الزورق ومضى به الى حيث اشرت له بىدى . . .
وغلبنى النوم ، فنامت . . . وحينما استيقظت من النوم نازت
الشمس قد توسطت كبد السماء ، فأسرعت الى منزل الطبيب .
ولكن خادمه قال لى انه خرج ليلا ولم يعد بعد . . .
الخوف . . .

ومضيت فى طريقى الى النهر ، ولكننى ما كنت اذنى الى احد
المنعطفات حتى اصطدمت بالعم « سيلاس » . . .

قال لى « العم سيلاس » :

— أهذا أنت يا « توم » ؟ . . . أين كنت طوال هذا الوقت أيها
الغلام الشرير ؟

— كنت أبحث عن الزنجى الهارب . . . أنا و « سيدنى » . . .

— والى أين ذهبتما ؟ ان خالتكما تنتظركما فى قلق !

— ولماذا تقلق ؟ اننا بخير . . . لقد ففونا اثر الرجال والكلاب .
ولكننا لم نستطع اللحاق بهم . . . واعتقدنا انهم توجهوا الى

النهر ، فحصلنا على قارب للحاق بهم ... وعبرنا النهر ولكننا لم نعر لهم على أثر ... ومن ثم ، رحنا نستكشف النهر حتى انتابنا الاعياء ، فربطنا القارب ونمنا ولم نستيقظ الا منذ حوالى ساعة ! ... فجئنا الى هنا بالقارب ... ثم ذهب « سيدنى » الى مكتب البريد ليبحث عن رسائل !! ...

وذهبنا الى مكتب البريد ولكننا لم نجد « سيدنى » لأنه لم يكن هناك ! .. ولكننا وجدنا رسالة للعم « سيلاس » ؛ فضاها وفرأها ثم قال :

— تعال بنا نذهب الى المنزل ... فسيعود « سيدنى » بعد أن يفرغ من عينه ! ..

وعند ما عدنا الى المنزل ، وجدنا « الحالة سالى » مضطربة جدا ... كانت تضحك وتبكي فى آن واحد ! ... احتضنتنى بحنان ثم ضربتنى برفق ... وقالت انها سوف تؤدب « سيدنى » عند ما يعود ! !

وكان المنزل مزدحما بالفلاحين وزوجاتهم ... وكانوا يثرثرون بلا انقطاع ... كانوا جميعا يتحدثون عن الزنجى الهارب ، والعبارات المنقوشة على حجر الطاحون ، ويقولون أن الزنجى مجنون ! ! ... وتحدثوا عن السلم المصنوع من الحبال والمنشار والجرذان وكل ما وجدوه فى الكوخ ... ثم تحدثوا عن القميص المسروق وغطاء الفراش والنسموع والشمعدان والمقلاة القديمة ... كانوا فزعين خائفين ...

ومر الوقت سريعا ، وأقبل الليل ، فقالت « الحالة سالى » :
— يا الهى ... لقد أوشك الليل على الانصرام ، ولم يصد سيدنى ... ترى ماذا حدث له ! ؟
فقلت لها :

— أستطيع ان أذهب الى المدينة لأعود به !

— لا . . . لن تفعل ذلك . . . ستبقى حيث أنت . . . اذا لم يعد « سيدنى » قبل حلول موعد العشاء ، سيذهب « سيلاس » للبحث عنه ! . . .

وحل موعد العشاء . . . وذهب « العم سيلاس » الى المدينة ليبحث عن « توم » . . . ثم عاد بعد ذلك كسيف البال . . . وراح يهدىء من ثائرة « الخالة سالى » قائلا لها ان « سيدنى » غلام عابث وانه لابد سيعود مع الصباح . . .

وعندما صعدت الى غرفة النوم ، صعدت « الخالة سالى » معى وراحت تحدثنى وتتودد الى . . . تم امتدحت « سيدنى » وأطرته . . . وراحت تسألنى عما حدث . وقالت انها تخشى أن يكون قد أصابه ميكروه . . . ثم انهمرت الدموع من عينيها . . . وقلت لها ان « سيدنى » بخير وانه سيعود فى الصباح بدون شك . . .

وأخيرا قبلتنى وتركتنى أنام !
ونمت نوما متقطعا . . . وحاولت التسلل الى الخارج ثلاث مرات ولكننى كنت أعود كلما رأيت « الخالة سالى » جالسة أمام غرفة نومها والدموع تنحدر فوق خديها . . .

الفصل الثانی والأربعون

((توم سوير)) جريح - قصة الطبيب
- صنيع طبيب جسيم - ((توم))
يعترف - وصول ((الخالة بولي))

ذهب « العم سيلاس » مرة ثانية الى المدينة قبل تناول طعام الافطار ، ولكنه لم يعثر على « توم » فعاد الى المنزل . وجلس الزوجان الى المائدة وقد استغرفا في التفكير . . . وبعد فترة قصيرة من الوقت قال العم سيلاس للخالة « سالى » :

- هل أعطيتك الرسالة التي تلقيتها ؟

- أية رسالة تعنى ؟

- الرسالة التي تسلمتها أمس من مكتب البريد .

- لا . . .

- لابد أنني نسيت .

وبحث الرجل في جيوبه عن الرسالة ولكنه لم يجدها ، وذهب الى حيث وضعها ، ثم عاد ، وقدمها لزوجته وهو يقول :

- انها من « سانت بينرسيبورج » . . . من أختك !

وأمسكت « الخالة سالى » بالرسالة ؛ ولكن الرسالة سقطت منها على الأرض قبل أن تفض غلافها . . . سقطت الرسالة لأن يد « الخالة سالى » تراخت وارتعشت . . . فقد رأت - كما رأت أنا - « توم سوير » محمولا على « نقالة » ، ومن ورائه الطبيب الكهل ، والزنجى الهارب « جيم » ممشودا الى الأغلال والقيود ، وجمهرة من الناس ! . . .

وبادرت بالتقاط الرسالة ، والتسلل الى الخارج ! ... اما
« الحالة سالى » ، فقد ألقت بنفسها فوق « توم » وهى تصرخ
قائلة :

— أواه ... لقد مات ... نعم مات ... لقد كنت أعرف
أنه مات ! ..

ولكن « توم » لم يلبث أن استدار نحوها وراح يتمتم بطريقة
توحى بأنه يهذى ، فرفعت « الحالة سالى » يديها نحو السماء
وهتفت :

— الحمد لله ... انه ما زال حيا ... الحمد لله ...
ثم انحنت فوقه وطبعت قبلة على شفتيه ... وهرولت الى
المنزل لتعد له فراشا وثيرا .

وسرت وراء الرجال لأرى ما سيفعلون بالزنجى المسكين
« جيم » ... وكان بعض الرجال ثائرين ، فحاولوا الاعتداء على
« جيم » وشنقه ليكون عبرة لغيره من الزنوج ، ولكن البعض الآخر
نهاهم عن ذلك قائلا لهم ان « جيم » ليس أحد زنوجهم وأن
صاحبه سيأتى يوما من الأيام لاستعادته ! وهكذا هدأت العاصفة
... فأولئك الذين بتحمسون لشنق أحد الزنوج هم دائما أول
الأشخاص الذين يتراجعون عند ما يطلب اليهم دفع ثمن الزنجى !
ولكن « جيم » لم يسلم من الأذى ... فقد ضربوه وركلوه
وقادوه الى الكوخ ، وشدوا وثاقه ، وقيدوا رجليه وقدميه ،
وأقسموا ألا يتناول من الطعام الا الخبز والماء القراح ، وقرروا أن
يظل سجيننا حتى يأتى صاحبه لاستلامه أو يباع بالمزاد ! ...
وبعد فترة قصيرة من الوقت أقبل الطبيب وألقى نظرة على
الكوخ والزنجى السجين .. ثم قال :

— لا تقسوا على هذا الزنجى .. انه زنجى طيب .. فعندما
ذهبت الى العائمة لرؤية الصبى الجريح ، كان هذا الصبى نائرا ..

لقد تهددنى بالقتل اذا انا حاولت أن أفعل شيئاً! .. وكان لابد أن يساعدنى أحد ، فظهر هذا الزنجى فجأة وراح يساعدنى! ..
ساعدنى كثيرا .. وكنت أعرف انه الزنجى الهارب فاضطرت الى قضاء الليلة فوق العائمة حتى لا يهرب .. والحق أن هذا الزنجى طيب ومخلص .. لقد أبى أن يهرب وصمم على ملازمنى لمساعدة الصبى الجريح .. انه زنجى أمين أبها السادة .. انه يساوى ألف دولار .. فلولاه لما تحسنت حالة الصبى الجريح ..
أيها السادة لا تقسوا عليه!

وأحببت هذا الطبيب لما أداه من صنيع جميل للزنجى « جيم » .. وفرحت لأن « جيم » برهن على وفائه واخلاصه .
وسرعان ما بدأ الرجال الشائرون يعطفون على « جيم » ، فوعدوا الطبيب بالأى يقسوا عليه .

وعاد الجميع الى المنزل ، فعدت معهم . وبدأت أفكر فى قصة أروبيها للخالة سالى اذا سألتنى ولماذا أخفيت عنها ما حدث لتوم .. ولكن « العمة سالى » لم تسألنى لأنها كانت تقضى كل وقتها مع « توم » فى حجرته! ..

* * *

وفى صباح اليوم التالى ، سمعت أن صحة « توم » تحسنت ، وأن « الخالة سالى » تركت غرفته لتتعالج قسطاً من الراحة والنوم ، فتسللت الى حجرة « توم » ، وأنا أزمع أن اتفق معه على قصة نروبيها لنبرر بهما ما حدث .. ولكن « توم » كان مستغرقاً فى النوم . فجلست قبالة أترقب استيقاظه .. وبعد حوالى نصف ساعة أقبلت « الخالة سالى » وجلست الى جوارى وهمست فى أذنى قائلة :

« فلنبتهل الى الله أن يشفيه .. الحمد لله .. انه مستغرق فى النوم .. لقد بدأ يشفى .. أدعو الله أن يسترد قواه العقلية ، فقد قال الطبيب انه كان يهدى !

وظللنا نرقب « توم » وهو نائم . . . وبعد فترة من الوقت
تحرك « توم » وفتح عينيه وقال :
— أين أنا ؟ . . لماذا أنا هنا ؟ أين العالم ؟
فقلت له :
— لا تخش شيئا . . ان كل شيء على ما يرام !
— و « جيم » ؟
— و « جيم » أيضا بخير !
— اذن نحن بخير . . هل أخبرت خالتى ؟
وكدت اقول نعم لولا ان « الخالة سالى » قد افسدت « الحالة » :
— يخبرنى عن ماذا ؟
فقال « توم » :
— عن الطريقة التى تم بها كل شيء .
فقالت « الخالة سالى » :
— وما هو « كل شيء » هذا ؟
— كل شيء . . كل شيء عن الخطة التى دبرناها لفرار « جيم » . .
الخطة التى دبرتها أنا و « توم » !
— يا الهى . . عم يتحدث هذا الغلام ؟ هل فقد عقله مرة ثانية ؟
— لا . . لم أفقد عقلى يا خالتى . . لقد أطلقنا سراح « جيم » . .
أنا و « توم » . . نعم نفذنا الخطة التى وضعناها . . أفدناها بسبل
رائع . . .
وانطلق « توم » يتحدث . . أعترف بكل شيء . . قال لها :
— لقد وضعنا خطة استغرق تنفيذها عدة اسابيع . . كنا
نقضى ساعات وساعات فى العمل وانتم نيام . . سرقنا السموع
وغطاء الفراش والقميمص والملاعق والأطباق والمقلاة والدقيق . .
ونقلنا حجر الطاحونة الى الكوخ ! . . كذلك كتبنا الخطابات المحبولة
ورسمنا صورة الجمجمة والتابوت . . وحفرنا سردابا وبنينا

سلما من الحبال بعثنا به الى « جيم » داخل « فطيرة » ! :

فصرخت « الخالة سالى » قائلة :

— يا اله السموات ! ..

ثم مضى « توم » يقول :

— نعم .. كانت مغامرة مثيرة .. ملأنا الكوخ بالجردان ..
وعند ضبطت « توم » فى « البدروم » بعد أن سرق الزبد ، كادت
الخطئة تفشل .. وذهب الرجال الى الكوخ قبل أن نخرج نحن ..
فهربنا .. وراح الرجال يطاردوننا وأطلق أحدهم بندقيته
فأصابتنى رصاصة .. ولكننا استطعنا أن نصل الى العائمة ..
وهكذا أصبح « جيم » حرا ! .. نحن الذين فعلنا هذا كله يا خالتى !
فقالت « الخالة سالى » :

— الحق انها مغامرة مثيرة ! .. اذن ، فأنتما اللذان أثرتما كل
هذه المتاعب وأدخلتما الفرع فى قلوبنا جميعا ...
— نعم يا خالتى .. فعلنا هذا كله لا لكى ندخل الفرع فى قلوبكم
ولكن حبا فى المغامرة .. ولكم أنا آسف لازعاجكم .
فقالت « الخالة سالى » :

— لقد اغتفرت لكما كل شئ .. ولكن حذار من التدخل مرة
أخرى فى شئونهم !
فقال « توم » :

— فى شئون من يا خالتى ؟

— فى شئون « جيم » الزنجى الهارب .

فاصفر لون وجه « توم » وبدت عليه أمارات القلق وقال :

— شئون « جيم » ! ..

فقالت « الخالة سالى » :

— نعم .. فى شئون « جيم » !

فرمقنى « توم » بنظرة قوية وقال :

— ألم تقل لى يا « توم » أن « جيم » بخير ؟ .. ألم يهرب ؟

فقالت له « الخالة سالى » :

— لا .. لم يهرب .. لقد قبضوا عليه وسجنوه فى الكوخ !
وهو الآن مشدود الى أغلاله وقيوده .. ولا يتناول من الطعام
الا الخبز الجاف والماء القراح ! ..

انتصب « توم » وقد انتفخت أوداجه وصاح فى غضب :
— لماذا يسجنونه ؟ .. اطلقوا سراحه .. انه ليس عبدا رقيقا
.. انه انسان حر .. نعم انه انسان حر كأى انسان آخر !

فقالت « الخالة سالى » :

— ماذا يعنى هذا الفلام ؟

فقال لها « توم » :

— أعنى كل كلمة قلتها .. اطلقوا سراحه والا ذهبت لاطلاق
سراحه .. اننى أعرفه .. و « توم » يعرفه أيضا .. انه
صديقنا .. لقد ماتت « الأنسة واطسون » التى تملكه منذ
شهرين .. ماتت وهى تشعر بالندم والحجل لأنها أرادت أن تبيعه
لأحد تجار الرقيق قبل هروبه بأيام قلائل ! .. نعم ماتت وهى
تشعر بالندم ، وسجلت فى وصيتها أنها أعتقته !! !

فقالت له « الخالة سالى » :

— ولماذا قمت بتلك المغامرة المشيرة لاطلاق سراحه ما دمت
تعرف أن سيدته أعتقته ؟

— فعلت ذلك حبا فى المغامرة ! ..

ثم كف عن الكلام ، ولم يلبث أنه صرخ :

— يا الهى .. ها هى خالتى « بولى » !

ووثبت « الخالة سالى » لاستقبال أختها « الخالة بولى » .

أقصد خالة توم ! .. أما أنا ، فقد تسلمت تحت الفراش ، فقد
كان الموقف حرجا ..

وتعانقت الأختان ، ثم تطلعت « الخالة بولى » الى توم من وراء
عويناتها ، وقالت له :

— لماذا تدير وجهك هكذا يا « توم » ؟ لابد أنك تشعر بالخجل !
فقالت « الخالة سالى » :

— يا الهى .. هل تغيرت هيئة الصبى الى هذا الحد ؟ انه ليس
« توم » يا أختاه .. انه « سيدنى » .. أما « توم » .. توم ..
أين أنت يا « توم » ؟ لقد كان هنا منذ لحظة !
فقالت « الخالة بولى » :

— تقصدين « هاكلبرى فن » يا أختاه !.. ان « سيدنى »
لم يأت الى هنا !.. اخرج من تحت الفراش يا « هاكلبرى فن » !!..
فخرجت من تحت الفراش مطأطأة الرأس !..
وبدت أمارات الدهشة والحيرة على وجه « الخالة سالى » ..
ثم دخل « العم سيلاس » .. وراحت الخالة بولى .. خالة
« توم » تروى لهم كل شىء !..

قالت لهم انها حين تلقت الرسالة التى قتلت لها فيها أختها
« سالى » ان « توم » و « سيدنى » وصلا سالمين ، أيقنت أن فى
الأمر شيئاً لأن « سيدنى » لم يأت الى هنا !.. ثم روت كيف
أن « الأنسة واطسون » ماتت وسجلت فى وصيتها أنها اعتقت
الزنجى « جيم » .. ثم قالت لأختها سالى :

— لقد بعثت اليك برسالة أسألك فيها عما تقصدينه بقولك أن
« سيدنى » جاء مع « توم » !!.. فلماذا لم تردى على رسالتى ؟
— لم أتلق منك أية رسالة يا أختاه !..

فاستدارت « الخالة بولى » نحو « توم » وقالت له :
— هل أنت الذى ...

فقال « توم » :

— نعم ... انهما فى حقيبتى يا خالتى !..

— يا لك من صبى « شقى » !.. ولولا أننى أعرف مدى
شففك بالمغامرات ، لسلخت جلدك !..

الخاتمة

« جيم » يتحسر - ٤٠ دولارا للزنجى
ثمنا للسجن - المخلص « هاكبرى فن » !

عندما خرج الجميع سألت « توم » :
- فيم كانت كل هذه المغامرة . ما دمت تعلم ان « الانسة
واطسون » اعتقت « جيم » ؟
فقال « توم » :
- كنت ابحت عن مغامرة ! . . وكنت ازمع ان اذهب الى « جيم »
بالحقيقة بعد ان تنطلق بنا العائمة ! . . وكنت اهدف من وراء هذه
المغامرة الى تكريم « جيم » . . فلو اننا افلحنا فى تنفيذ خطتنا .
لأرسلت الى الزنوج فى مدينتنا خطابا اروى لهم فيه القصة .
واطلب اليهم ان يخفوا الى استقبال « جيم » . . لبتنا نجحنا فى
تنفيذ خطتنا . . فقد كان ذلك خليقا بان يجعل منا بطلين ومن
« جيم » بطلا ثالثا !! . . وعلى كل حال ، فان نهاية القصة لا تقل
روعة عما كنت اتخيل !



وذهبنا الى الكوخ ، واطلقنا سراح « جيم » . . وعدنا به الى

المنزل . وكانت « الخالة بولى » قد علمت بالمساعدة التى قدمها « جيم » للطبيب الذى عالج « توم » فشكرته . . وفدمت الأسرة له طعاما شهيا ، وأكرموا وفادته . . ونفحه « توم » أربعين دولارا مكافأة له على ارتضائه التضحية بحريته من أجل انقاذه من الجرح الذى أصابه ؛ فقال لى « جيم » :

— هل تتذكر ما قلته لك با « هاك » عندما كنا فى جزيرة جاكسون ؟ . . ألم أقل لك ان صدرى غزير النعر ، وأن ذلك يدل على اننى سأصبح ثريا فى يوم من الأيام ؟ . . لقد كنت أعلم اننى سأصبح ثريا . . وها قد هبط على النراء !!
وتحدث « توم » فقال لنا :

— هلموا بنا نغادر هذه المزرعة . . لنقضى أسبوعين فى بلاد الهنود الحمر ! . .
فقلت له :

— وكيف ؟

فقال « توم » :

— نشتري ملابس جديدة تشبه ملابس الهنود الحمر . . ونذهب الى بلاد الهنود الحمر لنقضى هناك أسبوعين !
— ولكننى لا أملك من المال ما اشترى به ملابس تشبه ملابس الهنود الحمر . . ولست أعنقد أن أبى قد نرك لى شيئا من ثرونى التى كان يحتفظ بها القاضى « تاتشر » !
فقال « توم » :

— ان أباك لم يعد الى المدينة منذ اختفائه . . ولا تزال تروتك . . اقصد الستة آلاف دولار فى انتظارك . .

وقال « جيم » الزنجى بلهجة حاسمة :

— نعم . . لم يعد أبوك الى المدينة . . ولن يعود اليها على الإطلاق !!

— ولماذا يا « جيم » ؟ .. لماذا أنت متأكد هكذا ؟
فقال لى :

— هل تتذكر ذلك المنزل العائم الذى كان به رجل مقنول ؟ ..
هل تتذكر أننى دخلت الغرفة التى كان القتييل ملقى فيها على
الأرض ، وغطيت وجهه بغطاء الفراش ؟ .. هل تتذكر أننى لم
أسمح لك بدخول الغرفة ؟ .. ان هذا القتييل لم يكن سوى أبيك
.. ان ثروتك لا تزال فى انتظارك !! ..

وأخيرا استرد « توم » صحته .. وربط « الرصاصة » التى
أخرجها الطبيب من « كعب » قدمه فى سلسلة الساعة التى كان
يلفها حول عنقه .. وكان يرى « الرصاصة » كلما أخرج الساعة
.. واننى لسعيد لأن مغامرتنا انتهت نهاية حسنة .. ونحن
جميعا نأمل أن يغتفر لنا ذنوبنا ما بدر منا ..

والآن لا يوجد ما يستحق أن أكتب عنه .. ولو أننى كنت
أعلم ما فى كتابة القصص من عناء ومشقة لما أقدمت على تأليف
هذه القصة .. وأعدكم بالألا أكتب قصة أخرى .. والسلام .

المخلص

((هاكلىرى فن))

تمت القصة

أول يونيو ١٩٥٨

صدر من كتاب العلوم الإنسانية

في مجموعة الألف كتاب

(اجتماع . اقتصاد . تربية . علم نفس . تاريخ وتراجم . جغرافيا)
(رحلات . دين . سياسة . فلسفة . قانون . معارف عامة)

- | | |
|---------------------------|--|
| تأليف جوستاف جروندياوم | (١) حضارة الإسلام |
| » إميل نرهيه | (٢) اتجاهات الفلسفة المعاصرة |
| » ريجنالد موريش | (٣) البوليس والكشف عن الجريمة
اليوم . |
| » سير هارولد سكوت | (٤) سكتلنديارد |
| » لويس دكنسن | (٥) فلسفة الخير |
| » الصاغ الدكتور محمد فتحي | (٦) حركات الشباب الاجتماعية |
| » ل . ديلا بورت | (٧) بلاد ما بين النهرين |
| » إميل ليفي | (٨) بسعرك |
| » الأستاذ محرم كمال | (٩) آثار حضارة الفراعنة |
| » أوستاس تشسر | (١٠) الحياة الناجحة |
| » إدجار ديل | (١١) كيف تقرأ الجريدة |
| » ألن شورتر | (١٢) الحياة اليومية في مصر القديمة |
| » ه . ديشان | (١٣) الديانات في إفريقيا |
| » أرنولد جزل | (١٤) الطفل من الخامسة إلى العاشرة |
| » إيفيلين توماس | (١٥) علم نفس الاقتصاد |

(١٦) تاريخ العالم من :

١٩١٤ — ١٩٥٠

تأليف دافيد تومسون

» برتراند رسل

» فرويد

» بوجان فاييه

» جورج كاستلان

» بازيل دافيدس

» جورج فيل

» الأميرالاي محمد

عبد الفتاح إبراهيم

» ت. س. أشن

» ي. هيل

» السير ليونارد وولي

» جيمس فيرجيف

» الدكتور نقولا زيادة

» ويهام تامبير

» أندريه جوسان

» إيفان هنتر

» برستيد

» فيليس دين

» اسكندر هارو و برتراند رسل

» اميل بوفان

» الدكتور صلاح العقاد

» موريس جنزبرج

(١٧) نحو مجتمع أفضل

(١٨) الأحلام والجنس

(١٩) تاريخ طابع البريد

(٢٠) تاريخ الجيوش

(٢١) صحوة أفريقيا

(٢٢) الجريدة

(٢٣) الحرب بين الماضي والحاضر

(٢٤) الانقلاب الصناعي في إنجلترا

(٢٥) الحضارة العربية

(٢٦) مدخل إلى علم الآثار

(٢٧) الجغرافيا والسادة العالمية

(٢٨) الرحالة العرب

(٢٩) تاريخ العلم وصلته بالفلسفة

(٣٠) طبقات المجتمع

(٣١) بذور الشر

(٣٢) فجر الضمير

(٣٣) قصة التجارة الدولية

(٣٤) السلام العالمي في العصر الذري

(٣٥) تاريخ الصحافة

(٣٦) الاستعمار في الخليج الفارسي

(٣٧) علم الاجتماع

تأليف ب . ديوانيه	الصحافة في العالم
» لورد بيفر بروك	النجاح
» برتراند رسل	سبل الحرية
» الدكتور أحمد البطراوي	الجنس البشري في معرض الأحياء
» جاك دوه دونيه دي فابر	الدولة
» جون والتن	ستة من علماء الطبيعة
» ماريان شيفل	الطفل الموهوب
من مؤلفات اليونسكو	ما هو الجنس ؟
تأليف رومر جدين	هانز كرستيان أندرسون
	حياة لويس باستور
	هاكليري فن

مطبوعات مكتبة مصر

في مشروع الألف كتاب

تأليف جوستاف جروندياوم	حضارة الإسلام
» الأستاذ قدرى طوقان	العلوم عند العرب
» ه . ج . فارمر	تاريخ الموسيقى العربية
» دكتور إسماعيل هزاع ، دكتور رزق نخلة سدرية	الرادار في السلم
» ا . م . استفنسن ، شارل استيوارت	استخفاء الحيوان
المجمع المصرى للثقافة العلمية	النزرة في خدمة السلام
تأليف جون درو	الإنسان والميكروب والمرض
» هدى حبشة ، نادية أبو الجهد ، بهاء فهمى	مختارات من المسرحيات القصيرة
تأليف جوستاف لوفيفر	روايات وقصص مصرية من العصر الفرعونى
» ل . س . دن ، ث . دوبرها لسكرى	الوراثة والسلالة والمجتمع
» خسنتو بنفنتى	دنيا المصالح
» جيمس هنرى برستل	فجر الضمير
» هنرى . و . سيمون ، إبراهيم فينوس	أشهر الأوبرات
» دكتور محمد صفى الدين دكتور جمال الدين الدناصورى والأستاذ محمد صبحى عبد الحكيم والأستاذ أبو بكر على عبد العاطى	دراسات في جغرافية مصر

تصويب

ص	س	خطأ	صواب
في بعض الصفحات الأولى		هاكليري	هاكليري
٢٢	١٧	أحمقا	أحمق
٢٧	٩	قصر	قصرأ
٨٦	١	ادخل	ادخلي
٨٨	١٢	بنيها	بنيها
٩٤	١٩	تغطية خطأك	خطئك
١٣٣	١	جد آسفان	جد آسفين

